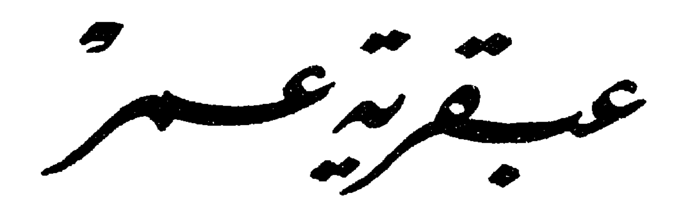


تاليف
عبّاس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم
عبقرية عمر

حمدا لله ، وصلاة وسلاما على البشير النذير ، والسراج المنير ، سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وكل من سار على نهجه ودربه ، ونستعين بخير معين ·· ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا · وبعد :

فالكتاب الذي بين أيدبنا ·· امتطى له العقاد صهوة فكره ، بغية الاحاطة بعظمة بطله ، فبطله ذو لون جديد ، وعبقريته ذات طابع فريد ··

فنوه الى منهجه فى الكتاب ·· بأنه ليس سردا لسيرة عمر ، ولا عرضا لتاريخ عصره ، وانما هو وصف له ، ودراسة لاطواره ، ودلالة على خصائص عظمته ، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس ، وعلم الاخلاق ، وحقائق الحياة ، لذلك ركز على ما يفيد في هذه الدراسة ، سواء لديه أكان من حادث صغير أم عظيم ·

وأظهر الاستاذ العقاد حرجه عندما حاول أن يجاري من يسمون بالكتاب المنصفين ، الذين يقرنون المدائح بالمعايب ، ويمزجون النقائص بالمناقب ، ولا يأتون بحسنة الا نقبوا عن سيئة تمحوها ، أو تقلل منها ، وكان سر حرج العقاد ، أنه لم يجد عيبا ولا نقيصة ولا ما يستحق اللوم في حياة عمر وأطواره. مما جعله يتوقع أن يتهم بالمغالاة والتحيز والاعجاب ، وله العذر كل العذر فى ذلك ، اذ كيف يحاسب ــ هو أو غيره ــ عمر بن الخطاب ، وقد كان عمر يحاسب نفسه بأعنف مما كان يمكن أن يحاسبه غيره ؟؟؟ ··

ان طبيعة عمر بن الخطاب وخلائقه ، كانت تؤهله للزعامة عن جدارة واقتدار ، ولكن أي نوع من الزعامه كان يمكن لعمر أن يناله ؟ لم تكن هناك زعامة مهيأة له ــ لولا الاسلام ــ الا زعامة قبيلته « بني عدي » ، أو زعامة قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى به الامر عند هذا الحد ، ولا يسمع له بعد ذلك خبر ، شأنه في ذلك شأن من سبقوه ، ولكن الاسلام هو الذي أبرز طاقات عمر ، وأظهر مواهبه ، وفجر قدراته ، وكشف النقاب عن عظمته وعبقريته ، وحدد له الزعامة اللائقة به ، والدور الملائم له ، ليعز به الاسلام ، ويزداد هو بالاسلام عزا ، ويبقى ذكره عطرا ، وأثره عبقا ·· فعمر الذي عرفه تاريخ العالم ، وليد الدعوة المحمدية دون سواها ، ولولا الاسلام ، لما عرف العالم عمر ··

ولكن ما دام هذا شأن عمر ، فلماذا لم يقدم على أبي بكر في الخلافة ؟

يجيب الكاتب على هذا السؤال ٠٠ بأن تقديم أبي بكر على عمر لم يكن من باب المفاضلة بين رجلين ، وانما من باب التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه ، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها ، والوقت الذي يحين فيه أوانه ٠٠

والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يعرف لكل من الرجلين فضله ومميزاته ، وأن عمر أشد المسلمين في الله ، وأبو بكر فيه لين وهوادة ، وخلافة أبي بكر ستجمع للاسلام المزيتين ، لان عمر لن يبخل بشدته ، ان احتاجها أبو بكر سندا لهوادته ٠٠ ولذلك ٠٠ فقد كان عمر أول من بايع أبا بكر ، وحث الناس على بيعته ، وقال لأبي بكر وهو يمد يده ليبايعه : أنت أفضل مني ، فيقول له أبو بكر : بل أنت أقوى مني ،فيجيبه عمر : ان قوتي لك مع فضلك !! فكان لأبي بكر وقته الملائم ، وكان لعمر حينه المناسب ، والحبيب المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أشار الى خلافة أبي بكر ، وانها ستكون قصيرة ، وسيأتي بعده عمر ٠٠ وذلك حين قال :

« رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ــ والله يغفر له ــ ، ثم جاء عمر ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفري فريه ، حتى روى الناس ، وضربوا بعطن » ٠

وفسر ضعف النزع ، وكونه ذنوبا أو ذنوبين ، بقصر خلافة أبي بكر ، وفسر فيض الري على يد عمر ، بأنه فيض العبقرية التي ينفسح لها الاجل ، وتتسع أمامها منادح العمل ، ويؤتى لها من السبق ما لا يؤتى لغير العبقريين ٠

ولئن كانت العبقرية لا تخرج في معناها عن : التفرد ، والسبق ، والابتكار ٠٠ فكل هذه الصفات قد تجمعت في شخص عمر ، لان تاريخه زاخر بتلك المعاني في الكثير مما أنجز ٠

لقد كان عبقريا ممتازا في تكوينه وأعماله ، وكان مهيبا رائع المحضر ، حتى في حضرة النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقد روت السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ : أنها طبخت له ــ عليه السلام ــ حريرة ، ودعت سودة أن تأكل منها فأبت ، فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها ، فلم تأكل ، فوضعت يدها في الحريرة ، ولطختها بها ، وضحك النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يضع الحريرة بيده لسودة ، ويقول لها : لطخي أنت وجهها ، ففعلت ٠٠٠ ومر عمر ، فناداه النبي : يا عبد الله ، وقد ظن أنه سيدخل ، فقال لهما : قوما فاغسلا وجهيكما !!

قالت السيدة عائشة : فما زلت أهاب عمر ، لهيبة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اياه !!

ولنا أن نتصور رجلا له مهابة في نفس الرسول !! وقد كان النبي يرعى تلك الهيبة ، رضى عنها ، واغتباطا بأثرها في نصرة الحق ، وهزيمة الباطل ، وتأمين الخير والصدق ، واخافة أهل البغي والبهتان ٠٠

ولقد كانت هيبة عمر نابعة من قوة نفسه ، قبل أن يكون مصدرها قوة جسده ٠٠

على أن عمر المهاب ، كان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخضوع والخشوع بين يدي الله ، حتى ترك البكاء على صفحتي وجهه خطين أسودين ٠٠

ومن السمات التي اتسم بها عمر : أنه كانت له قدرة مذهلة على تمييز المذوقات والمشمومات التي لا يسهل التمييز بينها ٠٠ ومن ذلك ما روي : أن غلامه سقاه ذات يوم لبنا ، فأنكره ، فسأله : ويحك ، من أين هذا اللبن ؟ قال الغلام : ان الناقه انفلت عليها ولدها ، فشرب لبنها ، فحلبت لك ناقة من مال الله !!٠

وكان ذا فراسة نادرة ، وقدرة على كشف الخفايا واستيضاح البواطن ، وكان يحب التفاؤل ، ويعتد بالرؤيا ، والنظر أو الشعور على البعد ، وهذا ما يطلق عليه علماء النفس المعاصرون اسم : « التلباثي » ، وله في ذلك من النوادر ما يبهر ٠٠ ساق الكاتب عديدا من نماذجها ٠ ٠

والقوة صفة لازمت عمر ، ودلت عليها مناقبه ٠٠ والى جانب قوته ٠٠ فقد اشتهر بالعدل ، والرحمة ، والغيرة ، والفطنة ، والايمان الوثيق ، واستمد عمر هذه الصفات من روافد شتى : بعضها من وراثة أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عبر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ٠٠ واستدل الكاتب على كل صفة من هذه الصفات بما يثبتها ويؤيدها ، مبينا أن كل صفة من هذه الصفات ، كانت في موضعها تطغى على غيرها ، فلا تعطيها الى جانبها معانه رسوخ واستقرار ٠

واذا كان المستشرقون قد اتهموا عمر ، بأنه كان محدود التفكير ، وأنه كان يأخذ الامور بقياس واحد ، فقد رد عليهم الكاتب ، بأن عمر كانت له فطنة الرجل العليم بنفائص الاخلاق ، وخبايا النفوس ، وأنه لو كان محدود التفكير ، ينظر الى الامور من جانب واحد ، لما كثرت مشاوراته للكبار والصغار، والرجال والنساء ، مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للامور وجوها لا تنحصر في الوجه الذي يراه ، وأنه كثيرا ما قال : « أخوف ما أخاف عليكم اعجاب المرء برأيه » ٠٠

وذكر الكاتب في كلامه عن صفات عمر : بأنه لم يكن ينثني للخطوب كغيره ، وانما كانت تنثني له الخطوب !! وعبر عن كل صفاته ، بأنها « تركيبة » وليست « تركيبا » ، تشبيها لها بأجزاء الدواء ، الذي اذا نقص جزء منه ، نقص نفعه كله ٠

ولقد رأى الكاتب أن مفتاح شخصية عمر : « طبيعة الجندي » في صفتها المثلى ، وبين ان أهم الخصائص لطبيعة الجندي في صفتها المثلى : الشجاعة ، والحزم ، والصراحة ، والخشونة ، والغيرة على الشرف ، والنجدة ، والنخوة ، والنظام ، والطاعة ، وتقدير الواجب ، والايمان بالحق ، وحب الانجاز في حدود التبعات أو المسئوليات ··· وان هذه الخصائص كلها كانت واضحة في عمر ، حتى أنه بمجزد السؤال عن عظيم اتصف بهذه الصفات ، يأتي الرد : انه عمر ·

وعمر في مخالفاته وطاعاته ، كانت له مخالفات الجند وطاعاتهم ، ولا عجب في هذا ، فقد كان فعلا شرطيا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وصرح هو نفسه بذلك ، حيث قال في احدى خطبه ما فحواه :

« ··· كنت مع رسول الله ، فكنت عبده ، وخادمه ، وجلوازه (الجلواز : الشرطي) ، وكان كما قال الله تعالى : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، الا أن يغمدني ، أو ينهاني عن أمر فأكف عنه ، والا أقدمت على الناس لمكان أمره ··· » ·

وحتى فكاهات عمر نفسها ، كانت كفكاهات الجند ، فيها طابع الخشونة والحدة ·

واستطاع الكاتب أن يبرز كل صفات الجندي المثالي في عمر ، بما قدم له من أدلة ، وما أتى من برهان ·

وتناول الكاتب قصة اسلام عمر ، برواياتها المختلفة ، مقدما لذلك ، بأن أي تغيير يطرأ على الانسان في شكله ، أو زيه ، أو وطنه ، أو ما الى ذلك ، فهو أمر عادي ، أما تغيير معتقده ، فهذا أمر يحتاج الى أسباب وجيهة ، ومهيئات عديدة ، ذاكرا ان الاسلام بدأ يدب في قلب عمر ، منذ ان رأى أم عبد الله بنت حثمة ، وهي تستعد للهجرة الى الحبشة ، فاقترب منها ، وقال لها : انه الانطلاق يا أم عبد الله ! قالت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ··· آذيتمونا ، وقهرتمونا ·· حتى يجعل الله لنا فرجا ، فقال لها في رقة غير معهودة : صحبكم الله !!·

ثم استعرض أسباب اسلام الكثيرين ، وجمع كل هذه الاسباب لعمر ، فمن أخذوا ـ مثلا ـ ببلاغة القرآن ، فأسلموا ، فان عمر كان طويل الباع في البلاغة ، حسن النقد فيها ، هواه منها الصدق ، والطبع ، وجمال التفصيل ، فكان ـ مثلا ـ يطرب لقول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث : يمين ، أو نفار ، أو جلاء ·

ويقول كلما أنشده معجبا : ما أحسن ما قسم ، وسماه شاعر الشعراء ، لانه لا يعاظل بين القوافي ، ولا يتبع حواشي الكلام ، وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر ، فيقول لجليسه : الان اقرأ يا عبد الله !! وقدم الكاتب العديد من الصور الناطقة له بذلك ·

كما تحدث عن نهج عمر في الاسلام ، موضحا بالامثلة رأيه في المظهر المخالف للمخبر ، والعمل للدنيا ، والتواكل ، والاستكانة والتماوت ، ونظافة الثوب وطيب الرائحة ، والرمي ، والعوم ، والفروسية ، والعدوى بالطاعون ، والضرر والنفع بالنسبة للحجر الاسود وشجرة الرضوان ٠٠

ثم تحدث عن تقشفه ، وطريقة معاملته للأميين ، وحبه وكرهه ، وأنه كان في حبه وكرهه لا يظلم ولا يحابي ٠

وعلى العموم ٠٠ فقد دخل عمر الاسلام من كل أبوابه كالعاصفة ، وكان اسلامه صفحة جديدة قد تفتحت في العالم الانساني ٠

واذا كانت العبقرية لا تخرج عن معنى التفرد ، والسبق ، والابتكار ٠٠٠ فقد تجسدت كل هذه المعاني في عمر ، وهو يؤسس الدولة الاسلامية ، والتي ارتأى الكاتب أنه بدأ في تأسيسها من يوم أن بايع أبا بكر على الخلافة ، بل من يوم أن شرح الله صدره للاسلام ٠٠

فافتتح بذلك تاريخا ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ، ورتب لها دواوين ، ونظم أصول القضاء والادارة ، واتخذ لها بيت المال ، ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالجيوش ، وكان أول واضع لدستور الشورى في الدولة الاسلامية ، ووضع دستور الحرب لقواده ، ولم يفته أن يضع لنفسه دستورا قوامه : « ان الحكم محنة للحاكم ، ومحنة للمحتكرين » « وانه لا يصلح الا بشدة لا جبرية فيها ، ولين لا وهن فيه » « وان الخليفة مسئول أمام الله والناس عن جميع ولاته » « وان صلاح الامر في ثلاث : اداء الامانة ، والاخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله » « وصلاح المال في ثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى في حق ، ويمنع من باطل » ٠٠٠ ووضع دستور الولاية ، وكان قوامه : تمييز بالواجب والكفاءة ، وليس تمييزا بالواجب والاستعلاء ٠

وبين الكاتب ما يمكن أن يقال في عزل الاكفاء من الولاة ، واسلوب عمر في مراقبتهم ٠٠

وكان لعمر مذهب في الاخلاق الاجتماعية ، يشبه مذهبه في القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه ، وينهى أن تظن بكلمة شرا وانت تجد لها في الخير محملا ٠٠٠

ووضع نظاما لتحصيل الجزية ، وأسس ديوان الوقف الخيري ، وعددا آخر من الدواوين ، وكان له دور ملموس في التعمير ، واصطلاع بتفريج الازمات كما حدث في عام الرمادة ٠٠٠ مما يمكن معه أن يقال : ان عمر أكبر مؤسس لدولة الاسلام ، قبل أن يكون أكبر فاتح في صدر الاسلام ، وأنه أسس تلك الدولة على الايمان ، لا على الصولجان ، وكان من يوم اسلامه آخذا في تشييد هذا البناء ، حتى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء ٠

وكانت حكومة عمر قائمة على أساس من العدل والحرية ، ولو اردنا أن نقارن بين حكومات العصر وحكومته ، لم نجد أساسا للمقارنة ، واذا قسنا

اعماله بنظام الحكم في زماننا ، وجدنا الكثير من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح لأول وهلة ، فعمر قد أدى الواجب الحكومي على الوجه الاقوم ، ولا سبيل لمؤاخذته بقياس حديث أو قديم ٠

وركز الكاتب على منهج عمر في التقشف ، وبين أنه لم يكن عن عجز ، وانما كان وفاء لحق الصداقة ، والمراد بالصداقة هنا : صداقته للنبـي ، وصداقته للصديق ، فكان لا يستسيغ لنفسه متاعا لم يتحقق لكليهما ، وكان يؤثر الشدة ، ليقطع الشك ، ويدرأ الشبهة ، ويقتدي بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه ٠

وفي الوقت الذي نرى فيه عمر بطلا يروع ، ويعرف روعة البطولـة ، ويستحق الاعجاب غاية استحقاقه ، نراه من فرط ولائه لمن يفوقونه أنه خلق للاعجاب بغيره ، ولم يخلق ليكون موضع اعجاب ، وكم كانت غبطته حينما ناداه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : « يا أخي » !!

وكان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، وليس أدل على ذلك من دخوله الشام ماشيا على الرغم من أنه المنتصر ، وتذكيره لنفسه كلما حدثته بأنه قد صار في منزلة العظمة والسلطان ، بأنه كان راعيا لإبل الخطاب ٠٠

وكان اعجابه بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يفوقه اعجاب ، مع أنه لم يكن أحد مستقلا برأيه في مشورة النبي كاستقلال عمر ، فهو صاحب المشورة في حجب نساء النبي ، وصاحب التأييد في رأيه من رب العالمين في العديد من الامور ، وهو الذي راجع النبي في التبشير بالجنة لمن يشهد أن لا اله الا الله ، مخافة أن يركن المسلمون الى ذلك ٠٠ ولكنه مع ذلك ، كان يضع نفسه بالنسبة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ موضع المأموم مـن الامام ، والمريد من العالم ، والشرطي من القائد ٠٠

وتناول الاستاذ العقاد بالايضاح والتحليل موقف عمر من آل البيت ، ورد على من اتهموه بأنه كان يناجزهم ، وأنه حال بين علي والخلافة ٠

ولقد كان رأي الصحابة في عمر واضحا غاية الوضوح ، يحمل كـل اجلال واكبار ٠٠٠ فعثمان بن عفان هو الذي قال لزياد : « ٠٠٠ لن تلقى مثل عمر ٠٠ لن تلقى مثل عمر ٠٠ لن تلقى مثل عمر » ٠

وبكى علي يوم مات عمر ، وسئل في ذلك ، فقال : « أبكي على موت عمر ، ان موت عمر ثلمة في الاسلام لا ترتق الى يوم القيامة » ٠

وقال فيه ابن مسعود : « كان اسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امامته رحمة » ٠

وقال معاوية موازنا بين الخلفاء : « أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن » ٠

وقال عمرو بن العاص : « لله در ابن حنتمـة (اسم أم عمر) ، أي امرىء كان ؟؟ » ٠

أما عمر ، فقد كان يرعى قدر الصحابة ، ويعرف لكل منهم فضله وقدره ، وما أثير حول عزله لخالد بن الوليد من الاتهامات ٠٠ تناوله الكاتب بكشف حقائق ، تجعل عمر متهما لو لم يتخذ هذا القرار ٠٠ فقد كان هناك مآخذ لعمر على خالد في عهد الرسول ، وفي عهد الصديق ، ثم في عهد عمر ذاته ، ويتوج هذه المآخذ خوف عمر من افتتان الناس بخالد ، أو افتتان خالد بالناس، وهذا وحده سبب وجيه لقرار العزل ٠٠٠ ثم ان عزل خالد كان سنة عمرية متبعة مع جميع الولاة ٠

وأما عن ثقافة عمر ، فقد كان موفور الحظ من ثقافة عصره ، وكان اديبا مؤرخا فقيها ، وخطيبا مطبوعا على الكلام ، وشغوفا بالشعر الجيد وان لم يقله ، وهو الذي حث على تعليم العربية ، وأوصى بوضع قواعد النحو خاصة بعد أن كثرت الفتوح ، وأنكر بعض أنواع الشعر : كالهجاء والتشبيب ، وكان ذواقة للشعر ٠٠ كما أنه كان عالما بتاريخ العرب ، وأيامهم ، ومفاخر أنسابهم٠

وكان عالما فقيها ، قال فيه ابن مسعود : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله » ٠

وقال : « لو ان علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان ، ووضع علم الارض في كفة ، لرجح علم عمر بعلمهم » « ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم » ٠

وقال عنه ابن سيرين : « اذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر ، فشك في دينه » ٠٠

ولقد نصح عمر العلماء فأحسن النصح ٠٠ وكان يشجع الاختراعات التي تنفع الناس ، وله علم بجغرافية الشرق ، وكان — رضي الله عنه — وفيا للذكرى ، فأرخ للهجرة ، واحترم توقف بلال عن الأذان بعد وفاة النبي ٠٠ ونفى الكاتب عن عمر تهمة أمره بحرق مكتبة الاسكندرية ، بأدلة مقنعة ، وحجة قاطعة ٠

وعمر صاحب السلطان الكبير ، والسيطرة الواسعة ، كان يعيش عيشة الكفاف ، الى حد أزهد فيه العديدات من النساء ، فرفضن الزواج منه ، وهذا الرفض خير شهادة على عظمته ٠٠ وقد وصفته احدى الرافضات ، وهي : أم ابان بنت عتبة بن ربيعة ، بقولها : « انه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه » !!

وهل مثل هذه الشهادة تحسب لعمر ، أو على عمر ؟؟

كذلك كان من بين الرافضات : أم كلثوم بنت أبي بكر ، وبينت سبب رفضها بقولها للسيدة عائشة : « انه خشن العيش ، شديد على النساء » ٠

وقد سلمنا أن خشونة العيش تحسب له ، فهل شدته علـى النساء كذلك ؟

أثبت الاستاذ العقاد أن شدته على المرأة لم تكن الا بقدر مجاوزتهـا لحدودها ، وهذا أمر طبيعي في الرجال ٠٠ معظم الرجال ٠٠ فما للمرأة من حق تعطاه ، وما ليس لها بحق لا تعطاه ، بل وتذاد عنه ٠٠

ومن ذلك ــ مثلا ــ أن امرأته تشفعت له في وال مقصر ، وسالته : فيم وجدت عليه ؟ فالتفت اليها غاضبا ، وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟؟

والمنصفون يحسبون مثل هذا الموقف لعمر لا على عمر ٠٠

ومع ما عرف عنه من الشدة وخشونة العيش ، فنساؤه اللائي عاشرنه ، قد كلفن بحبه ، ورضين عيشه ، لرضاهن بمودته وعطفه ، وكانت احداهن لا تطيق فراقه ، فاذا خرج مشت معه الى باب الدار ، فقبلته ، ولم تزل فـي انتظاره ٠٠

وعاتكة بنت زيد ــ احدى نسائه ــ تولهت في رثائه حين قتل ، وقالت فيه شعرا يذوب أسى وحسرة ، ولم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ٠

واشتهر عمر بالغيرة على المرأة ، وفي ذلك يقول الحبيب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور » ٠٠ وكانت غيرته على المرأة شطر من غيرته على كل حرم وحوزة ٠

وكان عمر ابنا بارا ٠٠ وأبا رحيما ٠٠ وعطوفا على الاطفال ٠٠ وكان له أجمل الصلات برحمه ، وذويه ٠

ولقد أشار الاستاذ العقاد اشارة لطيفة ، عندما قارن بين تحمل الرسول لتطاول نسائه ، ورفض عمر لهذا التطاول ، فقال :

محمد « انسان » عظيم ، وعمر « رجل » عظيم ، والرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال ، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة ٠٠

أما الانسان العظيم : فهو يشمل ضعف الانسانية كلها ، ويعطف عليه ، ومنه ضعف المرأة في غرورها ، واعتزازها بدلال الضعف على القوة ٠٠٠ فهو يرى في تكبر المرأة ــ اذا كانت كبيرة عنده ــ نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها في ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لان ميدانه يشمل الميدانين مجتمعين : اذ هو ميدان الانسان كله ، والانسانية جمعاء ٠

ومع كل ذلك ، فقد كان للمرأة رأي في عمر ، لا يخرج عن الاحتـرام والتقدير ٠٠ فقد وصفته سيدة نساء العصر ، أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ بأنه : نسيج وحده ٠

وقالت فيه الشفاء بنت عبد الله : « كان اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا » .

وقالت أم أيمن ، يوم أصيب : « اليوم وهى الاسلام » .

واذا كان هذا رأي النساء فيه ، فما هو رأي أعلام الصحابة ؟؟؟

قال عنه عارفوه : « باطنه خير من ظاهره » .

وقال فيه الصديق ما فحواه : « ان مبغضيه هم المبغضون للخير » .

وقال فيه ابن مسعود : « لو أعلم عمر كان يحب كلبا لاحببته » .

وعمرو بن العاص ، ومعاوية ، كانا يثنيان عليه ، مع أنهما ذاقا ضربات عدله وهيبته .

وشاء القدر أن يقتل عمر بيد الغدر والتآمر والخيانة ، وقد تكشفت له تلك النهاية قبل ذلك ، حينما رأى في منامه : كأن ديكا نقره نقرتين ، فقال : يسوق الله الى الشهادة ، ويقتلني أعجمي ..

وفعلا مات عمر بطعنات من خنجر فيروز « أبي لؤلؤة » الذي كان من سبايا الفرس بالمدينة .. وذهب ــ رحمه الله ــ شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الاسلامية ، وصوت الحق ينادي :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادى . وادخلي جنتي » . ودفن الى جوار الحبيبين : محمد .. والصديق .

وبعد هذا العرض الخاطف ، الذي لا أدعي أنني قدمت فيه كل ما يجب أن يقدم .. أشعر في النهاية ــ مثلما شعرت في البداية ــ بالهيبة والوقار ، والتجلة والاكبار ، وكل ما يليق ببطل هذه الرحلة : عمر الرجل .. عمر الممتاز .. عمر العظيم .. عمر العبقري .

ولا يفوتني أن أنوه بعظمة الكاتب في احاطته بالموضوع ، وعرضه الشيق ، وأسلوبه الجزل ، ومعانيه الحسان ، ودقة تحليله ، وروعة استنباطه ، فما أثبت لعمر صفة الا وأقام عليها الدليل ، وما درأ عنه تهمة الا واستند الى برهان ..

رحم الله عمر ... ورحم الله العقاد .

مهدي عبد الحميد مصطفى
مبعوث الازهر الشريف في لبنان

مقـــدمـــة

تم تأليف هذا الكتاب فى أحوال عجيبـة هى أحوال بأس وخطر .
فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذى أدرته عليه ، لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب الا وجدنا اننا على مقربة من البـأس ومن الخطر فى آن[1]..

فما شرعت فى تحضيره ، وبدأت فى الصفحات الأولى منه ، حتى رأيتنى على سفر بغير أهبة[2] الى السودان . فوصلت اليه وليس معى من مراجع الكتاب الا القليل ، وكانت الصفحات الأولى التى كتبتها فى القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها ، فأعدت كتابتها فى الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه . واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التى أعجلنى السفر عن نقلها ، لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع ، ويجودون بها أسخياء مبادرين الى الجود ، فلا أذكر انى طلبت كتابا فى المساء الا كان عندى فى بكرة الصباح ..

وانى لأتوفر[3] على كتابته، وأحسبنى منتهيا منه فى السودان، اذ رأيتنى مرة أخرى على سفر بغير أهبة الى القاهرة ، فعدت اليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع ، لأن يدى أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم مما عراهما من ثآليل[4] « الخريف »

فعدت وما يشغلنى عن اتمامه شاغل فى السفر والمقام ، ولم أحسب هذا البأس فى الحالتين من موانعه وعراقيله ، لأننى ألفت بعض كتبى الكبار فى أحوال تشبه هذه الأحوال . فألفت كتابى عن « ابن الرومى » بين السجن ونذره[5] ومقدماته ، وألفت كتابى عن « سعد زغلول » وأنا غير مستريح من كفاحه ، وكلاهما من آثر[6] الكتب عندى ، وأكبرها فى

---

(١) آن أينه : حان حينة . (٢) استعداد . (٣) وفر : كمل . (٤) بثور صغيرة مستديرة صلبة . (٥) الانذار . (٦) أفضل .

الموضوع ، وفى عدد الصفحات ..

انما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته ، ومن وضع الشيء فى موضعه على نحو من الأنحاء ، ولم أعدده من حرج التأليف كما عددته من مهيئات جوه ، ولا سيما حين ألفيتنى أدرس الحركة المهدية ،وأتقلب بين مشاهدها وميادينها ، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين[١] والفيلة فى مواقع فارس ، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة فى مواقع الخرطوم وأم درمان . فهذه عقيدة وتلك عقيدة ، ولكن العقيدة التى ظفرت كان معها حليف[٢] من الغد المأمول ، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل

***

ولكن الحَرَج كل الحَرج فى التأليف انما كان فى محاسبة عمر بن الخطاب ، أو ليس الحَرَج فى الحساب أيضا من العمريات المأثورات ؟ !

فالناس قد تعودوا ممن يسمّونهم بالكتّاب المنصفين ،أن يحبذوا[٣] وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا[٤] فى الحسنات بقدر، لينقلبوا من كل حسنة الى عيب يكافئها[٥] ، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنة المغالاة والاعجاب المتحيز ، وهم اذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ، ولا يعجبون الا وهم متحفزون للملام

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل[٦] الذى تحاكم الى قاضيه مع بعض السوقة[٧] فى عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوقة بغير العدل ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه . فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور على تابع جسور[٨] .. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالانصاف

قلت لنفسى : ان كنت قد أفدت شيئا من مصاحبة عمر بن الخطاب فى سيرته وأخباره،فلا يحرجنك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتزكية ،

(١) المشاة • (٢) أي معاهد • (٣) بمعنى يشجعوا • (٤) استرسل : أي قال • (٥) يدافعها • (٦) الملك الاعظم كالخليفة • (٧) الرعية • (٨) الجسور : المقدام •

وان زعم زاعم أنها المغالاة ، وانه فرط[1] الاعجاب ..

وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب ..

فالحق اننى ما عرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون الا وجدته على حجّة[2] ناهضة فيها .. ولو أخطأه الصواب ..

وان أعسر شىء أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته ، بعض ما كان يبلغه هو من محاسبة نفسه ، وأحب الناس اليه

ذلك رجل قلّ أن يجور[3] عن القصد[4] وهو عالم بجوره ، وقلّ أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الانصاف على حسابه ، الا أن يكسبها أيضا على حساب الحق والنقد الأمين ..

فاذا عرفت منحاه[5] من الخلق والرأى ، وسلمت له مزاجه[6] ووجهة تفكيره ، فكن على يقين انه لن يتجافى عن النهج السوى ، ولن يتعلق بأمر يعدوه[7] الصلاح ويشوبه السوء

وذاك أحرج الحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم

وتلك حيطة معه ان لم يستفدها الكاتب ، وهو مشغول بعُمَر ونهج عمر ، فـ مله عبث ذاهب فى الهواء

***

وعلم الله لو وجدت شططا فى أعماله الكبار ، لكان أحب شىء الىَّ أن أحصيه ، واطنب[8] فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضى الاثرة وأرضى الحقيقة ، ولكننى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى : ان هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدا ومؤاخذة ، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الاعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان

وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء .. ولكنه وصف له ، ودراسة لأطواره ، ودلالة على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة ، فلا قيمة للحادث التاريخى جل أو دق الا من حيث أفاد فى هذه الدراسة ، ولا يمنعنى صغر الحادث أن أقدمه

---

(١) مجاوزة الحد · (٢) الحجة : البرهان · (٣) يميل · (٤) العدل ·
(٥) طريقه أو قصده · (٦) ما ركب عليه من الطبائع · (٧) أى ينجاوزه ·
(٨) أطنب الرجل : أتى بالبلاغه ·

بالاهتمام والتنويه[1] على أضخم الحوادث ، إن كان أوفى تعريفا بعمر ، وأصدق دلالة عليه

وعمر بعد رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه لأنه العصر الذى شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان فاذا فهمنا عظيما واحدا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه ، لأننا سنفهم رجلا كان غاية فى البأس، وغاية فى العدل، وغاية فى الرحمة ...

وفى هذا الفهم ترياق[2] من داء العصر يشفى به من ليس بميئوس الشفاء وانه لجهاد جديد[3] لعمر بن الخطاب ، يطيب لنا أن نوجزه فى كتاب

عباس محمود العقاد

---

(١) نوه بالشيء : رفع ذكره · (٢) الترياق : دواء مركب اخترعه « ماغنيس » وتممه « أندروماخس » القديم بزيادة لحوم الافاعي فيه ، وقد سمي بهذا لانه نافع من لدغ الهوام السبيعية · (٣) أي شاق ·

عبقـرى

« .. لم أر عبقريا يفرى فريه [1] ... »

كلمة قالهـا النبى عليه السلام في عمر رضى الله عنه ، وهي كلمة لا يقولها الا عظيم عظماء ، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال ..

فمن علامات العظمه التى تحيى موات الأمم،أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تبتعث كوامن[2] الحياة، ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها الى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة[3] والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمـال يضطلع[4]، ومتى يحين أوانه،وتجب ندبته ، ومتى ينبغى التريث فى أمره الى حين ؟ ..

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب

فأين ــ لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب ــ كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء ؟

انه الآن اسم يقترن بدولة الاسلام ودولة الفرس،ودولة الروم،وكل دولة لها نصيب فى التاريخ . فأين كنا نسـمع باسم عمر لولا البعثـة المحمدية ؟

لقد كان ولا ريب خليقاً[5] أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدى آله الأقربين ، أو بين قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى شأنه هناك،كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر .. لأنهم عظموا أو لم يعظموا ، يعطون البيئة كفاء[6] ما تطلب من جهد ودراية ، وهى تطلب منهم مايذكرون

---

(١) فرى الجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفري أتى بالعجب · والمعنى أن عمر عبقرى منفرد في عمله ، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه · (٢) كوامن الاشياء · مكنوناتها وبواطنها · (٣) غير الخاطئـة · (٤) يقوم بكفاءة · (٥) جديرا · (٦) أى قدر ·

به فى بيئتهم ، ولكنها لا تطلب منهم ما يتذكرون به فى أقطار العالم البعيد

وقد كان عمر قوى النفس بالغا فى القوة النفسية .. ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام ، ولم يكن ممن يندفعون الى الغلبة والتوسع فى الجاه والسلطان ، بغير دافع يحفزه اليه وهو كاره لأنه كان مفطورا[١] على العدل،واعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله . وكان من الجائز أن يهيجه خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة فى الجاهلية ، فينبرى[٢] لدفعه ، ويبلى فى ذلك بلاء يتسامع به العرب فى جيله وبعد جيله ، ولكنه لا يعدو[٣] ذلك النطاق ولا هو يبالى أن يمعن فى بلائه حتى يعدوه

بل كان من الجائز غير هذا ، وعلى نقيضه ..

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف اليها فانه كان فى الجاهلية كما قال : « صاحب خمر يشربها ويحبها » وهى موبقة[٤] لا تؤمن حتى على الأقوياء اذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر[٥] الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها ، ويكفهم عن الافراط فى معاطاتها

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها ، بها عرف، وبغيرها لم يكن ليعرف فى غير الحجاز أو الجزيرة العربية ..

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التى سأل الله فيها أن يعز به الاسلام ، الى اللحظة التى ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو — عليه السلام — فى مرض الوفاة

سبر غوره[٦] واستكنه[٧] عظمته ، وعرفه فى أصلح مواقفه فعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره عليه

وليست هى مفاضلة بين رجلين ، ولا موازنة بين قدرتين ..

ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع

---

(١) الفطرة : الخلقة التي خلق عليها . (٢) انبرى له : اعترض له . (٣) يتخطى ويتجاوز . (٤) مهلكة . (٥) موانع ونواهي . (٦) امتحن عمق جرحه ، والمراد : مكنوناته . (٧) بلغ غايتها .

فيه ، والمهمة التى ينبغى أن يندب لها ، والوقت الذى يحين فيه أوانه

وربما رأينا فى زماننا هذا رئيسا يوصى لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش ، فلا تقول:انه يفاضل بين النصيرين،أو انه يرجح أحدهما على الآخر فى ميزان الكفاءة ، وانما يختار كلا منهما لموضعه فى الوقت الذى يحتاج اليه ، ولا غضاضة[١] على أحد منهما فى هذا الاختيار ..

فالنبى عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجلّ[٢] معادلة حين قال : « ان الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : « من تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم[٣] » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم[٤] » ومثلك يا عمر مثل نوح قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا[٥] » ومثلك[٦] كمثل موسى قال : « ربنا اطمس[٧] على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم[٨] »

كان النبى عليه السلام يعلم ــ كما قال ــ ان عمر أشد المسلمين فى الله ، ويعلم أن فى أبى بكر لينا وهوادة ، فجمع للاسلام المزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة،وضمّن هذا الاختيار معنى من معانى الاستخلاف .. أو كما جاء فى بعض الروايات،أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح ..

فتعزيز الاسلام بعد نبيه،كان فى حاجة الى كثير من الهوادة والمجاوزة ، وكان كذلك فى حاجة الى كثير من الشدة والصرامة ، ولن تذهب شدة عمر اذا احتاج اليها أبو بكر فى محنة يشتد فيها اللين الوديع . انما الخوف أن يذهب لين أبى بكر اذا اشتد عمر ، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فان الموقف اذا استنفد حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر الى البأس ويصر عليه ، فأقرب شىء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوب الى

---

(١) الذلة والمنقصة . (٢) أي أعظم . (٣) الآية : ٣٦ من سورة ابراهيم .
(٤) الآية : ١٨ من سورة المائدة . (٥) أحدا . (٦) الآية : ٢٦ من سورة نوح .
(٧) أمحها أو غيرها . (٨) الآية : ٨٨ من سورة يونس .

المعهود من صرامته[٢] ولدده

وكان النبى عليه السلام يعلم ان احتمال التبعة أو « المسئولية » خليق أن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف والأزمات ، فيجنح اللين الى الشدة ، ويجنح الشديد الى اللين .. لأننا اذا قلنا ان رئيسنا أصبح يشعر بالمسئولية، فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعه ، ولا يقنع باللين أول وهلة اذا كان من دأبه اللين ، ولا بالشدة أول وهلة اذا كان من دأبه الشـــدة ، ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول

***

وهذا الذى ظهر أعجب ظهور فى موقفى الصاحبين من حرب الردة . فأن عمر الشديد قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد آثر القتـــال وأصر عليـه ، وكان عمر يقول : « ان رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده الله بهم » وقد انقطع ذلك إليوم ، ثم يقول للخليفـة : « الزم بيتك ومسجدك فانه لا طاقة لك بقتال العرب » وكان أبو بكر يقول متسائلا : « أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟.. والله ليظهرن الله هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون » قوله الحق ووعده الصدق « بل نقذف بالحق على البـــاطل فيدمغه فاذا هو زاهق[٣] » .. « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين[٤] » .«والله أيها الناس،لو منعونى عقالا[٥] لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين ! »

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها ، وجاء عمر بقصارى[٦] ما عنده من حجج الرأى الآخر،حتى وضحت المناهج واستقر العزم والتقى الصاحبان عليه فكانت شـدتهما فى الحق شـدتين ..

وهَب الأمر مع هذا قد اختلف فى موقف الصاحبين ، فمال أبوبكر الى السلم والمسامحة ، فأين كانت شدة عمر ذاهبة عنه فى هذه الحال ؟.. أغلب الظن أنه هو الذى كان يتولى يومئذ أن يبسط وجه الشدة فى معـــاملة

(١) يرجع . (٢) أي شدته . (٣) الآيـة ١٨ من سورة الانبيـاء
(٤) الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة . (٥) زكاة عام من الابل والغنم . (٦) بغاية .

المرتدين .. لأنه يعلم انه المسئول عن بسط هذا الوجه دون غيره، فلا تفوت الاسلام مزية من مزايا الصاحبين

إن محمدا عليه السلام قد عرف من هم رجاله ، وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته ، فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع ، ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما فى احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة ، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول

ولا يحسبن حاسب اننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ، ولم يكن مقصودا فى النيات قبل ذلك .. فان الذى يحسب هذا الحسبان يخطىء تلك الخطأة الشائعة التى لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة : يخطىء فى وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع[1] الزمن الأخير وليست هى من البدع فى زمن كان .. لأن العظمة لم تكن قط وقفا على العصر الحديث ، ولاسيما العظمة التى ترجع الى الفطرة القويمة، والبديهة النافذة، والنظر السديد

فكل هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير ، وكان مفهوما على البداهة بين ولاة الأمر فى تلك الآونة ، ملحوظا بينهم فى مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن فى عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ ..

والى ذلك أشار عمر فى قول صريح، حين قال لمن هابوه[2] وتحدثوا بخوف الناس منه : « بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، ثم اشتد وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور اليه ؟.. ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى .. فلم أزل مع رسول الله

---

(١) اخترعه ، ويبرع : أي مبتدع ، وفلان بدع في هذا الامر : أي بديع .

(٢) من الهيبة .

صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته[٢] وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . ثم انى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين : فأما أهل السلامة والدين والقصد[٣]، فأنا ألين لهم من بعض لبعض ... »

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعيد موت النبى والحال على أشده فى يوم السقيفة ، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل : من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير

ففى تلك المحنة التى تشخص[٤] فيها الأبصار، وتعظم التبعات ، وتودى[٥] زلة الساعة فيها بالكثير الذى لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بوادر الحدة من أبى بكر ويهيىء الكلام اللين ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة[٦]، ويقول فيما رواه عن محنة ذلك اليوم : « وكنت أدارى منه بعض الحد — أى الحدة — فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر : على رسلك[٧] ! فكرهت أن أغضبه . فتكلم أبوبكر فكان هو أحلم منى وأوقر»

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبى بكر ، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام ، فيطيع !

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم ، وهذه مواقف يعرفها صاحبها ، وهذه مسألة فصل فيها الزمن، ولم يبق لنا نحن الذين نعود اليها ونستخلص عبرتها الا أن نراقب ما فيها من آيات الاعجاز ، وسوابق النظر البعيد

ما وضع أبو بكر خيرا من موضعه ، وهو يلى الاسلام والخطر من داخل أهله ، والطب الذى يطبهم به هو طب التآلف والاحجام عن السطوة ما كان الى الاحجام عنها سبيل

(١) جعله في غمده • (٢) سكونه • (٣) استقامة الطريق • (٤) شخص بصره : اذا فتح عينيه وجعل لا يطرف • (٥) أي تهلك • (٦) أي التريث • (٧) تمهل أو انتظر •

وما و ضع عمر خيرا من موضعه ، وهو يلى الاسلام والخطر عليه من أعدائه المحدقين[1] به ، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكل[2] عن صراع

وكأنما توقع النبى أن أيام أبى بكر معـــدودات ولكنها الأيام التى تحتاج اليه وتكفى لانجاز عمله . وتوقع أن يأتى عمـل عمر فى حينـه المقدور . فلا يفوت الاسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده . نقول هذا على الترجيح ، ومن حقنا أن نقوله على التوكيد ، لأن حديث النبى فيه غنى عن التخمين والتأويل . قال عليه السلام : « رأيت فى المنام انى أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبوبكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن »

وفهم فقهاء الاســلام ان ضعف النزع هو قصر المدة وانصراف العزم الى حرب الردة ، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التى ينفسح لها الاجل وتنفسح أمامها منادح[3] العمل ، ويؤتى لها من السبق ما لايؤتى لغير العبقريين

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الاقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين ، فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب .. أتراها على كلا المعنيين شيئا غير التفرد والسبق والابتكار ؟.. كلا .. ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية انه يكتب تاريخا « لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا » حتى ينتهى بسرد هذه « الأوليات » الى عداد العشرات

وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به . صلوات الله عليه

---

(١) أحدقوا به : أحاطوا به ٠ (٢) لا يجبـن ٠ (٣) الندح : الكثرة والسعة ٠

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقرية اذا نظرنا الى أعماله ، ويوصف بها اذا نظرنا الى تكوينه الذى جعله مستعدا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة . وان لم يكن من اللازم اللازب[1] أن تقترن القدرة بالعمل الذى تستطيعه . لما يتفق أحيانا من وقوف العوائق بينها وبين الانجاز أو الاتجاه الى ذلك العمل ..

الا أن عمر كان رجلا ممتازا بعمله ، ممتازا بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين ..

اذا وصفته للأقدمين الذين يقيمون العبقرية بالفراسة[2] والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده

واذا وصفته للمحدثين الذين يقيمون[3] العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء،عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز ، أو رجل موهوب

كانت نظرة اليه ـــ قبل السماع بعمل من أعماله ـــ توقع فى الروع[4] أنه من معدن فى الرجال غير معدن السواد[5]، وأنه جدير بالهيبة والاعظام ، خليق أن يحسب له كل حساب

كان مهيبا رائع المحضر،حتى فى حضرة النبى التى تتطامن عنده الجباه ، وأولها جبهة عمر

أذن النبى يوما لجارية سوداء أن تفى بنذرها « لتضربن بدفها فرحا ان رده الله سالما » فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه

ودخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل على وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، والصحابة مجتمعون

---

(١) النابت . (٢) من التفرس ، وهو التثبت وبعد النظر . (٣) من قوم السلعة : اذا قدر قيمتها . (٤) العقل والقلب . (٥) سواد الناس : عوامهم .

فما هو الا أن دخل عمر حتى وجمت[1] الجارية وأسرعت الى دفها تخفيه ، والنبى عليه السلام يقول : « ان الشيطان ليخاف منك ياعمر ! »

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة ودعت سودة أن تأكل منها فأبت .. فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها . فلم تأكل ، فوضعت يدها فى الحريرة[2] ولطختها بها ، وضحك النبى عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها : لطخى أنت وجهها ففعلت

ومر عمر فناداه النبى : يا عبدالله ! .. وقد ظن أنه سيدخل ، فقال لهما : قوما فاغسلا وجهيكما !

قالت السيدة عائشة : فمازلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ فى زيارة قبره بعد موته ، وحكت ذلك فقالت : « ما زلت أضع خمارى[3] وأتفضل فى ثيابى وأقول : انما زوجى وأبى حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جدارا فتفضلت[4] بعد »

وان من أدب الرسول عليه السلام ، أنه كان يرعى تلك الهيبة رضى عنها واغتباطا[5] بأثرها فى نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق واخافة أهل البغى والبهتان[6]

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلونه .. وتلك علامة على أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار .. فربما اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه[7] عن الخيلاء وقلة اكتراثه[8] للمظهر والثياب ، أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا تذهبها الالفة وطول المعاشرة ، ومن ذلك أنه كان يمشى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله اذ بدا له فالتفت . فلم يبق منهم أحد الا وخر ركبتيه ساقط !

وتنحنح عمر . والحجام يقص له شعره ، فذهل الحجام عن نفسه .

(١) أمسكت عن ضرب الدف . (٢) دقيق يطبخ بلبن أو دسم . (٣) أنزعه وأخلعه . (٤) أى التبذل . (٥) أى سرورا وفرحا . (٦) أى الباطل . (٧) لابتعاده . (٨) أى اهتمامه .

وكاد أن يغشى عليه،فأمر له بأربعين درهما

فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد ، الا انه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعا يهول[١] من يراه ، ولا يذهب الخوف منه الا الثقة بعدله وتقواه

كان طويلا بائن[٢] الطول يرى ماشيا كأنه راكب ، جسيما صلبا يصرع الأقوياء ويروض[٣] الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق[٤] ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب

تشهد العيون كما تشهد القلوب انه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الانسان ، وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال

فالعالم الايطالى «لاومبروزو» ومدرسته التى تأتم[٥] برأيه ، يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا نخطئها على صورة من الصور فى أحد من آهلها .. وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط[٦] من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة[٧] العامة بين أصحاب التشابه والمساواة

فيكون العبقرى طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بيّن القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة[٨] الشعر على غير المعهود فى سائر الناس . ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان[٩] الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء ، فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزكانة والفراسة، وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع،فهى بلا ريب صادقة فى حالات ، مقاربة فى حالات ، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد

---

(١) يفزع ويخيف . (٢) واضح وظاهر . (٣) أي يدربه ويعلمه .
(٤) أي قدر . (٥) تقتدي . (٦) نوع . (٧) للطريقة . (٨) أي قلته .
(٩) جاش البحر والقدر : غلى .

العرف المأثور ..

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير

كان كما تقدم طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسر يسرا يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال : وكيف تجدون عمر ؟.. فقال : خير النـاس ، الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم ..

وكان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله ، وأثر البكاء فى صفحتى[1] وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان

ومن فرط حسه ، وتوفز شعوره ، انه كان يميز به بعض المذوقات والمشمومات التى لا يسهل التمييز بينها . سـقاه غلامه ذات يوم لبنا فأنكره . فسأله : ويحك !.. من أين هذا اللبن ؟.. قال الغلام : ان الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله

وقد عرفنا أهل البادية.وعرفنا أنهم جميعا أصحاب ابل وألبان ، ولكننا لم نجد منهم الا قليلا يدعون أنهم يفرقون بين لبن ناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة ، ولا سيما فى المناخ الواحد والمرعى المتقارب

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » ... وتروى له فى أمر هـذه الفراسـة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة الى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهى انه اشتهر بالفراسـة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك:انه كان جالسا فمر به رجل جميل فقال ما معناه : أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية . فكان كذلك

وانه أبصر اعرابيا نازلا من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده قد نظم فيه شعرا لو شاء لأسمعكم ، ثم سأل الاعرابى : من أين أقبلت ؟ .. فقال : من أعلى الجبل .. فسأله : وما صنعت فيه ؟.. قال : أودعته وديعة لى .. قال : وما وديعتك ؟.. قال : بنى لى هلك فدفنتـه .. قال : فأسمعنا مرثيتك فيه .. فقال : وما يدريك يا أمير المؤمنين ؟.. فوالله

(١) صفحة كل شيء : جانبه .

ما تفوهت بذلك ، وانما حدثت به نفسى ، ثم أنشد أبياتا ختمها بقوله :

فالحمـــد لله لا شريك له   فى حكمه كان ذا وفى قدره
قدر موتا على العباد فما   يقـــدر خلق يزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته . ثم قال : صدقت يا اعرابى !..

وكان عمير بن وهب الجمحى ، وصفوان بن أمية ، يذكر ن مصاب أهل بدر فقال صفوان : والله ما ان فى العيش بعدهم خير . فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر : أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة[١] بعدى ، لركبت الى محمد حتى أقتله

فقال صفوان يحرضه : على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم

فوقع كلامه من نفس عمير ، فأسرَّ اليه بعزمه على الغـــدر بالنبى ، وشحذ[٢] سيفه وسمه ، ثم انطلق حتى قدم المدينة

فما نظر عمر اليه متوشحا بالسيف حتى أوجس منه[٣] وهمس لمن معه : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب . ما جاء الا لشر وهو الذى حرش[٤] بيننا وحزرنا[٥] للقوم يوم بدر . ثم دخل على النبى فأخبره خبره ، وعاد الى عمير فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه[٦] بها . وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فانه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله يا عمر !.. اذن يا عمير !

وجعل رســـول الله يسأل عمير وهو يراوغ[٧] حتى ضاقت به منافذ الانكار فباح بسره ، وأعلن الاسلام والتوبة

هذه الفراسة وشبيهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنبـــاط الأسرار بالنظر الثاقب[٨] وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية فى حاشية من حواشيها[٩].. اذ ما هى العبقرية فى لبـــابها كائنا ما كان عمل العبقرى المتصف بها ؟.. ما هى الحكمه العبقرية ؟ . ما هو الفن العبقرى ؟.. ما هو دعاء السياسة فى الدهاة العبقريين ؟

(١) أي الضياع · (٢) حده · (٣) أضمر في نفسه الخوف منـــه · (٤) أغرى · (٥) التقدير والحرص · (٦) المراد : جعلها في نحره · (٧) حاد عن السيء · (٨) النافذ · (٩) أي جانب من جوانبها ·

من هو :

الألمعي[1] الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا ؟

كل أولئك يلتقى فى هبة[2] واحدة ، هى كشف الخفايا ، واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق[3] عن الألباب .. فاتصالهـا بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه ، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتحيه

والذى يعنينا[4] من الفراسة وشبيهاتها فى صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار ، وهى التفاؤل،والاعتداد بالرؤيا والنظر،أو الشـعور على البعـد،أو « التلباثى[5] » كما يسميه النفسانيون المعاصرون ، ولكل أولئك شـواهد شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد اسلامه الى أن أدركته الوفاة .

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله : ما اسمك ؟.. قال : قريب ، وسأله مرة أخرى : ابن مَن ؟.. فقال : ابن ظفر !.. فتفاءل وقال : ظفر[6] قريب ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سـأل رجلا : ما اسمك ؟.. قال : جمرة !.. فسأله : ابن من ؟.. قال : ابن شهاب .. فسأله : ممن ؟ .. قال : من الحرقة ، وعاد يسـأله : ثم ممن ؟.. قال : من بنى ضرام ، وهكذا فى أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه ، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتها،حتى استوفاه . فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا ..

وقد يكون التأليف ظاهرا فى هذه القصة ، ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشـتهار عمر باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الانذار ..

أما الرؤيا فآخر ما روى عنه من أخبارها،أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال : يسوق الله الي الشهادة ويقتلنى أعجمى ، فان الديك فى الرؤيا يفسر برجل من العجم

على أن المكاشـفة أو الرؤية Vision كما يسميهـا النفسـانيون

(١) المتوقد الذكاء ٠ (٢) الهبة : الساعة ٠ (٣) أي تخض ٠ (٤) أي نقصده ٠ (٥) أي الشعور البعيد ٠ (٦) أي نصر ٠

المحدثون انما تظهر بأجلى وأعجب من هـذا كثيرا فى قصـة سـارية المشهورة ، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثى Telepathy أو الشعور البعيد

كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة،فالتفت من الخطبة ونادى : يا سارية بن حصن ! الجبل .. الجبل ! ومن استرعى[1] الذئب ظلم

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته،فسأله على رضى الله عنه : ما هذا الذى ناديت به ؟.. قال : أو سمعته ؟.. قال : نعم .. أنا وكل من فى المسجد ..

فقال : وقع فى خلدى ان المشركين هزموا اخواننا،وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل .. فان عدلوا[2] اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن ! الجبل .. الجبل .. فعدلنا اليه ففتح الله علينا

ولا داعى للجزم[3] بنفى هذه القصة استنادا الى العقل أو الى العلم أو الى التجربة الشائعة ، فان العقل لا يمنعها ، والعلمـاء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيهـا ونفى أمثـالها . بل منهم من مارسـوا « التلباثى » وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لايؤمنون بدين

الا أن المهم من نقل هـذه القصـة فى هـذا الصـدد أن عمر كان مشهورا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية اما بالفراسـة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة وراقبوها وآكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها ..

فهو رجل نادر بما تراه منه العين ، نادر بما تشهـد به الأعمـال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين

أو هو رجل ممتاز ، وعبقرى موهوب فى جميع الآراء

(١) أي جعله راعيا . (٢) عدل الى الشيء : رجع ، والى الطريق : مال . (٣) القطع .

صفـــاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال . رجل عبقرى ، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة،الذين لا يعدون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد

أنقول رجل قوى ؟.. نعم هو رجـل قوى لا مراء[1].. وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة . نعلم هذا فنعلم الشىء المهم عنه ، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئا مهما عن صفاته وأخلاقه . لأن النـاس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون الى هنا تارة والى هناك تارة أخرى . أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف ، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط[2] لا تحصى من المناقب[3] والعيوب ، وأحرى[4] بنا أن نقول ان القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الانسان وعيوبه . فهى حالة تدل عليها المناقب والعيوب ، أو تدل عليها الصـفات والأخلاق ، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الانسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد الى صفاته وأخلاقه . فاذا قلت ان عمر بن الخطاب رجل قوى ، فما زدت على أن تقول انه رجل عبقرى أو انه رجل عظيم

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير ، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين .. وقد يكون الرجل العظيم نمطا وحيدا فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته وان ساواه فى القدر أنداد[5] وقرناء[6]

وعمر بن الخطاب مثل فذ من أمثلة هذا الطراز الفريد ، تفهم سره فاذا هو على وفاق مع جهره ، وتنفذ الى باطنه فاذا هو مصدق للظاهر من سيماه ..

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظـاهر والبـاطن وبين الجهر والسريرة ؟.. كلا .. ولا تقدمنا بعيدا فى طريق حلها ، لأننا لا نعرف

(١) المرية : الشك · (٢) أي أنواع وأصناف · (٣) المنقبة : المفخرة ·
(٤) أولى وأجدر · (٥) والند : المثل والنظير · (٦) القرن : مثلك في السن وقرنك : كفؤك في الشجاعة ، والقرين : الصاحب ·

هذا التقارب الا بعد معرفة السريرة[١] التي نبحث عنها ، فلا بد اذن من البحث ، ولا بد اذن من المعرفة .. فاذا وصلنا الى الغور[٢] البعيد عرفنا ساعتئذ انه لا يناقض الظاهر المكشوف ، ولكن لابد من الوصول الى الغور البعيد قبل ذلك

لا تناقض فى خلائق[٣] عمر بن الخطاب ، ولكن ليس معنى ذلك انه أيسر فهما من المتناقضين ، بل لعله أعضل[٤] فهما منهم فى كثير من الأحيان . فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه ، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ الى صميمه ويحتويه

انما الأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدا لايسترها حجاب . فما من قارئ ألم بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا ، وكان رحيما . وكان غيورا ، وكان فطنا ، وكان وثيق الايمان،عظيم الاستعداد للنخوة الدينية ..

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان الوثيق صفات مكينة فيه تخفى على ناظر ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات الى وجهة واحدة،ولا تتشعب فى اتجاهها طرائق قددا[٥] كما يتفق فى صفات بعض العظماء ، بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضا حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان ..

وأعجب من هذا فى التوافق بين صفاته:أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد[٦] شتى ولا تستمدها من ينبوع[٧] واحد ، ثم هى مع ذلك متفقة لا تتناقض ، متساندة لا تتخاذل ، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر فى شيء ..

خذ لذلك مثلا عدله المشهور الذى اتسم[٨] به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى .. فكم رافدة لهذا الخلق الجميل فى نفس ذلك الرجل العظيم ؟ ..

---

(١) أي الامور الخفية · (٢) القعر من كل شيء · (٣) طبيعة · (٤) اشتد · (٥) أي متفرقة · (٦) ينابيع · (٧) عين الماء · (٨) أي تميز به

روافد شتى : بعضها من وراثة أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عِبَر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه .. وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويم[1] الى غاية واحدة لا تنم على افتراق

لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه[2] بيوت بنى عدى ،الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية ، وراضوا[3] أنفسهم من أجل ذلك جيلا بعد جيل على الانصاف وفصل الخطاب ، وجده نفيل ابن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا اليه وتنافسا على الزعامة ، فهو عادل من عادلين ، وناشىء فى مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء ..

وكان عادلا لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه .. وان شئت فقل أيضا بتكوينه الموروث ، اذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس[4] ، وكانت أمه منتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش فى كل نضال فهو على خليقة الرجل الذى لا يحابى[5] لأنه لا يخاف ، والذى يخجل من الميل الى القوى لأنه جبن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزرى[6] بنخوته[7] وشممه[8]..

وكان عادلا ؛لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس ،وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم ،وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه ، وساعدت عِبَر الأيام على تمكين خليقة العدل فى خلاصة هذه الأسرة ، أو خلاصة هذه القبيلة ، ونعنى به عمر بن الخطاب

وكان عادلا ؛بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله ؛بمقدار ما حاربه وهو عدوه ، فكان أقوى العادلين ؛كما كان أقوى المتقين والمؤمنين

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية ، والقوة الفردية ، وعبر الحوادث ،وعقيدة ،الدين فى صفة العدل التى أوشكت أن تستولى فيه على

(١) أي معتدل • (٢) أشرف • (٣) من قولهم : راض المهر : أي ذلله ودربه وعلمه • (٤) بمعنى الشدة والقوة • (٥) حاباه : نصره واختصه ومال اليه • (٦) يعيب • (٧) عظمته وكبريائه • (٨) بمعنى الكبرياء ايضا •

جميع الصفات ..

كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه ، وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها ، لأنه منحها القوة التى تشدها كما يشد الحبل المبرم[١] فلا تتفكك ولا تتوزع ، فكان عمر فى جميع أحكامه عادلا على وتيرة[٢] واحدة لا تفاوت بينها ، فلو تفرقت بين يديه مائة قضية فى أعوام متباعدات ؛ لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير ..

الا أن الصفات اذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة؛لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها ، وان سلمت منه بطبيعتها ، لأنها تدخل فى صفات البطولة التى تثير الاعجاب والمبالغة ، وكل بطولة فهى عرضة للمبالغات والاضافات ، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل ..

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة ، وفيها دواعى الاغراء بالاعجاب والمبالغة . وممن ؟.. من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء،وهم فى الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين .. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التى تأباه

فالعدل مثلا:هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم فى قضاء الحقوق واقامة الحدود ..

وليس أقرب الى الحاكم من ابنه

فاذا سوّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية ، فذلك عدل مأثور يقتدى به الحاكمون ..

ولقد سوّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين ، فبلغ بذلك مبلغ البطولة فى هذه الصفة النادرة بين الحكام

وذلك كاف فى تعظيم قدره .. لا حاجة بعده الى مزيد ..

الا انها صفة من صفات البطولة التى تروع[٣] وتعجب،وتملأ النفس بالرغبة فى التحدث بها،والاطناب[٤] فى أحاديثها ، فهى لا تكفى المبالغين حتى

(١) الحبل المبرم : المفتول فتلا شديدا • (٢) أي طريقة • (٣) من راعه الشيء : أعجبه • (٤) الاطالة والبلاغة في الوصف •

يجعلوا عمر مقيما للحد على ابنه ، مشتدا فى عقوبته اشتدادا لا يسوى فيه بينه وبين غيره ، ثم لا يكتفى المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة ، فيمضى عمر فى جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود ! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت واتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذى ثقل عليه ، وعجز عن احتماله ..

نعنى بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر فى مصر ، وهى كما رواها عمرو بن العاص والى مصر يومئذ،حيث يقول : « ... دخلا ــ عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة ــ وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فانا قد أصبنا البارحة شرابا فسكرنا ، فزبرتهما[1] وطردتهما ؛ فقال عبد الرحمن : ان لم تفعل أخبرت أبى اذا قدمت عليه .. فحضرنى رأى وعلمت انى ان لم أقم عليهما الحد غضب على عمر فى ذلك وعزلنى وخالفه ما صنعت ، فنحن على ما نحن عليه اذ دخل عبدالله بن عمر ، فقمت اليه فرحبت به وأردت أن أجلسه فى صدر مجلسى فأبى علىَّ وقال : أبى نهانى أن أدخل عليك الا أن لا أجد من ذلك بدا[2]. ان أخى لا يحلق على رؤوس الناس ، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك »

قال عمرو بن العاص : وكانوا يحلقون مع الحد فأخرجتهما الى صحن الدار فضربتهما الحد ، ودخل ابن عمر بأخيه الى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبى سروعة ، فوالله ما كتبت الى عمر بشىء مما كان،حتى اذا تحينت[3] كتابه اذا هو نظم[4] فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصى ابن العاص :

« ... عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك علىّ وخلاف عهدى ... فما أرانى الا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك ؛ وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟.. انما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين . ولكن قلت هو ولد أمير

(١) الزبر : الزجر والانتهار . (٢) أي مفرا . (٣) المراد : جاء كتابه في حينه أي وقته . (٤) التأليف ، والمراد : كتب فيه .

المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة[1] لأحد من الناس عندي فى حق يجب لله عليه ، فاذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب[2] حتى يعرف سوء ما صنع » ..

قال : « فبعثت به كما قال أبوه،وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه ، وكتبت الى عمر كتابا اعتذر فيه،وأخبره أنى ضربته فى صحن دارى ، وبالله الذى لا يحلف بأعظم منه انى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الذمى والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر »

قال أسلم : « فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من مركبه . فقال : يا عبد الرحمن فعلت كذا ؟.. فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة فلم يلتفت الى هذا عمر وزَبَرَه[3]، فجعل عبد الرحمن يصيح : أنا مريض وأنت قاتلى !.. فضربه وحبسه ، ثم مرض فمات رحمه الله »

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم ، فلا نستغربها فى جميع تفصيلاتها الى حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب الى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة ، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين،ولا تقبلها الفطرة الانسانية ، فيقيم عليه الحد وهو ميت ، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه ، ومضينا فى تمحيصه[4] فطابق التمحيص ما قدرناه ، أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه ، بل هو من القصص التى يستبعد فيها التلفيق والاختراع[5] .. الا أن يكون الملفق من حذاق[6] الرواة ومهرة الوضاع

ولو كان المصدر واحدا معروفا بالحذق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه . ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهى أقرب الى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه

فعبد الرحمن بن عمر يذهب الى الوالى لأنه شرب شيئا ظنه غير مسكر فاذا هو قد سكر منه ، ولا مناص[7] من اقامة الحد عليه والا رفع

---

(١) اللين • (٢) الاكاف الصغير على قدر سنام البعير • (٣) زجره ونهره • (٤) أي اختباره والوقوف على حقيقته • (٥) الكذب والاختلاق • (٦) بمعنى المهرة • (٧) لا مفر ولا مهرب منه •

الأمر الى أبيه .. هى شنشنة[1] عمرية لا لبس[2] فيها ، وهو ابن عمر لا مراء

والوالى .. ومن الوالي ؟.. عمرو بن العاص الذى لا خفاء بدهائه ولا ببعد حسابه ، فهو يتريث[3] بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى اذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه .. وهى أيضا شنشنة لا غرابة فيها . فمن يدرى ؟.. ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخا للخليفة أو مدبرا للسلطان معه فى يوم غير بعيد ؟..

والخليفة يدرى بالأمر فيهوله[4] ، ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل اليه نبأه من قبله ، وهو ما هو فى تحرجه من تبعة[5] يحملها غافلا عنها ، لحرص الولاة على تحرى[6] هواه، وابتغاء رضاه ، فيشفق أن يقع ابنه فى معصية ثم ينجو من الحد الذى شرعه الدين ، وهو مسئول عن الولاة والحدود ، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين

كل أولئك كما قلنا سائغ[7] لا غرابة فيه

أما الغريب من عمر حقا فى معدلته وعلمه بالدين، وكراهته رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحد وهو ميت ، أو يشتد فى اقامة الحد على ابنه حتى يتلفه، أو يصاب بما يتلفه بعد أيام

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى اقامة الحدود خاصة، وفى مثل هذه العقوبة بعينها

فقد جىء له يوما بشارب سكران، وأراد أن يشتد عليه، فقال له : لأبعثنك الى رجل لا تأخذه فيك هوادة .. فبعث به الى مطيع بن الأسود العبدى، ليقيم عليه الحد فى غده ، ثم حضره وهو يضربه ضربا شديدا ، فصاح به : قتلت الرجل .. كم ضربته ؟.. قال : ستين ، قال : أقص عنه بعشرين . أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات ..

وقد كان من دأبه[8] أن يتريث فى اقامة الحدود ، حتى ليؤثر — كما قال — تعطيلها فى الشبهات على أن يقيمها فى الشبهات

---

(١) الخلق والطبيعة . (٢) أي اختلاط وشبهة . (٣) يتأنى ويتمهل .
(٤) يفزعه . (٥) أي مسئولية . (٦) يتحرى كذا : يتوخاه ويقصده .
(٧) أي جائز ومقبول . (٨) أي من عادته وطريقته .

ومرّ بقوم يتبعون رجلا قد أخذ فى ريبة[1] فقال : لا مرحبا بهذه الوجوه التى لا ترى الا فى الشر

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوه[2] فى تقاضى الحدود على المعاصى، كما فعل فى انذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شاربا، وحلق،شعره وسود وجهه،ونادى فى الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكى مائتى درهم،وكتب الى أبى موسى « لئن عدت لأسودن وجهك،ولأطوفن بك فى الناس » ، وأمره أن يدعو المسلمين الى مجالسته ومؤاكلته،وأن يمهله ليتوب ، ويقبل شهادته ان تاب ..

وتفقد رجلا يعرفه فقيل له،انه يتابع الشراب ، فكتب اليه : « انى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذو الطول ، لا اله الا هو ، اليه المصير» فلم يزل الرجل يرددها ويبكى،حتى صحت توبته،وأحسن النزع،وبلغت توبته عمر ، فقال لمن حضروا مجلسه : «هكذا فاصنعوا .. اذا رأيتم أخا لكم زلّ زلّة فسددوه ووفقوه،وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه »

وقد تكرر منه اعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ، وتكرر منه الاعفاء لمثل هذا العذر فى غير ذلك من الحدود

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش الى اقامة الحد ، ولم يعرف عنه قط انه أقام حدا وله مندوحة[3] عنه ..

وفى قصة ولده منادح شتّى ترضيه على شدة تحرُّجه وتحريه . ثم لا حاجة بمثله الى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف فى القسوة عليه ، ليقال،انه سوّى بينه وبين غيره

وأصح من ذلك ، أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر،وهو أحق الناس بالمبالغة فى عدل أبيه لو كانت المبالغة مما يجمل بمثله ، فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته : ان أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عقبة بن الحارث سكرا ، فلما أصبحا انطلقا الى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فانا قد سكرنا من شراب شربناه !.. ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن

---

(١) الريبة : التهمة والشك ، والمراد : التهمة • (٢) أي مغالاته •
(٣) سعة •

العاص ، فقلت : والله لا يحلق اليوم على رؤوس الاشهاد[١] . ادخل أحلقك ، وكانوا اذ ذاك يحلقون مع الحد،فدخل معى الدار،فحلقت أخى بيدى ، ثم جلدهما عمرو بن العاص فسمع عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو:أن ابعث الىَّ بعبد الرحمن بن عمر على قتب .. ففعل ذلك عمرو .. فلما قدم عبد الرحمن على عمر،جلده وعاقبه من أجل مكانه منه ، ثم أرسله ، فلبث شهرا صحيحا،ثم أصابه قدره فتحسب[٢] عامة الناس انه مات من الجلد ولم يمت منه

هذه رواية عبدالله عن أبيه وأخيه ، ولو كان الأمر مبالغة فى عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة ؛ أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة . ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة ..

فالذى يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذى يستقيم مع خلائق[٣] عمر ولا يناقضها . وهو العدل الصحيح فى محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة ، ولا سيما الزيادة التى لا تستقيم مع عدله ورحمته السواء . وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه

نعم كانت الرحمة من صفاته التى وازنت فيه العدل أحسن موازنة .. فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضه[٤] من الأقوياء المعتدين،كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه

ولا يمنعن ذلك انه كان خشن الملمس صعب الشكيمة[٥] جافيا[٦] فى القول اذا استغضب واستثير . فليست الخشونة نقيضا للرحمة ، وليست النعومة نقيضا للقسوة . وليس الذين يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس . فقد يكون الرجل ناعما وهو منطو على العنف والبغضاء ، ويكون الرجل خشنا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء ، بل كثيرا ما تكون الخشونة الظاهرة نقابا يستتر به الرجل القوى فرارا من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحمة . فلا تكون مداراة الرقة الا علامة على وجودها وحذرا من ظهورها ..

(١) أي أمام جمع من الناس • (٢) أي ظن • (٣) جمع خليقة ، والخليقة : الطبيعة والفطرة • (٤) غض منه : أي وضع ونقص من قدره • (٥) شكمه : حزاه • (٦) أي شديدا غليظا •

ومن المألوف فى الطبائع ان الرجل الذى يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة ، ولا سيما اذا كان الواجب عنده شيئا عظيما يزيل كل عقبة، ويبطل كل حجة، ويقطع كل ذريعة[١] ، فهو انما يعتصم[٢] بالواجب فى هذه الحالة كما يعتصم الانسان بالحصن المنيع كلما خشى أن تقتحم عليه طريقه ، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة الى ذلك الحصن المنيع[٣]، ولا سيما حين يكون حصنا بالغا فى المنعة كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب

أرأيت هذا الرجل الصارم[٤] الحازم قاسيا قط الا باسم واجب أو فى سبيل واجب ؟.. كلا .. وما نذكر اننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته الا لمحنا الواجب قائما الى جانبها يزكيها ويسوغها . ومن كانت القسوة طبعا فيه فما هو بحاجة الى واجب يغريه بالقسوة ، بل هو فى حاجة الى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها

وليس قصاراه[٥] فى هذا الخلق انه غير قاس ، أو ان الرحمة كانت تنفذ الى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلها اليه ، فان نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جداً من ذلك ، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه فى عامة حياته ، حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله .. وأن يقترن معه لقب العادل بلقب الرحيم

وفى صدد الكلام عن الخليفة الاسلامى الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فبه خاصة ، لأن شأنها فى التقريب بينه وبين الاسلام غير قليل

فمن المحقق ان رقته للمسلمين وللدين الذى يدينون به كانت مقرونة فى أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما فى حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغرب[٦] وتمسح جفوة العناد والبغضاء

قالت أم عبدالله بنت حنتمة : لما كنا نرتحل مهاجرين الى الحبشة أقبل عمر حتى وقف على ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا ، فقال لى : انه الانطلاق يا أم عبدالله ! قلت : نعم .. والله لنخرجن فى أرض الله .. آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا . فقال : صحبكم الله ،

(١) تذرع بذريعة : توسل بوسيلة . (٢) تقوى وامتنع . (٣) القوي الخالي من الثغرات التي يستغلها الاعداء . (٤) جلد شجاع . (٥) غايته وآخر أمره . (٦) بمعنى الحدة .

ورأيت منه رقة لم أرها قط

وحديثه مع أختــه فاطمة فى سبب اسلامه مشــهور متواتر فى أوثق الروايات .. فانه ضربها حين علم باسلامها فأدمى وجهها ، فأدركتها الثورة الخطابية التى فيها منها بعض ما فيه ، وقالت وهى غضبى : يا عدو الله ، أتضربنى على أن أوحد الله ؟.. قال غير متريث[١] : نعم !.. فقالت : ما كنت فاعلا فافعل . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . لقد أسلمنا على رغم أنفك ..

ويذكر رواة القصة التى اتفقت عليها روايات كثيرة انه ندم وخلى[٢] عن زوجها — بعد أن صرعه وقعد على صدره — ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التى كتبت فيها آيات القرآن ، وخرج من ثمة الى حيث لقى النبى ، فأعلن شهادة الاسلام على يديه ..

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيهــا الخوالج والخطرات وهو يتحدث الى المرأتين : بنت حنتمة وبنت الخطاب

فهذا بطل مناضل يشحذه[٣] النضال اذا لقى أنداده من الأبطال ، وأقرانه من الرجال : الاساءة تتبعها الاساءة والتحدى يعقبه التحــدى ، وكلما قوبل البطش بمثله تضرمت[٤] سورة الغضب وثارت نحيزة[٥] القتال ، ومضى العداء شــططا[٦] لا اعتدال فيــه ولا نكوص[٧] عنه، حتى ينكسر عدو من العدوين . فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها الى ظهور . وتتمادى الشرة على ذلك شهورا وسنين ، وكأن الرحمة لم تخلق فى النفس ، ولم يسمع لها فى حنايا الصدور صوت

أما المرأة الشاكية ، أو المرأة الدامية ، اذا واجهت ذلك البطل القوى فما حاجته الى قوته ونضــاله ؟.. وما أحرى تلك القوة أن تهدأ فى مكانها كأنها هى الخليقة الخفية التى لم تخلق، وليس لها صــوت مسموع ، وما أقربها اذن الى أن تخجل من ايذائها وتندم على قسوتها وتثوب الى التوبة والخشوع ، وهما من لباب الدين

ان العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة ، وهو اشتقاق عميق

---

(١) أي متسرع ٠ (٢) أي تركه لسبيله ٠ (٣) شحذ السكين : أحدها ٠
(٤) أي اشتعلت ٠ (٥) طبيعة ٠ (٦) مجاوزة القدر في كل شيء ٠ (٧) أي الرجوع ٠

المغزى يهدينا الى نشأة هذه الفضيلة الانسانية العالية ، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوى قرباه لا تنحصر دلائلها فى رحمتـــه لأخته الشاكية الثائرة . فان المرأة قد ترحم لضعفها فى موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الآصره[1] منقطعـــة النسب . انما يدل على مودته لذوى قرباه ذلك الحب الذى كان يضمره لأبيه بعد موته ، مع شدته عليه وغلظته فى زجره وتأديبه .. فكان يطيل الحديث عنه ، وينقل أخباره ، ويقسم باسمه . وظل يقسم باسمه وهو كهل الى أن نهى المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية ..

وندر بين الناس من أحب اخوته كمـــا كان عمر يحب أخاه زيدا فى حياته وبعد مماته ، فما شاء أحد أن يبكيه الا ذكره له ففاضت شؤونه ، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحدا فقد أخاه الا التمس الأسوة عنده

حكى أحمد بن عمران العبـــدى عن أبيه عن جده قال : « صليت مع عمر بن الخطاب الصبح .. فلما انفتل[2] من صلاته ، اذا هو برجل قصير أعور متنكبا قوسه،وبيده هراوة[3] فسأل : من هذا ؟.. فقيل : متمم بن نويرة . فاستنشده رثاءه لأخيه،فأنشده حتى بلغ الى قوله :

وكنـــا كندمانى جذيمة حقبـــــــة[4]
من الدهر حتى قيـــل لن يتصـــدعا[5]
فلمـــــا تفرقنـــــــا كأنى ومالـــكا
لطول افتراق لم نبت ليـــــــلة معا

فقال عمر : هـــذا والله التأبين : يرحم الله زيد بن الخطاب !.. انى لأحسب أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك . ثم سأله : ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن ؟.. فقال : كانت عينى هذه قد ذهبت،فبكيت بالصحيحة،فأكثرت البكاء،حتى أسـعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع . فقال عمر : ان هذا لحزن شـــديد . ما يحزن هكذا أحد على هالك . قال متمم : لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل

(١) الاواصر : الروابط والعلائق · (٢) أي انصرف · (٣) العصـــا الضخمة · (٤) مدة لا وقت لها ، وقيل سنة · (٥) يتفرقا ·

أخوك ما بكيت أبدا . فصبر عمر ، وتعزى عن أخيه وقال : ما عزانى أحد عنه بأحسن مما عزيتنى .. »

هذا هو عمر من وراء النقاب

فما كان أحوجه رضى الله عنه الى ذلك النقاب ، وما أقل الغرابة فى ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر الى ما وراءه فيرى مكان الحاجة اليه .

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقرابة،ويجفو غيرهم من الناس ، ولكن الرحمة الأصيلة فى الطباع تسوّى فى المودة ولا تفرق ، وتخلق هى سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابة بأسبابها ، فكان عمر كما روى « الحسن » يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول : يا طولها من ليلة !. فاذا صلى الغداة[1] غدا اليه . فاذا لقيه التزمه أو اعتنقه

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغص[2] عليه ليله

قدمت رفقة[3] من التجار،فنزلوا المصلى فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرق ، ثم باتا يحرسان ويصليان . فسمع بكاء صبى ، فتوجّه نحوه وقال لأمه : اتقى الله،وأحسنى الى صبيك .. ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه فرجع الى أمه كرة[4] أخرى ، ثم سمع بكاءه آخر الليل،فقال لأمه : ويحك !.. انى لأراك أم سوء .. مالى أرى ابنك لا يقر[5] منذ الليلة ؟.. قالت : يا عبد الله ! قد أبرمنى[6] منذ الليلة الى أربعة عن الفطام فسألها : ولم ؟.. فقالت : لأن عمر لا يفرض الا للفطيم !.. فسألها وكم له ؟. فلما علم انها فطمته دون سن الفطام أمر مناديا فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ، ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد

قال اسلم : خرجنا مع عمر رضى الله عنه الى حرة واقم[7] حتى اذا كنا بصرار[8] اذا نار تؤرث[9] فقال : يا أسلم انى أرى هاهنا ركبانا قصر بهم

---

(١) أي أصبح • (٢) يكدر • (٣) أي جماعة • (٤) أي مرة • (٥) أي لا يهدأ ولا يسكن • (٦) أي أملني وأضجرني • (٧) منطقة من نواحي المدينة • (٨) مكان على مقربة من المدينة • (٩) ايقاد النار •

الليل والبرد .. انطلق بنا ! ..

« فخرجنا نهرول[1] حتى دنونا منهم ، فاذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة[2] على نار ، وصبيانها يتضاغون[3] . فقال عمر : السلام عليكم ياأهل الضوء . وكره أن يقول : يا أصحاب النار . فأجابته امرأة : وعليكم السلام !.. فقال : أأدنو[4] ؟.. فقالت : ادن بخير أو دع[5] .. فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ .. قالت : قصر بنا الليل والبرد .. قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟.. قالت : الجوع !.. قال : وأى شيء فى هذه القدر ؟.. قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر !.. فقال : أى رحمك الله ، وما يدرى عمر بكم ؟.. فقالت : يتولّى أمرنا ثم يغفل عنا ؟.. فأقبل على فقال : انطلق بنا

« فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الرقيق . فأخرج عدلاً[6] من دقيق وكبة من شحم !.. وقال : احمله علىّ !.. قلت : أنا أحمله عنك .. قال : انت تحمل وزرى يوم القيامة لا أم لك ! ..

«فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه اليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا،فجعل يقول لها : ذرى علىّ وأنا أحر لك[7]

« وجعل ينفخ تحت القدر ، وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم ، ثم أنزلها،وأفرغ الحريرة فى صحفة[8] وهو يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم — أى أبرده !.. ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له : جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين » ..

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير ، لا يقال،انها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة ، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور بالتبعة !..

كذلك لا يقال،انه قد كان يطيع أمرا سماويا تحركت له نفسه أو لم تتحرك ، فان النفس التى تتحرك للأمر السماوى هى النفس التى فيها

(١) نمشي بسرعة . (٢) أي موضوعة . (٣) يضجون من الجوع . (٤) أأقترب ؟ . (٥) أي ابتعد واترك . (٦) أي كيسا . (٧) وهي الحساء من الدقيق المطبوخ باللبن أو الدسم . (٨) الصحفة كالقصعة .

الخير ولها رغبة فيه ، وقلما تشفق من عقاب السماء الا أن تشعر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب

على ان عمر كان يرحم فى أمور يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين ..

فمن ذلك انه رأى شيخا ضريرا[١] يسأل على باب ، فلما علم انه يهودى قال له : ما ألجأك الى ما أرى ؟.. قال : اسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله . فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل الى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباءه[٢] فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته[٣] ثم نخذله عند الهرم[٤] . انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب .. ووضع[٥] عنه الجزية وعن ضربائه ..

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا الا رحيم

***

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال ، كما فرض لكل مولود من زوجين ، وهى رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون

بل كان يرحم كل مخلوق حى حتى البهيم الذى لا يبين[٦] بشكاية ، فروى المسيب بن دارم انه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمّل جمله ما لا يطيق ..

وكان يدخل يده فى عقرة[٧] البعير الادبر[٨] ليداويه وهو يقول : انى لخائف أن أسأل عما بك . ومن كلامه فى هـذا المعنى : لو مات جدى[٩] بطف الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر

وانه لشعور بالتبعة عظيم

لكنه كما أسلفنا لن ينبت فى قلب كل أمير عليه تبعة ، الا أن يكون به منبت للرحمة عظيم

فنحن اذن بازاء صفة كبيرة الى جانب صفة كبيرة : الرحمة الى جانب

(١) أي كفيف البصر · (٢) أشباهه وأمثاله · (٣) وقت شبابه ·
(٤) شيخوخته وعجزه · (٥) أي أعفاه · (٦) لا يفصح · (٧) الجرح ، وأثر كالحز في قوائم الفرس والابل · (٨) المجروح · (٩) الذكر من أولاد المعز ·

العدل ، وكلتاهما من البروز[١] والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذى يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الأصيل الذى يلازمه ويلابسه ولا يفارقه فى جملة أعماله

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن فى جميع صفاته المشهورة ، خلافا للمعهود فى الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب. اذ قلّما يوسم انسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز . فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الايمان ، ثم تطغى احدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها الى جانبها مكانة رسوخ[٢] واستقرار

وعلى غير هذا العهد ، كان عمر فى جميع صفاته الكبيرة التى ذكرناها ، فكانت كل صفة منها فى قوتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذكر بغيرها ، وانه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة فى أبناء جلدته جميعا ، فيخيل اليك انها سمة مميزة له لم توجد فى غيره

فأحرار العرب كلهم غيور . ولكنك اذا قلت : « العربى الغيور » فكأنما سمّيت عمر بن الخطاب ، لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذى لا يشبهه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « ان الله غيور يحب الغيور . وان عمر غيور »

وتحدث الى صحبه يوما وعمر فيهم فقال : « بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر . فقلت : لمن هذا القصر ؟ .. فقالوا : لعمر .. فذكرت غيرته فوليت مدبرا » فبكى عمر ، وقال كالمعتذر : « أعليكَ أغار يا رسول الله ؟ .. »

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره ..

استأذن على النبى يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه

---

(١) أي الظهور . (٢) رسوخ : أي ثبات .

عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن[1] الحجاب فدخل والنبى يضحك ..

قال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ... كأنه يسأله عن سبب ضحكه . فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب

قال عمر : فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يَهَبن .. ثم التفت اليهن يقول : أى عدوات أنفسهن !.. أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .:

قلن — ولا يخذل المرأة لسانها فى هذا المقام : نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله !

وحسبك من غيرته انه هو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى احداهن فى الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها : عرفتك يا فلانة !.. ليريها انها فى حاجة الى مزيد من التحجب .. وقد ضجرت[2] احداهن منه لهذا فقالت له : وانك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا ؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى ، بل غيرته على المرأة لم تكن الا شطرا من غيرته على كل حرم وحوزة[3] . فمن هذه الغيرة العامة؛سياسته العربية التى كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد[4] ، ومنها غيرته على الزى العربى والشمائل العربية ، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيرته على كل حق يحميه غيور ..

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدّد فى معارض شتى ، كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه ، فشأن هـذه الصفات أن يظهرن أبدا حيث ظهر له قول أو عمل ، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال .

الا أنك تقرأها جميعا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه

---

(١) أي أسرعن الى وضع الحجاب . (٢) أي اغتاظت . (٣) الحرم والحوزة : كل ما تجب حمايته . (٤) المغلق .

ذلك أن عمر كان يغار على حق ، ولا يغار من أحد ، ولا ينفس[1] على ذي نعمة ..

فاذا قيل لك ،ان عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل : ممن كانت غيرته ؟.. وانما يخطر لك أن تسأل فى كل مرة : علام غار ؟.. ولأى شيء كان يغار ؟

فهو يغار على حق ، أو يغار على عرض ، أو يغار على دين أو يغار على صديق أو صاحب حرمة ، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك ..

انما كان يغار على شيء يحميه،ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ، فهى غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه،أو غلبة انسان على حظه ..

رجل قوى ، جياش الطبع ، شديد الشكيمة ، مؤمن بالحق وحرماته ، قادر على تقويم من يحيد[2] عنها،ويجترىء عليها .. فان لم يكن هذا غيورا ، فمن يكون الغيور ؟ ..

وقل فى ذكائه وفطنته وألمعية[3] ذهنه:ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة ، وان كانت هذه الصفة أحوج منهن الى الشرح والتحليل ..

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه،قد عرضوا لأمر تفكيره ، فوصفوه بأنه محدود التفكير،أو انه يأخذ الأمور بقياس واحد ..

ونحن لا نقول ان عمر رضى الله عنه خلق بذهن عالم بحاثة[4] منقطع للكشف والتنقيب ، ولا انه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مناحى الظنون والفروض ، ولا انه خلق بذهن منطيق[5] يدور بين الاقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين ، فالواقع انه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه ، وأنه كان معنيا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير ، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود،والنظر الذى يقيس الأمور بقياس واحد

(١) أي يحسد ويحقد . (٢) يميل ويعدل . (٣) المتوقد الذكاء .
(٤) صيغة مبالغة في البحث . (٥) البليغ ، والمقصود هنا : البليغ في علم المنطق .

فعمر كانت له فطنة[1] الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر اليها من جانب واحد أو يطبعها فى تفكيره بطابع واحد ، بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الانسان ، وراح فى علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور ، ويقيم عليهم الارصاد[2] اقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خـير وشر، وقوة وضعف وصلاح وفساد ..

وكفى من كلماته الدالة عليه، أن تذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير ، لأن « الذى لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه » وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول : « أعقـل الناس أعذرهم للناس » وأنه هو القائل : « احترسوا من الناس بسوء الظن » وهو القائل مع ذاك : « أظهروا لنا حسن أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر » ... يوفق فى هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لا ينبغى أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضى الذى لا ينبغى أن يحكم بغير بيّنة ظاهرة ..

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر الى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للأمور وجوها لا تنحصر فى الوجه الذى يراه ، وكثـيرا ما قال : « أخوف ما أخـاف عليكم اعجاب المرء برأيه » ، وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الاعجاب بالرأى شيمة[3] رجل محصور[4] التفكير ضيق المنافذ الى الحقيقة

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه !.. قال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص : « أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئا فيلقنه[5] عنك ؟.. والله ما رأيت عمر مستخليا بأحد الا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يُخدع وأفضل من أن يَخدع[6] .. »

انما كان عمر كمـا وصف نفســه : « ليس بالخب[7] ولكن الخب لا يخدعه » وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود

(١) كالفهم ٠ (٢) الذين يراقبون حركاتهم ٠ (٣) الخلق ٠ (٤) أي محدود ٠ (٥) أي يفهمه ٠ (٦) ختله وأراد به المكروه ٠ (٧) الرجل الخداع ٠

والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح ، فهناك فطنة تسيء الظن لأنها تعرف الشرور التى فى طبائع الناس ، وفطنة تسيء الظن لأنها تشعر شعور السوء ، والفرق بينهما عظيم كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمة . فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانيــة خلق رديء ، وانما كان عمر بالفطنة الأولى معصوما من أن يخدع أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبه

وكانت له فى استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند الى التقدير الصحيح والظن المدعوم[1] بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغنى عن حكايات ، وهى حكايته مع المغيرة الذى استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى الى عمر بمراده ويتداهى عليه

فقد همّ عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ، ويولى جبير ابن مطعم مكانه ، وأوصى جبيرا أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر . فأحس المغيرة وسأل جليسا له أن يدس[2] امرأته وهى مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت « لقاطة الحصا » لتستطلع النبأ من بيت جبير . وذهبت الى بيته فاذا امرأته تصلح أمره ، فسألتها : الى أين يخرج زوجك ؟.. قالت : الى العمرة !.. قالت لقاطة الحصا : بل كتمك[3]، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره !.. فجلست امرأة جبير متغضبة،ودخل عليها وهى كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها،وأخبرت لقاطة الحصا ، وذهب المغيرة الى عمر ففاتحه بما علم وهو يقول له : بارك الله لأمير المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيرا !.. فلم يعجب عمر من وقوفه على السر،بل قال : كأنى بك يامغيرة قد فعلت كيت وكيت ـــ كأنما سمع ورأى ـــ وأنشـــدك الله[4] هل كان كذلك ؟.. قال المغيرة : اللهم نعم . ثم صعد عمر الى المنبر ونادى فى الناس : أيها الناس !.. من يدلنى على المخلط[5] المزيل النسيج[6] وحده ؟.. فتام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك فى أمتك أحد غيرك !.. فأبقاه على ولايته،ولم يزل واليه على العراق حتى مات

وانما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل،اعجابا بحصافته[7]،لا انخداعا

(١) أي المستند الى الخبرة . (٢) أي يجعلها تتجسس لجمع الاخبار
(٣) أي أخفى عنك أمره . (٤) أي أسألك بالله . (٥) من يخالط الامور
(٦) الرجل الكيس اللطيف . (٧) أي لا نظير له في العلم وغيره .

بمكره . وقد يتغابى ويعمل ما يريده المتــداهى عليه، لأنه أدرك مرمى[1] كلامه، وفهم ما فيه من صواب ، كما صنع مع عمرو بن العاص فى خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما ... وسيأتى الكلام عنها فى فصل تال

على ان القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر، فى غنى عن الاستدلال عليها بما قال ، وما قيــل فيه ، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات[2] والمحاورات . انه عمل ما لم يعمله الا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الانسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده الى دليل : ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين ، ونصب[3] ولاة، وانتدب قوادا، وسيَّر بعوثا وأشرف على ميادين قتال، وأقام نظما فى الحكومة، وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون ، ونجح فى كل ما عمل نجاحا منقطع النظير، غير مردود الى المصــادفة ولا الى ارتجال المغامرين ، وليس هــذا كله مما يضطلع به رجل محدودِ الفكر، ضيق الأفق، قليــل الخبرة بالجمــاعات والأفراد . فاذا استوفى هذا الحظ الوافى من القدرة الذهنية ، فذلك حَسْبه منها ، وحَسْب كل من تصدى لمثل عمله، ونهض بمثل وقره[5]. ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة ، فان الدنيا لم تخرج لنا عمر لتزيدنا أفلاطون آخر أو اقليدس ثانيا أو «فاراداى» سابقا فى الزمن القديم ، بل أخرجته للناس؛ ليكون مؤسس عهد، ومحول تاريخ ، فاذا تأدى به عقله الى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خلق له ويبلغ القصد الذى رمى اليه ، وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده ..

انما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين، الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة، ولا يبالى بالنقائض والمفارقات ..

---

(١) أي هدفه · (٢) هما يتساجلان : أي يتباريان · (٣) أي أقام ·
(٤) أي يقوم · (٥) الوقر : الحمل · (٦) أي نسق وطريقة ·

ونظروا الى جملة آرائه فى المسائل الجلى[١] فاذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق الى غرض ماثل[٢] لا تنحرف عنه قيد شعرة[٣] .. كأنه قد جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج ، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه الى هدفه المحدود،ولا يلتفت الى شىء فى نفاذه أو يعوقه عائق[٤] دونه

فخطر لهم أن فطنتــه انما كانت فطنــة فراسة فطرية كالغريزة التى تهتدى على استقامة واحدة ، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جبلت[٥] عليه .. وانها فطنة العقل المحدود ، والبصر الموكل بجانب واحد ، ينفذ فيه،ولا يحيط به،أو يتشعب فى نواحيه

فالفكر المحدود هنــا هو فكر أولئك المستشرقين،لا فكر عمر بن الخطاب ..

فالرجل الذى يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه ، هو واحد من رجلين :

فاما رجل يستقيم على هذا الوجه؛لأنه لا يرى غيره ، ولا يحيط بما حوله ..

واما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالم انها تنثنى[٦] اليه حيث كان دون أن ينثنى اليها حيث كانت

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل :

هى استقامة قدرة وليست باستقامة عجز ، وهى اســتقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور[٧] مقيد ، يأبى أن يدور،لأنه قد أعياه أن يدور ..

هى استقامة حياة غلابة ، وليست باستقامة أداة كالموازين،تسوّى بين التبر[٨] والتراب،لأنها لا تميز بين التبر والتراب

فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل ، عجزا عن الفهم،والتزاما للحرف المكتوب ، ونزولا الى مرتبة الموازين التى لا تعى[٩] ولا تغضب

(١) العظمى . (٢) أي قائم وواضح . (٣) أي قدر شعرة . (٤) مانع .
(٥) طبعت . (٦) أي تميل . (٧) حجر القاضي عليه : منعه من التصرف .
(٨) الذهب . (٩) أي لا تفهم ولا تعقل .

ولا تغار، انما هو آلة فقيرة فى مادة الحياة .

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل، غيرة على الضعيف، وقدرة على القوى ، وعلما بالتبعة واضطلاعا بجرائرها[1] ، فذلك حىّ غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الانسانية والقدرة الحيوية ، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لاحسّ فيه ..

وشتّان بين هـذا وذاك .. انهما لنقيضان، وان كانا فى ظاهر الأمر شبيهين متقاربين ..

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل، الذى يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوى بين الأوزان، وان اختلفت القيم والأقدار ، وتفصل فى الانصباء بغير نظر الى فوارق الدنيا، ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال .. ونختارها من أجهر[2] الأمثلة، وأدناها الى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود ؛ لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ما تدل عليه

كان عمرو بن العاص واليا لمصر، وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين السبق، واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق ؟ وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول : أنا ابن الاكرمين ، فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع اليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له : اضرب ابن الاكرمين ! .. ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس الا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضبا : بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ .. فما نجا من يده الا برضى من صاحب الشكوى واعتذار مقبول

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الاسلام فى زمانه ، فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها انفاقه من بيت المال فى غير ما يرضاه . فأمر به أن

(١) الجريرة : الذنب والجناية ، والمراد هنا : الاعباء . (٢) ارتفاع الصوت ، والمراد هنا : الوضوح .

يحاكم فى مجلس عام،كما يحاكم أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع ..

وكان جبلة بن الأيهم أميرا نصرانيا فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه . ثم وطىء اعرابى ازاره فلطمه جبلة على ملأ[1] من حجاج بيت الله . فقضى عمر للاعرابى أن يلطم الأمير على ذلك الملأ ، لأن الاسلام لا يفرق بين سوقة[2] وأمير ..

هذه أمثلة العدل الذى لا يتصرف،ولا يلتفت الى الدنيا وما فيها من فوارق وتمريجات تتأبى على القصاص المستقيم ، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود فى تقدير الجزاء بالحرف المكتوب ، دون التفات الى الأحوال والمقتضيات ..

فهل هى فى الواقع كذلك ؟.. وهل كان على عمر أن « يتصرف » فى هذه الاقضية بلباقة الساسة الدهاة فى جميع الأزمان،اذ يحتالون على حرف[3] الشريعة،ويدورون حول حدود القانون ؟ ..

نعم كان عليه ذلك لو عجز عن سنة المساواة واحتاج الى الحيلة .. فانما يعاب على الوالى عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه ، أو لأن المساواة تعرضه لعاقبة شر وأظلم من الاجحاف ، فاذا نظر الى عاقبة المساواة فى المعاملة،فرآها شرا وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه اذن أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصا بغير انحراف ..

ولكن أين هذا من عمر،وأين عمر من هذا ؟.. انه كان قويا قادرا على العواقب ، وكان شديد الألم من ظلم الظالم،شديد الخجل من خذلان[4] المظلوم ، وكان وثيق الايمان بنصر الله فى الحق وفى النجدة . فلماذا ينحرف ؟.. ولماذا يتصرف ؟.. ولماذا يدور ؟..

كان قويا بطبعه قويا بايمانه ، فلماذا يهاب قويا جار على ضعيف ؟.. ولماذا يروغ من صرامة القاضى الى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود ؟ ..

---

(١) أي جمع · (٢) عامة الناس · (٣) نصوص الشريعة · (٤) ترك عونه ونصرته ·

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود، الذي ينسى الفوارق، ولا يحتال على المحظورات ، ولكن بشرط واحد :

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ، ولو من بعيد ، أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص ، فيختل حكم الدولة، وينتشر الأمر على الخليفة، ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعا لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة ..

اما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لايثورون ، ويعلمون مَن هو عمر، وما هي عقباهم[1] اذا ثاروا عليه

واما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعيى بها اذا هي فاجأته أو جاءته على انتظار

واما أن يكون الأمر في ضميره وفي ضمائرهم يجرى على البديهة التي لا خفاء بها ولا شك فيها ، فكيف يقال اذن ان تفكير عمر في قصاص الولاة كبارا وصغارا تفكير محدود ؟.. وأين هو في هذه الحالة موضع التفكير المحدود ؟ ..

انه في موضع واحد ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذي يصف عمر بغير وصفه ، لأنه هو محدود الفكر في قياس الرجال بمقياس واحد ، أو في اعتقاده ان الخطوب[2] تبقى كما هي ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدي الرجال ..

لقد كان عمرو بن العاص خطرا على الخليفة الذي يغض منه[3] لو كان غير عمر ، ولكنه هو والذين كانوا أجرأ منه على الفتك وأسرع منه الى الغضب ، لم يكن لهم من خطر اذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو الذي قضى بالقصاص

فأجرأ منه ولا ريب كان خالد بن الوليد ، وأشهر منه بين سيوف الاسلام لو عمد الى السيف ، ومع هذا نقم[4] خالد عزله، فخطب الناس ومضى يقول : « ان أمير المؤمنين استعملني على الشام، حتى اذا كانت

(١) أي مآلهم ومصيرهم · (٢) الامور · (٣) غض منه : وضع ونقص من قدره · (٤) نقم الامر : كرهه ·

بثنية — أى حنطة — وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى » ، فما أتمها حتى نهض[1] له رجل من السامعين فقال له : صبرا أيها الأمير فانها الفتنة ، فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حى فلا ..

نعم لا فتنة وابن الخطاب حى ولو كان الغاضب خالدا الغضوب ، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح[2] عليه

وأطرف من هذا فى هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب الى أبى عبيدة يأمره أن يقاسم خالدا ماله نصفين . فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا ... فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه احداهما وأخذ الاخرى

لقد نظرنا الى عمر مستقيما ولم ننظر الى الخطوب ، ولو نظرنا اليها رأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقى مصادمته وتستقيم على منهاجه . فعلمنا لم استقام دون أن يقدح[3] ذلك فى صدق نظره الى الدنيا وصدق فراسته فى خلائق الناس ..

وندع قضايا الولاة، وننظر فى قضية الأمير، الذى ارتد عن الاسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوقة فماذا كان ينبغى أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب ؟..

لعل داهية من دهاه[4] السياسة، الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر ارضاء الأمير واستبقاء أتباعه فى الاسلام، والاحتيال على الشاكى بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوى بين الخصمين ، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه

فهل معنى ذلك: أن عمر كان يعوزه[5] دهاء أولئك الساسة، وما عندهم من بعد نظر مزعوم ؟ ..

كلا .. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والايمان بمناعة الاسلام أن يصيبه غضب أمير صابىء[6] بما يضيره ، ولو كثر أتباعه والصابئون فى ركابه ..

---

(١) أي قام . (٢) اثم . (٣) أي يطعن . (٤) أي عظماء . (٥) أي يفتقر ويحتاج . (٦) هو من ترك دينه الى دين آخر .

معناه :انهم احتاجوا الى التصرف وعمر لم يحتج اليه

وها هى ذى السنون قد مضت وتلتها الاحقاب والقرون فبدا لنا اليوم ان النظر البعيد والعدل الشديد فى هذه القضية يلتقيان ، وان عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة ، فقد أفاد الاسلام ما لم يفد بقاء جبلة وأتباعه على دينه ، ووقاه ضررا أضخم وأوخم[1] من نكوص[2] أولئك الصابئين عنه : أفاده ثقة أهله باقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء الى كنفه[3] ورهبة الأقوياء من بأسه ، وسمعته فى الدنيا برعاية الحق وانجاز الوعد وتصديق معنى الدين ، ولا معنى له ان كان أضعف بأسا من أمير وجب العقاب عليه .

ويجوز أن الفاروق لم ينظر الى عواقب القرون كما تنظر اليها الآن ، بعد أن برزت من حيز الفرض الى حيز العيان .. غير أن الأمر الذى لا يجوز فى اعتقادنا أنه عدل فى قضية جبلة ونظائرها عدل آلة أو عدل ميزان . ان الميزان لأقل من مخلوق له حياة ، أما الفاروق فى هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية ، كان بطلا يؤمن ويعمل بايمانه ، وهكذا يعلو الانسان ببطولة الايمان .

والعبرة التى نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعم أحسن من الأولى ..

فالناقدون الأوربيون الذين فسّروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق،والفكر المحدود،لم يفهموه ولم ينصفوه ، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة فى القدرة،وليس بنقص فى الفطنة ، أو أنه زيادة فى قوة الثقة وقوة الايمان وليس بنقص فى العلم والبداهة ، ولم يكن عسيرا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا فى حكمهم ، لأن قوة الثقة وقوة الايمان لا تخفيان فى خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله ، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل اقدام،وبكل احجام . فكان يقدم على أعظم الخطوب،ويحجم عن أهون الهينات،تحرجا منها

---

(١) أي سيء العاقبة . (٢) نكوصهم : ارتدادهم ورجوعهم عن الاسلام .
(٣) أي جانبه .

وتنزها عنها ، اذا اقتضى ذلك وازع من قوة الايمان

فلم يكن يمضى قدما لأنه يغفل عما حوله من النواتىء[1] والمنعرجات والسدود ، بل كان يمضى بيها قدما لانه لا يباليها ،ويؤمن أصدق الايمان أنها تنثنى له اذا مضى فيها ، فلا حاجة به أن ينثنى اليها

انه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه ، لأنه يؤمن بحقه ايمان القوى الوثيق ، فله من قوته ومن ايمانه قدرتان

انه ليرفع العبء الى كاهله وهو قائم لا يطأطىء للنهوض به ، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذى يعرفونه ، أو ينسى العواقب التى يذكرونها ، أو يتحلل من المصاعب التى يتحرجون منها .. كلا !.. انما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب ، وان الخطوب هى التى تنثنى اليه ..

هــذه القوة فى ايمانه كانت هى المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه ، وكل رأى من آرائه ، بل كانت هى المسطر الأكبر على ما هو أصعب مقادا من الأخلاق والآراء ، وأشد عراما[2] من العقائد والشبهات ، وهى دوافع الطبع وسورات الغريزة ، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف[3] غيور ..

فالأفكار والأخلاق جانبـان من جوانب النفس الانسـانية قابلان للضوابط والقيود ، ولكن ما القول فى الدوافع والسورات ؟..

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر ، لها شراع ولها سكان ، وعليهما معا رقيب من النواتية[4] والربان[5]

ومثل الخلق كمثل النهر المتدفع تحسه الشواطىء والقناطر ويفيض فى موعد ويعرف له مجرى ، ويحسب له مقدار

ولكن ما القول فى السيل العرم ؟ ..

ما القول فى السورة الجامحة التى ليست بفكر يسوس ويساس ، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه ؟ ..

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود ..

(١) المرتفعات . (٢) عرام الجيش : حدتهم وشدتهم وكثرتهم ، والقرم : السيل الذي لا يطاق . (٣) عزفت نفسه عن الشيء : زهدت فيه ، وانصرفت عنه . (٤) الملاحون في البحر . (٥) قائد السفينة .

وهنا أيضا كانت ضوابط الايمان القوى فى نفس عمر كأقوى ما تكون

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به فى الجاهلية أو الاسلام سورة أكبر من سورته يوم نعى النبى الى المسلمين ، فأنكر أن ينعى،وأبى أن يسمع صوتا بين المسلمين يزعم أن محمدا قد مات ، وصاح والناس فى رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرءوس : « والله انى لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات »

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فنمشى وئيدا[١] صامتا لا يكلم أحدا ، وتيمم[٢] النبى وهو مغشى[٣] بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله ، وبكى

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج اليهم فقال : اجلس يا عمر !.. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء : « أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حى لايموت ... وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين »

فأهوى عمر الى الأرض وأناب

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة

يا لروعة الشلال الزاخر ! ..

ويا لروعة السابح القاهر الذى لوى به ليًّا كأنما قبض منه على عرف ، وأخذ له بعنان ! ..

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لايرينا صراعا عاتيا[٤] هو أولى بالروعة من نفس عمر وهى متراوحة بين شعوره الزاخر وايمانه الوثيق

لحظة هائلة من أهول[٥] ما تحس النفوس ، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام ، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار ، وغاشية تتجلى[٦] عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامه ، ماض بشعوره الى حيث يمضى

---

(١) أي متأنيا متمهلا · (٢) قصده أو تقصده · (٣) أي مغطى ·
(٤) أي مجاوزا للحد · (٥) أي أشد · (٦) أي تنكشف ·

به ايمانه ، فهما قوتان غالبتان ، وليستا بعد بالعسكرين المتغالبين

لقد كانت تلك سورته الكبرى ، ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا أخراها ..

فقد عهدت[1] هذه السورات فى طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتقونها ، وأوشكت أن تحسب فى عداد الأنهار المحكومة لا فى عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها[2]

ذهب اليه بلال مستأذنا فقال له الخادم انه نائم ، فسأله : كيف تجدون عمر ؟.. قال خير الناس الا انه اذا غضب فهو أمر عظيم . قال بلال : لو كنت عنده اذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه !..

فهو الايمان ضابط كل شيء فى تلك النفس حتى السورات التى ليس لها ضابط فى النفوس

أو قل انها هى النفس القوية فى دفعاتها وفى ضوابطها على السواء

وربّ نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها[3] أهون ضابط يسيطر عليها ، فأما الدفعة التى لايقف فى طريقها الا ضابط أقوى منها فتلك هى الطبيعة الحيوية المضاعفة ، وليست هى الضعف الذى يتراجع لأهون مراجعة

نذكر هذا وينبغى أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الايمان الذى يكبح الهزيل المنزوف[4] الحياة وبين الايمان الذى يكبح القوىّ الجياش فرق عظيم ..

ولم يكن عمر متعرضا عن زخارف الحياة لهزال كان فى دواعى الحياة فيه ، وانما كان معرضا عنها لأنه كان قادرا على الاعراض غير ممتحن به فى ارادة ولا عزيمة

وكان معرضا عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع

فمن الواجب اذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبدا أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة

حيوية الروح ، وحيوية الخلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل ،

(١) أي عرفت . (٢) أي قيدها . (٣) يقهرها . (٤) نزف ماء البئر : نزحه .

وحيوية الجسد ، وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات

فليس من الضرورى اذا رأيت رجلا قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفا من النفوس لا تجد متاعها فى أكلة أو شهوة وتجد المتاع خير المتاع فى احقاق الحق ، وزجر الطغيان ، واقامة العدل والشريعة بين الناس ..

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه

لم تكن قلة الرغبة فى زخارف الدنيا هى مقياس حيويته العظمى وانما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة فى الاصلاح والتقويم ، وفى اجراء ما ينبغى أن يجرى . غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد ..

***

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب ، وهى العدل ، والرحمة ، والغيرة ، والفطنة ، والايمان

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة فى نفس واحدة ، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس — وليست بصغيرة — فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته[1] ، حتى كأنها لم تعهد فى غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها ..

الا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها فى هذا السياق ، وانما العجب العاجب حقا هذا التركيب الذى ندر مثيله جدا بين خصائص النفوس كائنا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز

وأحرى بنا أن نقول « هذه التركيبة » ولا نقول هذا التركيب ، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم ، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط ..

---

(١) الصبغة : أي اللون .

اذا نظرت الى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهى سهلة بسيطة ليس فيها شىء عويص[١] أو مكتنف بغموض

ولكنك تنظر اليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والاعجاز ، أو جانب الندرة التى يعزّ تكرارها فى طبائع النفوس ، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعا واستيفاء الغرض فى كل منها على حدة ، وهذا هو النادر جد الندرة فى تركيب الأخلاق

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تمزجه بالاحسان ؟.. وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التى تجعل كراهة المرء الظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله ، وتجعل حبّه للعدل كأنه حب هواه وقبلة مناه ؟.. وما العدل والرحمة والغيرة جميعا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير ؟.. وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الايمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الانصاف ؟..

كل صفة تتمة لجميع الصفات ..

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل

وكل خليقة فهى جزء لا ينفصل من هذه « التركيبة » التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها

فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الانسان

ولا نقص فى الرحمة كالنقص فى كل رحمة تجور مع الهوى ، ولا تدين بالمساواة ..

ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح

---

(١) العويص من الشعر : ما يصعب استخراجه .

ولا نقص فى أولئك كله ، كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بهـا من ظلام الى نور ، وبغير الايمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين .

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد فى مرآها ، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدة عن التركيب ، فيخطىء النظر القصير فى التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشىء البسيط المحدود ، وانه لخطأ شائع ينساق اليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر ، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد فى الألوان ولا يزيد فى الاتمام والتوحيد والاتقان

ولو أن مخترعا من أهل القصــص حاول أن يخترع ســيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرّق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأه القارىء بعد ذلك ، فيقبل منه ما يقبل ، ويسقط منه ما يسقط ، ثم يبقى منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات

فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وان جاز الشــك فى بعضها أو جاز اسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشك فى هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الاسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبر يدل على عدله ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على فطنته ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على ايمانه ولا سبيل الى نقضه ، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الاعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار

هذه هى المعضلة التى عنيناها حين قلنا فى صدر هذا الفصل: ان سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولة أصعب من الصعوبة ، لأنها تنتهى بك الى صعوبة التركيبة التى هى أندر من التعقيد والغموض ، وتريك عنــاصر شتى قد تتناقض فى غير هــذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض فى شىء ذى بال ، لأن التناقض: أن يذهب كل عنصر فى وجهــة

معارضة لسائر الوجهات ، فأما أن تكون كلها ذاهبة فى وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان

ولهذا كانت دراسة عمر غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الانسانية كعلم الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، وعلم السياسة .. ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى

لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهى انسان يضيف العلم به الى علم النفس بعض الاضافة

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التى تصحح أوهام الواهمين فى فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع ، وفى القدرة المثلى التى يقتدى بها طلاب الرفعة والسياده

ونحن فى عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة[1] تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين ، وتحسبهما حيلة من حيل الطبع فى خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء .. كأن رحمة الضعيف تنفعه اذا رحم ، وكأن عدل الضعيف ينفعه اذا عدل ، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويا لتفيد قوته فائدتها فى خدمة المحتاجين اليها

فعمر ذو البأس والعدل ، وعمر ذو الرحمة والغيرة : أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد . اذ كانت رحمته وعدله لا يناقضان البأس والغيرة فيه ، بل كان بأسه معوانا لرحمته وكانت غيرته معوانا لعدله . وكان هو قويا لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قويا ليطغى بقوته على الضعفاء .

ولِمَ يكون لزاما أن يقسو ذو البأس ولا يرحم ؟..

ألا يقسو الضعيف ؟.. فلم العجب اذن من رحمة القوى ؟ كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء . فأما العقل الذى يرى الرحمة غريبة فى الأقوياء ، ويرى القسوة غريبة فى الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء . اذ الواقع فى الدنيا أن القسوة لا تدل على القوة ، وأن الرحمة لا تدل على الضعف ، وأن ليس فى الدنيا أقسى من الأطفال

(١) أسهب : أي أكثر الكلام .

وهم أضعف من فيها من الضعفاء

وبغير امعان طويل فى دقائق النفس الانسانية ، استطاعت امرأة محزونة أن تفرّق بين الخصلتين وتجمع بينهما معا فى عمر بن الخطاب ، ونعنى بها عاتكة بنت زيد حين قالت فى رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى
أخى ثقـــة فى النـــائبات منيب

وهى تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون انسان كذلك ، وانما هو أوفق شىء لطبائع الأشياء .

مفتاح شخصيته

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التى تفتح لنا أبوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت فى كثير من المشابه والأغراض ، فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى أصغر جيب ، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا اغلاق !..

وليس مفتاح البيت وصفا له ولا تمثيلا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك الى دخائلها ، ولا تزيد

ولكل شخصية انسانية مفتاح صادق يسهل الوصول اليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات .. وهنا أيضا مقاربة فى الشكل والغرض من مفاتيح البيوت .. فربَّ بيت شامخ[1] عليه باب مكين[2] يعالجه مفتاح صغير ، وربَّ بيت ضئيل عليه باب مزعزع[3] يحار فيه كل مفتاح

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر ، ولا بالحسن والدمامة[4] ، ولا بالفضيلة والنقيصة .. فربَّ شخصية عظيمة سهلة المفتاح ، وربَّ شخصية هزيلة ومفتاحها خفى أو عسير ..

وقد يحيرنا الرجل الذى قيل فى وصفه مثل ما قيل فى ابن عباد :

لا تمدحن ابن عبـــاد وان هطلت
يداه بالجود حتى شـــابه الديما[5]
فانهـــا خطرات من وســاوسه
يعطى ويمنع لا بخـــلا ولا كرما

فاننا لا نستطيع أن تنفذ منه الى مواضع اللوم أو مواضـع الثناء ،

---

(١) أي مرتفع عـال · (٢) أي قوي ثابـت · (٣) أي غير مكين ·
(٤) القبح · (٥) الديم : جمع ديمة ، وهي المطر الذي لا يصاحبه رعد ولا برق·

ولا ندرى حقا أعمله من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخسة ، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم ؟.. وغاية ما تنتهى اليه أن نفض[1] المشكلة بكلمة واحدة هى الوسواس ؛ وهى حيلة تلجئنا اليها قلة الحيلة ، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا فى تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه ، ولكنه تفسير له معنى واحد فى النهاية : وهو ترك التفسير ..

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة،ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التى تروعنا بفضائلها ومزاياها ، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس الى انتظام عملها،واتصال أثرها،كالشمس الطالعة تروعنا باشراقها فى أوقاتها وبروجها ، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة[2] الضئيلة تومض[3] لحظة وتختفى من بعيد

وفى اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحا لمن يبحث عنه ، فليس فيها باب معضل[4] الفتح وان اشتملت على أبواب صخام ..

وقد ذكرنا فى الفصل السابق ان ايمان عمر هو الضابط الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته ، ولكن الذى نريده بمفتاح الشخصيـــة شىء آخر غير معرفة الضـــابط الذى يسيطر عليها : نريد به السمة[5] التى تميزه بين العظماء حتى فى الايمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات ، فان الايمان ليقوى فى نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبحث عن « مفتاح الشخصية » لنعرف به الفارق بين الايمان فى طبيعة عمر وبين الايمان فى طبائع غيره من الأقوياء

والذى نراه أن « طبيعة الجندى » فى صفتها المثلى هى أصدق مفتاح « للشخصية العمرية » فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظم

فأهم الخصـــائص التى تتجمع « لطبيعة الجندى » فى صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشـــونة والغيرة على الشرف والنجـــدة

(١) أي ننهيها ونزيلها • (٢) الفتيلة • (٣) ومض البرق : لمع لمعا خفيا •
(٤) أي صعب • (٥) العلامة •

والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز في حدود التبعات أو المسئوليات

هـذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيرا أنها لازمة للجندى فى أمثل حالاته . فما من خاصة منها يستغنى عنها الجنـدى الكامل الذى تحلى بأجمـل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده ..

***

فانظر الى هذه الخصائص جميعها ، هل تجدك محتاجا الى تعمُّل أو استقصاء لجمع أشتاتها والاهتداء الى شواهدها ومواقعها ؟..

كل هذه الخصـائص عمرية لا شك فيها . فهو الشـجاع ، الحازم ، الصريح ، الخشن ، المطيع ، الغيور على الشرف ، السريع النجدة ، المحب للنظـام ، المؤمن بالواجب والحق ، الموكل بالانجاز ، العارف بالتبعات والمسئوليات ..

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر ، وعمر وحده واضح بين أمثاله فى جميـع هذه الخصائص ، حتى ليخيل الينا لو أن أحدا مولعا بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الاسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب ..

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفريعاتهـا الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجليلة التى هى بمثابة الأصول الجامعة فى طبائع الجنود

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل فى الجندى الباسل ، فقد ينساق انيه بطبعه وقد يحتاج الى تعوده وأدمانه[١] حتى يكسبه بطول المرانة

لكن النظام كان خلقـا أصـيلا فى طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه فى عداد الأشكال والنوافل[٢]

أرأيته وهو يصلى بالنـاس فلا نكبر حتى سوى الصفوف ويوكل

(١) يد من كذا : أي يديمه . (٢) ما تؤديه الانسان تطوعا .

رجلا بذلك ؟.. أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد فى شهر رمضان أوزاعا[1] متفرقين حول كل قارىء فيأمرهم أن يجتمعوا الى قارىء واحد ؟ أرأيته وهو يحمل الدرة[2] لينبه المخالفين فىالطريق ويذكرهم هيبة القانون ؟ أرأيته وهو يركب فى السوق فيكسر ما برز[3] من الدكاكين ويخفق[4] التجار بالدرة اذ تكوفوا[5] على الطعام وقطعوا طريق السابلة[6] ؟.. أرأيتـه وهو لا يزال يأمر بالمثاعب[7] والكنف أن تقطع عن طريق المسلمين ؟.. أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء فى مجالس الحكم ، ويكتب الى عمرو بن العاص « وقع اليّ أنك تتكىء فى مجلسك ، فاذا جلست فكن كسـائر الناس ولا تتكىء » :

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم ؟..

ذلك هو السمت العسـكرى بالفطرة التى فطر عليها ، وليس هو السمت العسكرى بالأسوة والتعليم

وبالفطرة التى فطر عليها ، كان يحب مايحسن بالجندى فى بدنه وطعامه ، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه ، فكان يقول : « اياكم والسمنة فانها عقله[8] » وكان يقول : « اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصـلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم ، وعليكم بالقصـد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة » وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن « من كثر ضحكه قلت هيبته ومن كثر سقطه قل ورعه ، وكان يمشى شديد الوطء على الأرض جهورى الصوت » كمـا يمشى الجنود وكما يتكلمون ، وكان يأمر بتعلم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندى وتتهذب بها الأبدان والأخلاق

واذا ارتقينا منهذا الىالنظام الأشمل، والتقسيم الأعم الأكمل ، فهناك عمـر بن الخطـاب الذى دون الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الاسلامية كأدق احصاء وعاه الموكلون بالتجنيد فى العالم الحديث .. فما

---

(١) أي منقسمين • (٢) التي يضرب بها • (٣) أي خرج • (٤) أي يضرب • (٥) استداروا • (٦) المسلوكة ، والقوم المختلفة عليها • (٧) مسيل الماء • (٨) أي أنها تقيد الانسان في عمله وفكره •

من رجل أو امرأة أو طفل الا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين ، وما من مجاهد الا عرفت له رتبتـه من السبق والتقديم على حسب المراتب التي يمتاز بها الجنود .. فالحاضرون فى وقعة «بدر» هم المقدمون بين المجاهدين ، والحاضرون فى « الحديبية » يأتون بعدهم فى التقديم ، والذين اشتركوا فى حرب الردة ياتون بعـد هؤلاء وهؤلاء ، والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى «بدر» يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين ، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عشّر الجنود ، أى جعلهم عشرات عشرات ، ثم قسمهم الى كتائب وبنود

***

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدبيرا كبيرا أو صغيرا فى شؤون الدولة الا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى ينفذ الى الغرض من أقرب طريق ، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو خطيب المشركين يومئذ ، وأقدر الخائضين[1] منهم فى الاسلام .. قال عمر بن الخطاب : « يارسول الله !.. انزع ثنيتيه السفليين فلا يقوم عليك خطيبا أبدا » وكان سهيل أعلم — أى مشقوق الشفة السفلى — فاذا نزعت ثنيتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة الى عهد أو تحذير أو شغل شاغل باسكاته والرد عليه

والقضـاء لم يكن من لوازم « الطبيعة الجنديه » وان تولاه القادة والجند فى أيام الفتن والأيام التى تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة

ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكرى الذى يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمى الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين ؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقـاه فأرسل اليه « فاذا هو أحسن الناس شعرا وأصبحهم وجها . فأمره أن

(١) الذين يتحدثون في الاسلام بالباطل -

يعمّ[١] شعره فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنا » ثم أمره أن يعتم[٢] فزادته العمامة زينة وغواية ، فقال : لا يسكن معى رجل تهتف به العواتق[٣] فى خدورها[٤] ، وزوده بمال وأرسله الى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه ..

وفى القضية جور على نصر بن حجاج لا جدال فيه ، ولكن فى سبيل مصلحة أكبر وأبقى ، أو فى سبيل مصلحة يرعاها « الحكم العسكرى » فى أزمنة كزمان عمر ويقضى فيها بما هو أعجب من اقصاء نصر بن حجاج : يرعاها أحيانا بمنع الاقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، وتحريم تجارة لا حرام فيها ، ومراقبة انسان يخشى أن يقود الى جريمة ، وتقييد السهر بعد موعد من الليل

***

ولسنا نقول انهذا الحكم فى قضية نصر بن حجاج كان حكما لزاما لا محيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكنا نقول انه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التى سميناها « مفتاح شخصيته » وهى المقصودة بما نكتبه الان

وقد كان له فى قضائه ذلك الحزم الذى يقطع اللجاجة[٥] وينهض بالحجه على كل ذى خلاف كلما اشتجر الخلاف : كتب اليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جنـدل وضرارا وجمـاعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر، وسئلوا فأجابوا : «اننا خـيّرنا فاخترنا» . قال : « هل أنتم منتهون ؟ » ، ولم يعزم .. وكأن أبا عبيدة تحرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم الى الخليفة يستفتيه . فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد اليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الاشـهاد ويسألهم سؤالا لا يزيد سيه ولا ينقص منه : « أحلال الخمر أم حرام ؟ » فان قالوا حرام فليجلدهم ، وان قالوا حلال فليضرب أعناقهم . فقالوا : بل حرام ، فجلدوا وتابوا

وربما تجمع للرجل كل ما فى « طبيعة الجندى » من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدرى بها الناس الا آن يأتى بعمل ينم عليها . فيـدين

(١) أي يحلق شعره • (٢) أي يلبس العمامة • (٣) العاتق : التي لم يفض ختامها أحد • (٤) الخدر : الستر • (٥) المبالغة في الخصومة •

نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره ، ويكون مطبوعا على أن يطيع ولا يكون مطبوعا على أن يطاع ، واذا جاءته طاعة المطيعين له فانما تجيئه من سلطة النظام وحكم الشرع وغلبة العادات ، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة في كل حال . فقد يكون الشجاع مهيبا ويكون غير مهيب ، بل يكون أحيانا ممن تقتحمهم[٢] الأنظار ويجترىء عليهم المستخفون[٣]

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له « طبيعة الجندى » ظاهرة باطنة ، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار ، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه . فما يجترىء عليه مجترىء الا أن يطمعه هو ، ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء ..

وهي في موقف[٤] الأمر تخيف من لا يخاف ويجفل[٥] منها من يحتمى بجاه و كبرياء . شكا اليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه اياه فى حد كان بينهما . فدعا بأبى سفيان والمخزومي وذهبوا الى المكان الذى تنازعاه . ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبى سفيان : خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا .. فأبى[٦] وتردد ، فعلاه بالدرة وهو يقول : خذه فضعه ها هنا فانك ما علمت قديم الظلم . فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال : ولو غير عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها[٧]

كان يوما فى مجلس عمر وزياد بن سمية يتكلم وهو يومئذ شاب . فأحسن كعادته فى مجال الخطابة والمشورة . فأعجب به عمر وهتف به : لله هذا الغلام !.. لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه

وكان على بن أبى طالب الى جانب أبى سفيان ، فمال اليه هذا وهمس فى أذنه كلاما فحواه أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش . قال على : فمن ؟.. قال : أنا ... قال : فما يمنعك من استلحاقه ؟.. فهمس له : اخاف هذا الجالس أن يخرق على اهابى !

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا : الأمر هو الأمر والطاعة هى الطاعة

---

(١) أي يدل . (٢) تحتقرهم . (٣) استخف به : أي احتقره ولم يقم له وزنا . (٤) واقع الامر وحقيقته . (٥) الجافل : المنزعج . (٦) رفض . (٧) أي جنايتها أو عاقبتها .

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان ، لا سيما اذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع

ذلك هو الجندى المطبوع[١] ..

جندى من جنود الله فى معترك[٢] الحق والايمان ، واذا استوفينا المثل الى أقصاه ، فالقانون المطاع هو القرآن ، والقائد الأعلى هو النبى الذى يوحى اليه ، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع

يأمر الله فالطاعة واجب لا هوادة فيه

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه من دونه ويرتفعان معا الى القانون لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة ، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وانكار سلطانه حيثما استقر على قرار ، فاذا رجع القائد عن أمره فحسن والمراجعة اذن خير لا ضرر فيه ، واذا مضى فى أمره فلا خلاف اذن فيما يجب ، والذى يجب اذن أمر واحد : وهو أن يطاع

كذلك راجع عمر النبى فى مسائل شتى ، فأخذ النبى برأيه فى بعض هذه المسائل وخالفه فى بعضها ، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر فى كبريات المسائل وصغارها . فكان أبو بكر[٣] يثوب الى رأيه كثيرا ، ويصر على ما بدا له اذا رأى الحسنى فى الاصرار .. فيطيع عمر أمره بعد ذلك ، كأن لم يكن خلاف ..

واذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن[٤] عن احتمال التبعة وتصريف الرأى والاضطلاع[٥] بأعباء الموقف كيف كان

اشتد المرض بالنبى عليه السلام فقال : ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .. قال عمر : ان النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا[٦] ..

عندنا القانون الأعلى ..

أما القائد الأعلى فهو فى مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة ، وهو

(١) أي أن الجندية طابعه من الاساس • (٢) موضع الحرب أو ميدانه •
(٣) أي يرجع • (٤) الضعف • (٥) أي القيام • (٦) أي يكفينا •

مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة . وانما قال حين كثر اللغط[١] بين الصحابة : قوموا عني ؛ ولا ينبغي عندي التنازع ثم عاش عليه السلام أياما ولم يذكر الكتاب

فالرجل كان يطيع اذا استقام الأمر واستقرت التبعة

وكان يراجع اذا اتسع مجال المراجعة

فان لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع[٢] بالتبعة التى يوجبها على نفسه ، وقمين[٣] أن يذهب اليها ولا ينكل[٤] عنها

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد ، ولم يجر عليها عن بداهة والهام وكفى . وأشار اليها فى كلامه غير مرة فقال فى خطبة من خطبه ما فحواه : « ... كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه [٥] . وكان كما قال الله تعالى : بالمؤمنين رؤوف رحيم . وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، الا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه ، والا أقدمت على الناس لمكان أمره .... »

فهو جلواز النبى . وسيفه المسلول ، كما وصف نفسه ..

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة ، وموقع المراجعة ؛ وموقع المشاوره . وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها ، وتلك هى الجندية فى صورتها المثلى

وما نحسبه كان يراجع ويشاور الا لغرض واحد . وهو الوصول الى الأمر الذى يحمل التبعة فيه

فاذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه ، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرؤوسيه ، فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع وعرف كيف ينبغي أن يطاع . وعرف ما يتوق[٦] كل جندى أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر ، وهو توضيح ما يطلب منه وما يطلب من غيره ، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات ..

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيـــل المراجعة ولا المشاورة التى

---

(١) الصوت والجلبة . (٢) أي قوي وقادر . (٣) خليق وجدير .
(٤) يقال : نكل عن العدو : أي جبن . (٥) الجلواز بكسر الجيم : الشرطي .
(٦) تاقت نفسه الى الشيء : اشتاقت اليه .

تعمل فيها الروية عملها ، أو تختلف مذاهب الآراء فيها

كانت هذه أيضا من مخالفات « الجندى » التى يندفع اليها كلما غلبته الحماسة ، وثارت به الحمية[1]..

فلما كان يوم أحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين : أفيكم محمد ؟.. فقال رسول الله : لا تجيبوه !..

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد ؟.. فلم يجيبوه !..

فسأل ثلاثا : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ .. فسكتوا

ثم سأل : أفيكم ابن الخطاب ؟.. وكررها ثلاثا .. فلما لم يسمع جوابا قال لقومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم !

كثير على عمر أن يحتوى صبره فى هذا الموقف أكثر مما احتواه ، فما قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه : « كفرت يا عدو الله ، ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وأنا أحياء !.. ولك منا يوم سوء ! » ..

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة ..

لكنها من مخالفات الجند ، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات

***

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم ، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التى هى أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء

فكانت تعجبه الفكاهة التى توحى اليه معنى مضحكا فيه صراحة وخشونة ، ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم « بالنكات العملية »

فرغ رسول الله يوما من بيعة الرجال وأخذ فى بيعة النساء ، فاجتمع اليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة[2] متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة رضى الله عنه . فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما دنون منه لبايعنه ، قال عليه السلام : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا ؟ ..

(١) الحمية : العار والانفة · (٢) متنقبة : أي تلبس النقاب ·

قالت هند : والله انك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه[1] ..

قال : ولا تسرقن ..

قالت : والله ان كنت لأصيب[2] من مال أبى سفيان الهنة[3] والهنة وما أدرى أكان ذلك حلالا لى أم لا ؟..

قال أبو سفيان وكان شاهدا : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل ..

فقال رسول الله : وانك لهند بنت عتبة ؟

قالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة ، وعاد يقول : ولا تزنين !

قالت : يا رسول الله هل تزنى الحرة ؟

قال : ولا تقتلن أولادكن !

قالت : قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم «بدر» كبارا ، فأنت وهم أعلم .. .

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب[4] ، وكان قليل الاغراب فى الضحك ، فان استغرب ضاحكا بين حين وحين فانما يضحكه مثل هذه الفكاهة ..

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم : دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء[5] فوقف يستمع ويستعيد . وشجعهما اصغاؤه واستعادته ، فسألاه : أينا أحسن صنعة ؟ .. قال : مثلكما كمثل حمارى العبادى . سئل : أيهما شر ؟.. فقال : هذا ثم هذا

ومن فكاهته القوية ، تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لب[6] الحطيئة ليكف عن هجاء الناس : فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعا بأشفى — أى مثقب — وشفرة يوهمه أنه سيقطع لسانه ، فضج[7] الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه ، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهدا لا يهجون أحدا بعد ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

(١) أي سننفذه لك · (٢) أي آخذ · (٣) الشيء اليسير · (٤) من بين معاني « الاغراب » : المبالغة في الضحك · (٥) الغناء للابل · (٦) العقل · (٧) صاح وأحدث جلبة ·

فما هجا أحدا بعدها وعمر بقيد الحياة

تلك أمثلة من فكاهتـــه الخشنة التى تعهد فى طبيعة الجنـــد ، وهى فكاهة لا يطمع منه فى غيرها

وشاءت الجاهلية أن تورطه[١] فى بعض أهوائها ، فكان هواه منها معاقرة[٢] الخمر يحبها ويكثر منها ؛ وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم ، اذ الخمر توافق ما فيهم من سورة[٣] طبع وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه . وتصاحبها فى كثير من الاحيان ضجة يألفونها

وقد أحب ضجة الدفوف وهى فى سياق هذا الهوى ، وظل يحبها بعد اسلامه وخلافته وان كرهها فى غير الاعراس .. فسمع ضوضاء فى دار فسأل : ما هذا ؟.. قيل له : عرس !.. فقال : هلا حركوا غرابيلهم ؟.. أى الدفوف !..

على انه كان يحب الغناء جملة ، ويطيل الاصغاء اليه ، ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حاد[٤] وهم منطلقون الى مكة فى جوف الليل ، فما زال يوضع[٥] راحلته حتى دخل بين القوم يسمع الى مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : ايه !.. قد طلع الفجر .. اذكروا الله

فطبيعة الجندى فى الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها .. ويندر أن تتم طبيعة شاملة فى رجل واحد ، الا أن يكون كعُمَر فى اصالة الطبع وصراحته وخلوصه واتساقه[٦] ، فلا يخذل منه جزء جزءا ، ولا تقبـــل منه وجهة حيث تدبر أخرى ، وحينئذ لا عجب أن تتم له طبيعة واحدة بالغة ما بلغت من تعدد العناصر والالوان والشيات ، كما انه لا عجب أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغا ما بلغ التعدد فى مشـــابه الاخلاق والجوارح والأعمال

ولهذه الطبيعة أثرها فى أمور لا تمت اليها على ظاهرها ، كأثرها فى تحريم رق العربى وفى اخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهى شنشنة[٧] الغيور على الحوزة ، الموكل بحماية الذمار[٨]

ولها أثرها فى سياسته مع الأمم ، حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف

(١) أي توقعه · (٢) الادمان في شربها · (٣) أي حدة · (٤) الذين يغنون للابل كي تجد في سيرها · (٥) وضع البعير وغيره : أسرع في سيره · (٦) الانتظام · (٧) الخلق والطبيعة · (٨) ما يلزم حفظه وحمايته ·

والبر بالوعد ولو كان اشارة باليد أو نبأة[١] من صوت . فقد أوجب على قادته وجنوده اذا نزلوا بلاد الاعاجم فبدرت منهم اشارة أو نبأة يحسبونها عهدا ، أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا[٢] فيه .. ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات

أو أنك على الجملة لا تعرض عملا من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة الا وجدت له قرارا فيها ووجدت عليه صبغة منها

فهى بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة ، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وان كانوا عظماء أقوياء ..

وقد أسلفنا الاشارة الى الايمان القوى ، وقلنا انه ضابط لأخلاقه وسوراته وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها ، لأن الايمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتمييزه الى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الايمان عند الأقوياء ، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدنا واحدا فى البواعث والمظاهر والآثار ..

وهكذا كان ايمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه : كان ايمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبدا عيشة المجاهد فى الميدان .. فآثر الشظف[٣] وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبدا كموقف الجندى الذى يعلم انه لا يلقى مولاه الا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل ... فان تجئه المسامحة ، جاءت عفوا لا ينسيه تحضير الحساب ..

وكان معتمدا على الغيب موصولا بالقدر يركن اليه كأنه يراه بعينيه . ومن دأب[٤] كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر الى الغيب ، وتستطلع طلعه وتنتظر منه الحماية والهداية

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم ، أو بغاية أجل لا يعجلون عنها ، أو بالهام يهديهم الى النجاة ويرون أماراته

---

(١) الصوت الخفي • (٢) أي يتراجعوا وينقضوه • (٣) يبس العيس وشدته • (٤) العادة والشأن •

وعلاماته فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة

وكان عمر يتفاءل بالاسماء وينظر فى الرؤى والمنامات ، ويروى عنه فى روايات متواترة أنه أُنبيء بموته فى منام ، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين ، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلا : من أنت ؟.. فقال : قاضى دمشق .. قال : كيف تقضى ؟.. قال : أقضى بكتاب الله .. فسأله : واذا جاءك ما ليس فى كتاب الله ؟.. فأجابه : أقضى اذا بسنة رسول الله ، فسأله ثانية : واذا جاءك ما ليس فى سنة رسول الله ؟.. قال : أجتهد برأيى وأؤامر[1] جلسائى .. فاستحسن قوله وأوصاه اذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا : « انى أسألك أن أفتى بعلم وأن أقضى بحلم ، وأسألك العدل فى الغضب والرضا »

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر : ما أرجعك ؟.. قال : رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب ..

فسأله : مع أيهما كنت ؟.. فقال : مع القمر !..

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصره »[2] . ثم قال : لا تلى لى عملا

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها ، لا ندرى مبلغها من الصحة فى تفصيلاتها ، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا اليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات ، الى جانب الايمان القوى الذى لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين

ومن الحق أن نضيف هنا ان الايمان القوى ليس بمستغرب فى الطبيعة الجندية . بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء الى طبيعة الايمان

وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدعى الى البحث من القول فى الجهاد والايمان ، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة ، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان فى كل محارب ، ولا سيما المحارب نضحا[3] عن دين ووفقا لشريعة

(١) أي أشاور • (٢) الآية : ١٢ من سورة الاسراء • (٣) نضح عنه : ذب ودفع •

فالعدل يفتقر الى شجاعة وشرف وهما خصلتان مطلوبتان فى الجندى المطبوع ، فأما الشجاعة فى الرجل العادل فتحميه أن يحابى[1] الأقوياء وهو جبن ، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خسة ، ولا تناقض بين هذه الخصال ..

انما المحارب المعتدى هو الذى « يحارب لحسابه » كما يقولون ، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهابا مع نزواته ، ومن هـذا الطراز : الاسكندر ، وتيمور ، ونابليون

أما المحارب الذى تقيده ارادة غير ارادته ، ويحكمه قانون غير هواه ، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة فلا يلام على اقترافها ..

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهـاد الخصوم والاقران ، كما رأى عمر بن الخطاب

ومصداق ذلك ظاهر فى كل قائد تدعوه الى الحرب ارادة اله أو ارادة أمة ، أو ارادة ضمير له قانون .. فطبيعة الجندى فى هؤلاء لا تناقض العدل ، الا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف فى شؤون المعاش ، ولا تناقض بينه وبين واحد منها ، أو هى جميعا فى هذه الخصلة سواء ..

هؤلاء لا يحاربون الا مكرهين ، واذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتنكيل ولو كانوا فى ميدان القتـال ، وسنتهم هى سنة عمر حين حذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لايحب المعتدين .. ثم قال : « لاتجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا[2] عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما[3] ولا امرأة ولا وليدا ، ونزّهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح فى البيع الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »

وذلك هو الجندى فى حالته المثلى ..

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحا أصدق منه لخلائق هذا الجندى العادل الكريم .

(١) حابى فلانا : أعطاه بلا جزاء ٠ (٢) المثلة : هي قطع الاطـراف والتشويه ٠ (٣) أي شيخا ٠

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمله الرجل اليوم وينساه غدا ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت الى عقباه ، أو يلتفت الى عقباه ولا يتوقع له أثرا يغير فى مجرى حياته . فسبب واحد لعمل من هذه الاعمال كاف ولا حاجة بعده الى استقصاء

لكن العمل الذى تتحول به حياة الانسان تحولا حاسما لن يرجع الى سبب واحد ، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدة أسباب ، بعضها حديث وبعضها قديم ، ومنها الظاهر الطيع والخفى المستعصى ، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الاسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب .

فالرجل الذى يغيّر موطنه ، أو معيشته ، أو زيّه ، لايفعل ذلك عفو الساعة ، ولا تلبية لاقتراح يوحى اليه فى مجلس فراغ . وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلبّاه ، وأنه لم يكن ليلبّيه لولا ما سمع فى تلك اللحظة العارضة . فهاجر أهله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة .. وأنك سائله ساعتئذ : « انك قد هجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معشتك لأنك لبّيت اقتراحا ، فهل تعلم لِم لبّيت الاقتراح ؟ » . فاذا سألته ذلك السؤال ، رددته الى نفسه فعلم ان الأسباب الصحيحة وراء ذلك .. وانه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم ، بل سمع الاقتراح ولباه[1] لأنه كان قبل ذلك مستعدا للتحول ماضيا فى طريقه ، ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله ، لما عملوا به ولا التفتوا اليه ..

وأين تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية ؟ ..

اننا اذا استصغرنا السبب الواحد فى تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جدا فى تفسير التحول الحاسم الى دين جديد

---

(١) أي استجاب .

لأن الانسان اذا غيّر معيشته فانما يغير صناعة ، واذا غير موطنه فانما يغير بلدا ، واذا غير زيه فانما يغير سمتا[1] يقوم على كساء ، ولكنه اذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونا آخر : وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ، ومنها مآلف[2] وأواصر[3] ومحاب[4] ومكاره متوشحات[5] الأصول الى ما وراء الآباء والأجداد ..

فسبب واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة

ولا بد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة ، وأسباب مهيئة ، وأسباب موقوتة هى أظهر تلك الاسباب ، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيرا لذلك الحدث العظيم فى العالم ، وهل يتغير الانسان هكذا الا وقد أحاط بالعالم فى نظره حدث عظيم ؟ ..

ونحن قد أشرنا فيما تقدم الى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما فى الاسلام ، والى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضغنه[6] وترويض عناده والتقريب بينه وبين الخشوع الدينى والهداية الاسلامية . فهل نقف عند هذا الندم وكفى ؟ .. وهل انتهينا به الى حيث يستقر الوقوف ؟ ..

انه لسبب من الأسباب ..

ومما لاشك فيه أن عمر كان مقتربا من الاسلام يوم رثى لأم عبد الله بنت حثمة ، وتركها تنطلق الى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة ، وكانت هى على صواب حين طمعت فى اسلامه ورجالها يائسون منه ، فقد سألها عامر بن ربيعة مستغربا مستبعدا : كأنك قد طمعت فى اسلام عمر ؟ قالت : نعم .. قال : انه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب !

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، اذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل فى خطفة عين أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب كيف تتلطف فى تحويله

(١) أي هيئة . (٢) من الالفة . (٣) أي علاقات وروابط . (٤) من المحبة . (٥) توشحت : أي لبست الوشاح . (٦) أي حقده .

وبتلك الرقة كيف تتلطف فى ابتعاثها من مكمنها ؟.. وهل تحجبها عنها القوة،وهى ما نفذت الى نفس الرجل قط الا من وراء القوة ؟..

فعمر كان مقتربا من الاسـلام يوم رثى للمرأة المهـاجرة ودعا لها بصحبة الله ، وكان على تمام الاسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحا تحته لا يقوى على دفاع

ولكنه كما قلنا : سبب من أسباب ، أو أنه هو السبب العارض الذى يومىء[1] الى السبب العميق : سبب عارض هو الإسف لشكاية الضعف ، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمل بذى نخوة[2] كريم . وليس الانسان كله ندما ورحمة وان طال ندمه وطالت رحمته . فلبس كل ما احتوى رحمته بمحتويه الى زمن طويل

وقد تعددت الروايات فى اسلام عمر واختلف بعض هده الروايات فى اللفظ واتفق فى المغزى[3]، وجعل أناس ينظرون فيها،كأنما الصحيح منها لا يكون الا رواية واحدة وسائرها باطل لا يشمل على حقيقة ، فلم لا تكون صحاحا كلها ؟.. ولم لا تكون أسبـابا متعـددات فى أوقات مختلفات ؟.. فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلا من الحشو هنا وهنالك ثم نخلص منها الى جملة أسباب لا تعارض بينها فى الجوهر ، وقد يعزز بعضها بعضا فى نسق السيرة،وفى لباب النتيجة

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « كنت للاسلام مباعدا ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش .. فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحدا . فقلت : لو أننى جئت فلانا الخمار !.. وخرجت فجئته فلم أجده .. قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين !.. فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان اذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام واتخذ مكانه بين الركنين : الركن الاسود والركن اليمانى ، فقلت حين رأيته : والله لو انى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، وقام بنفسى أننى لو

(١) أي يشير · (٢) الكبرياء والعظمة · (٣) أي المقصد

دنوت أسمع منه لاروعنه [١] ، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها ما بينى وبينه الا ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الاسلام » ..

وروى ابن اسحق فى سبب اسلامه كما نقلنا عنه فى كتابنا « عبقرية محمد » : « أن عمر خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا [٢] من أصحابه .. قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ... فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟.. فقال : أريد محمدا هذا الصابىء [٣] الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله . فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك ياعمر !.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟.. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟.. قال : وأى أهل بيتى ؟.. قال : اختنك [٤] وابن عمك سعيد ابن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه .. فعليك بهما ..

قال ... فرجع عمر عامدا [٥] الى أخته وختنه ؛ وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هـذه الهينمة [٦] التى سمعت ؟.. قالا له : ما سمعت شيئاً ! .. قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها [٧] .. فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا ، أنظر ماهذا الذى جاء به محمد .. وقرأ سورة طه ، فلما قرأ

(١) أي لافزعنه وأخيفنه . (٢) ما دون العشرة من الرجال . (٣) الذي ترك دينه الى دين آخر . (٤) الصهر ، أو كل ما كان من قبل المرأة كالاب والاخ . (٥) أي قاصدا . (٦) الصوت الخفي . (٧) أي جرحها .

منها صدرا[1] قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له : يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم ابن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله ياعمر !.. فقال له عند ذلك عمر : دلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه[2] ثم عمد[3] الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل[4] الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فرجع الى رسول الله وهو فزع ، فقال : يا رسول الله !.. هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : تأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه !.. فقال رسول الله : ائذن له .. ونهض اليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته[5] أو بمجمع ردائه ثم جبذه[6] جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة[7] فقال عمر : يا رسول الله !.. جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ! .. »

***

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب « المباشرة » التى قرّبت بين عمر والاسلام . وتتفرع منهما روايات منوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أوفد[8] لقتل النبى من قبل قريش ، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الآيات التى تقدمت الاشارة اليها فى سورة طه .. وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم « الرحمن الرحيم » فذعر وألقاها . ثم رجع الى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر .. فلما بلغ « . . ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين » ... قال : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت[9]

---

(١) أي الآيات الاولى منها • (٢) أي لبسه • (٣) أي قصده • (٤) الفرجة بين الشيئين • (٥) معقد الازار • (٦) أي جذبه • (٧) الداهية • (٨) أي أرسل • (٩) نصفه

شطرين وزيدت عليهـا الحواشي والاطـراف ، فاختلفت فى ألفاظهـا ومواعيـدها واتفقت فى جوهرها ومدلولها ؛ لأنها تمس نفس عمر من الناحية التى هى أشبه أن تهديه الى طريق جديد .

وهى ــ كما أسلفنا ــ تجمع لنا الاسباب « المباشرة » التى اقترنت باسلام عمر ، ولا تغنينا عن الاسباب الاخرى التى هى أساس هـذه الاسباب ومرجعها ، ولأجلها كان خليقا أن تأخذه بلاغة القرآن ، وأن تميل به الرحمة الى الايمان

فقد كان مهيأ للاسلام لا محالة ، وكانت مجافاته للاسلام خليـقة أن تنتهى بعد قليل ، وألا تطول الا ريثما تعن[1] المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير

فلم يكن بين عمر والاسلام فى بداءة الأمر الا باب واحد للعداء

وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحا بنه وبين هذا الدين الجديد ، ما هو الا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه

كان باب العداء بينه وبين الاسلام انه رجل قوى غيور عزيز فى قومه ، فاذا رجل يخرج عليهم فيفرق ــ كما قال ــ أمر قريش ويسفه أحلامها ويعيب دينها ، ويسب آلهتها .. فلا جرم[2] أن يثور ويغضب وينقم[3] ، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض[4] المعابة عن شرف آبائه ، ويرى أنه غير عاد ولا باغ ، وأن البغى والعدوان انما يجيئان من قبـل ذلك الرجل الخارج على قومه ، حتى يتبين له بالحق الذى يصدع[5] به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان .

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والاسلام ، وهو باب لا يطول مدخله فى نفس طبعت على العدل والانصاف

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد الا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة ، وما علمنا من سبب للاسلام الا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار ..

فربما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن ، وأسلم أناس لأنهم

(١) أي تعرض أو تأتى · (٢) أي فلا بد ، أو فلا محالة · (٣) أي يكره·
(٤) يغسل · (٥) صدع بالحق : تكلم به جهارا ·

كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية ، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة ، أو لأنهم جبلوا[١] على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار ، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب ..

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر : بل كان فيه العلم المرتفع المضيء بين الأعلام

كان عمر بليغا حسن النقد للبلاغة ، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل ، فكان يطرب لقول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار[٢] أو جلاء[٣]

ويقول كلما أنشده معجبا : ما أحسن ما قسم ! .. وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل[٤] بين القوافي ولا يتبع حوشى الكلام[٥]

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه : « الآن اقرأ يا عبدَ الله »

وجاءه يوما بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر : أما وان زهيرا كان يقول فيكم فيحسن ، فقيل له : كذلك كنا نعطه فنجزل[٦] ، فعاد عمر يقول : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم

وجاءه وفد من غطفان فسألهم : من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بنى ذبيان . فسألهم : ومن الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا[٧] ثيابى ... على وجل نظن بى الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة . فقال : هو أشعر شعرائكم

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح واشفاق وتأميل

وينشده فيقول : على هذا بنيت الدنيا ! ..

---

(١) أي طبعوا · (٢) من النفور ، ونفار الشيء من الشيء : تجافيه عنه وتباعده · (٣) الظهور والوضوح · (٤) ضمن · (٥) أي خيشيه وغريبة · (٦) أي نغدق العطاء · (٧) الثوب الخليق : القديم البالي ·

وندر بين أئمة الدين مَن غاص فى أدب قومه غوصه ، ووعى من أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه . قال الاصمعى : ما قطع عمر أمرا الا تمثل فيه ببيت من الشعر. ونحن نرجع الى الشعرالذى تمثل به فنراه فىأحسن موقع وأصدق شاهد ، ونلمح من قليل أخباره فى خلوته أن الأدب كان جانبا من جوانبه التى ترق فيها حاشيته ويأنس فيها الى قلبه ويرجع فيها انى فطرته . جاء عبد الرحمن بن عوف الى بابه فوجده مسنلقيا على مزحفة له ، واحدى رجليه على الأخرى ، وهو ينشد بصوت عال :

وكيف ثوائى[١] بالمدينة بعدما قضى وطرا[٢] منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له : يا أبا محمد ، انا اذا خلونا قلنا كما يقول الناس ..

ولم يقصر اعجابه بالشعراء ، على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية ، بل نظر فى فنهم وفاضل بينهم فى بلاغتهم ، ففضل امرأ القيس لأنه « سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر[٣] »

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره ، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده وأمثاله

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح ، فقد نسبت اليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول : لو نظمت الشعر لقلته فى رثاء أخى . ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصى بروايته ، وأنه نشأ فى قوم يحبون مثل ما أحب ، ويعجبون بمثل ما أعجبه ، ومنهم أبوه الذى نظم الشعر فى أكثر من مناسبة وروى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو ابن أمية :

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجال لا ينهنهها[٤] الوعيد

• • • • • • • • • • • •

ربيع المعدمين وكل جار اذا نزلت بهم سنة كؤود[٥]

هم الرأس المقدم من قريش وعند بيوتهم تلقى الوفود

(١) أطال الاقامة به ، أو نزل به · (٢) الحاجة · (٣) معنى العبارة : أي استنبط عين الشعر ، وشق طريق المعاني ، وأتى بالشوارد الحسان ·
(٤) نهنهه عن الشيء : أي كفه وزجره · (٥) أي شاقة ·

فكيف أخاف أو أخشى عدوا ونصرهم اذا أدعو عتيد[١]
فلست بعادل عنهم سواهم طوال الدهر ما اختلف الجديد
الى آخر ما نسب اليه ..

فأقرب شيء الى الواقع — والى المتوقع — أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل نشأ هذه النشأة ، وأحب الكلام البليغ هذا الحب ، وأن يخشع لآياته ويعجب لتفصيله ، فيفتح من قلبه مسالك الاصغاء

وكان عمر مستقيم الطبع مفطورا على الانصاف ، فلم يكن رجل مثله ليستريح الى فساد الجاهلية ، أو ينكر فسادها ، اذا نبّه اليه وهدى الى ما هو خير منه

وكانت النزعة الدينية وراثة فى أسرته ، على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد الى الاسلام ، وكان له قبل الاسلام رجل من عمومته يقدح فى الوثنية ويبحث عن الحق فى النصرانية واليهودية ، ويبتلى أهله بالخلاف ويبتلونه بالايذاء والحبس والارهاق ، ونعنى به زيد بن عمرو بن نفيل

***

وعمر نفسه ألم يقل لنا انه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات ؟.. ألم يكن فى الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل أسبوع ؟ .. بل لعل صلابة الخطاب أبيه لم تكن فى صميمها شيئا مناقضا لعنصر الدين والايمان . فان هؤلاء الصلاب الشداد فى المحافظة على العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم اذا آمنوا بدين

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكانة[٢] وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد كما سلف فى حديث سارية حين ناداه : يا سارية الجبل !.. يا سارية الجبل ، وبينهما مسيرة أيام ..

(١) حاضر مهيأ . (٢) ظن بمنزلة اليقين .

وكانت العوارض تمر به فتعطفه الى الاسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة ، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه . اذ ليس أبغض الى الرجل الأبى المنصف من أن يحارب أناسا لايحاربونه ويلج[1] فى ايذاء قوم لا يقدرون على أذاه ..

فاذا تفتحت هذه الأبواب جميعا بين عمر والاسلام ، فباب واحد موصد[2] لن يحجبه طويلا عن هذا الدين ، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه وقد تفتحت فى يوم من الأيام

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب ، وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغى أن يسلم ، وكما كان يقينا سيسلم فى مناسبة من المناسبات

فاذا العالم الانسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة

صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شىء ماذا يصنع الاسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن[3] المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى ، وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته ، وكان يدا خالقة حاذقة[4] تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه[5] فاذا هى صرح[6] له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضمائر والأذهان

جاهلى كسبه الاسلام فكسبه العالم الانسانى كله الى آخر الزمان .. ونفس ضائعة ردت الى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل ، ونفع بها أمته وأمما لا تحصى ، وصنع بها الاسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وانشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وانشاء

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الانسانية حتى يحار فيها الانسان وهو ريشة فى مهب النوازع والاشجان

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لايأكل طعامه ولايروى ظمأه الا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام الا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء

---

(١) أي يبالغ • (٢) مغلق • (٣) أي عند • (٤) الماهر • (٥) المفازة ، والضلال • (٦) القصر وكل بناء عال •

الا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول[1] دولة الباطل بين الناس ، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم[2] ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم ..

لقد كان هذا الرجل المجيد[3] يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره[4] : وهذه منزلة فى الانفة لا تطاولها[5] المنازل ، لأنها منزلة الابطال الذين يسمون على أنفسهم ، ولهم أنفس أسمى من عامة الابطال

واننا لنعلم كم حز فى قلبه الكريم أن بضرب بريئا على دين الحق كلما رجعنا الى أيامه الأولى بعد الاسـلام ، وهى أيام لا ننسى فى تاريخ البطولة والابطال ..

فما شغله أمر بعد اعلان الدين الا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناسا فى سبيل ذلك الدين

ثار الى النـاس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل : ما هـذه الجماعة ؟.. قيل له ان ابن الخطاب قد صبأ[6] ... فقام على الحجر فنادى : ألا اننى قد أجرت ابن أختى : فانكشف الناس عنه ، فكان لايزال يرى مسلما يضرب ولا يضربه أحد ، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب الى خاله وقد اجتمع الناس فى الحجر وناداه : اسمع !.. جوارك مردود عليك . قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى : لا تفعل يا ابن أختى . فأصر على رد جواره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ، وان كفر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذى آذاهم من أجله

وأبى من اللحظة الأولى الا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه . والا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فى أمثالهم ، وأن يتحدى قريشا بحقه مذ آمن بأنهم على باطل ، فسأل أناسا : أى أهل مكة أنقل للحديث ؟.. قيل له : جميل بن معمر الجمحى . فذهب اليه فصرح له باسلامه !.. ولم يكذب الرجل الظن به ، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه الى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته

---

(١) أي تغلب وتنهزم · (٢) المراد هنا : الاول · (٣) الكريم الاصل ·
(٤) أي استنكف · (٥) يعلون ويترفعون · (٦) أي ترك دينه الى دين آخر ·

على باب المسجد : يامعشر قريش !.. ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ ، وعمر يقول من خلفه : كذب !.. ولكنى أسلمت،وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيثب على أدناهم منه وأجرأهم عليه ــ عتبة بن ربيعة ــ فيصرعه ويبرك عليه يضربه ، ويدخل اصبعيه فى عينيه ، لأنهما عمياوان عن الحق لا تبصران النور !.. ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « الا أخذ شريف من دنا منه » حتى أحجموا[١] عنه وركدت[٢] الشمس وفتر[٣] من طول الصراع ، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه[٤] وهو يقول لهم : « افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » ..

افعلوا ما بدا لكم !.. وهذا ما أراد .. فما يستريح وجدانه الحى أن يضرب مسلما لاسلامه،ولم يضرب كافرا لكفره ، وما يشعر أنه وفى الله دينه ، وقد ضرب ولم يضرب ، وآذى أناسا ولم يؤذه أحد ، وما تهدأ حاسة العدل فيه ــ وقد كانت كأنها من حواس بدنه ــ الا أن يحس القصاص فى نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه فى أنفسهم

« وراح يسأل النبى : يا رسول الله !.. ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟.. فقال عليه السلام : بلى والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم . قال : ففيم الاختفاء ؟.. والذى بعثك بالحق لتخرجن !

« فما لبث النبى أن خرج فى صفين ، أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة . ولهما كديد[٥] كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة[٦] فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .. وسماه النبى يومئذ بالفاروق

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : «ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا ، الا عمر بن الخطاب ، فانه لما همّ بالهجرة تقلّد سيفه وتنكب[٧] قوسه وانتضى فى يده أسهما واختصر عنزته[٨] ومضى قبل

---

(١) أي كفوا • (٢) استوت • (٣) الانكسار والضعف • (٤) صرح بالعيب فيه وتنقصه • (٥) التراب الناعم • (٦) سوء الحال والانكسار من الحزن • (٧) أي وضعه على منكبه • (٨) أطول من العصا ، وأقصر من الرمح •

الكعبة والملأ من قريش بفنائها .. فطاف فى البيت سبعا متمكنا ، ثم آتى المقام فصلّى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت[1] الوجوه !.. لايرغم الله[2] الا هذه المعاطس[3] !.. من أراد أن يثكل[4] أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ... »

لقد كان له فى تحديه هذا لقريش عدتان : شجاعته وعدله .. فما كانت شجاعته فى هذا التحدى بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه بأظهر من شجاعته . اذ الشجاع الحق مطبوع على الانفة من الظلم لأنه شديد الاحساس بذلّه . ومن كان شديد الاحساس بذلّ الظلم فهو شديد الاحساس بعزه العدل من طريق واحد . وقلما أغضب العادل الشجاع شىء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه : فذلك هو التحدى الذى يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل في وقت واحد . وان الموت لأهون من الصبر على هذا التحدى المرذول وهذا الصلف[5] القبيح ؛ وما الشجاعة ان لم تكن هى الجرأة على الموت كلما وجب الاجتراء عليه ؟.. وأى امرىء أولى بالجرأة من الشجاع الذى يعلم أن الحق بين يديه ؟.. ألسنا على الحق ان حيينا وان متنا ؟.. فعلى الحق اذن فلنمت ، ولا نعيشن على الباطل .. فالباطل كريه والجبن كريه وذانك ملتقى العدل والشجاعة فى قلب العادل الشجاع

***

ونهج عمر طريقه فى الاسلام كما نهج طريقه الى الاسلام : كلاهما طريق « عمرى » هو أشبه به وهو أقدر عليه ، وكلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف والتنطع[6] ولا يحفل بغير الجد الذى لا عبث فيه ... فلا وهن ولا رياء ولا حذلقة ولا ادعاء . وما شئت بعد ذلك من اسلام صريح قويم فهو اسلام عمر بن الخطاب

قال فى بعض عظاته : « لا تنظروا الى صيام أحد ولا الى صلاته ، ولكن انظروا مَن اذا حدث صدق ، واذا ائتمن أدى . واذا أشفى — أى همّ بالمعصية — ورع »

(١) قبحت • (٢) أرغم الله أنفه : ألصقه بالرغام وهو التراب •
(٣) وهو الانف • (٤) الثكل : فقدان المرأة ولدها • (٥) : مجاوزة الحد •
(٦) المغالاة •

وقال فى هذا المعنى : « لايعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ، ولكن .. من أدى الأمانة الى من ائتمنه،وسلم الناس من يده ولسانه »

وقال فى عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هـذه ومن هذه . وانما الحرج فى الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية ... »

ولم يكن أبغض اليه ممن يتوانى[2] ليقـال:انه متـوكل على الله . أو يتراءى[3] بالضعف؛ليقال:انه ناسك ، أو يفرط فى العبادة؛ليقال:انه زاهد فى الدنيا ..

فكان يقول : « ان المتوكل الذى يلقى حبه فى الأرض ويتوكل على الله » ... و « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول:اللهم ارزقنى .. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة،وان الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض » ..

وكان يضرب من يتماوت ويستكين[4] ليظهر التخشع فى الدين ، فنظر الى رجل مظهر للنسك[5] متماوت فخفقه[6] بالدرة وقال : « لا تمت علينـا ديننا أماتك الله » وأشاروا له الى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له : كل يا دهر!.. كل يا دهر !.. ينهاه عن الصـوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين

وكان كلما رأى شابا منكسا رأسه ، صاح به : « ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب ، فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه فانما أظهر للناس نفاقا الى نفاق »

وانما كان يعجبه الشاب الناسك[7] نظيف الثوب طيب الرائحة ، ويرى المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمى والعوم والفروسية ، فأنتم بخير كما قال : « ما نزوتم[8] على ظهور الخيل »

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه فى ميـدان الحياة ، وليس بدين الواهن المهزوم الذى تركته الدنيـا فأوهم نفسه انه هو

(١) حكايـة صـوت الطنبور وشبهـه • (٢) أيقصر • (٣) يتظاهر • (٤) يخضع ويذل • (٥) العبادة • (٦) أي ضربه • (٧) أي العابر • (٨) أي وثبتم •

تاركها ليقبل على الآخرة

وكانت شجاعته فى دينه أندر الشجاعات فى النفوس الآدمية ... لأنها الشجاعة التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع . فان كثيرا من الناس ليعدلون عن الصواب الذى يظهرهم بمظهر الخوف ليقال انهم شجعان ، وانهم فى عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدين للثناء ، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فهمه ولو قيل فى شجاعته ما قيل ، وتلك أشجع الشجاعات

***

فشا طاعون عمواس ، وعمر فى طريقه الى الشام ، فلقيه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون ، فاستشار المهاجرين والأنصار ، فاختلفوا بين ناصح بالمضى وناصح بالقفول[1] : ناصح بالمضى فى طريقه يقول انه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه ، وناصح بالقفول يقول انه اصطحب « بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء » ... ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعا بالرجوع . فقال أبو عبيدة : أفرارا من قدر الله ؟

قال عمر : نعم ، نفر من قدر الله الى قدر الله .. أرأيت لو كان لك ابل هبطت واديا له عدوتان[2] ، احداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟..

وما رام مكانه[3] حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف لحسم الخلاف برأى النبى فى الخروج من أرض الطاعون والقدوم اليها حيث قال عليه السلام : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » ..

فكان ايمانه بصيرا لا يهجم به على عمياء ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالاسباب ، وكانت نصيحته العامة للمسلمين فى أمر الطاعون كرأيه الخاص فى أمر نفسه وصحبه ، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا وكتب الى أبى عبيدة : « انك قد أنزلت

---

(١) بالرجوع • (٢) العدوة : جانب الوادي وحافته • (٣) أي لبث فيه ولم يغادره •

الناس أرضا غمقة ـ أى وخيمة ـ فارفعهم الى أرض مرتفعة نزهة » ، وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم فى هذه الايام

كذلك لم يكن يؤمن بشىء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره ، فكان ينظر الى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه : انى لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ما قبّلتك ..

وسمع أن النـاس يأتون الشجرة التى بايع رسـول الله تحتها بيعة الرضوان ، فيصلّون عندها ويتبركون بها ، فأوعدهم وأمر بها أن تقطع ، مخافة أن تسرى الى الاسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة[1] من الوثنية والتوكل على الجماد

***

وربما التبس الأمر من نوادر عمر فى التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجرى على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا[2] فيه وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين

فلا يلتبسن الأمر هذا الملتبس ، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التى صحبت تلك النوادر ، ففسرتها ودلت على الغرض منها

فعمر كان مسلما وكان خليفة للمسلمين . وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها ، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك فى عمـله ، وينزّه يده وأيدى أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بيت المال ، ثم يفى لذكرى صـاحبه الذى خلفـه على المسلمين ، فلا يعيش فى مكانه خيرا من عيشته ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه النبى لآله وذويه .

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس ويأبى أن يذوق فى المجاعة مطعما لا يسع جميـع المسلمين انما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية ، وقد وجد منهم من لامه لأنه طرح[3]

(١) الحمـق ، ومس الجنـون . (٢) تنطعـوا هنا : بمعنى تغالـوا .
(٣) : رماه .

كساءه وفيه فضل ملبس . فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توخاه[١] خليفـة النبى فى معيشته ومعيشة أهله ، مما يشبه تقشف النسّاك ..

وعلى هذا كان أعلم الناس أن الطيبات حلال وأن النهى عن الحلال تنطع[٢] فى الدين يأباه الاسلام

كتب اليه أبو عبيدة أنه لايريد الاقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة[٣] خيراتها ، مخافة أن يخلد[٤] الجند الى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال . فأنكر عليه ذلك وأجابه : (ان الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم[٥] » وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة[٦] فى قتال من كفر بالله) ..

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع فدعاه عمر الى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ! فقال حذيفة : « أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم ودعوتنى على هذا ؟.. قال : انما دعوتك على طعامى . فأما ذاك فطعام المسلمين »

فللمسلمين حل ما شاءوا من الطعام أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله ما يكفيه . والحرج كل الحرج عليه — وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده — أن يأخذ منه ما لا حاجة به اليه ، وانه ليزداد حرجا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرا مما أصاب الرسول

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة[٧] والنعمة التى ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه . بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الاسراف

أنكر على عامله فى اليمن حللا[٨] مشهرة[٩] ودهونا معطرة فعاد اليه فى العام

(١) أي قصده · (٢) أي تغال · (٣) أي كثرة · (٤) : يركن (٥) الآية : ٥١ من سورة « المؤمنون » · (٦) التعبة · (٧) أي الجائزة · (٨) برود اليمن· (٩) تلبس للخيلاء ·

الذى يليه أشعث[١] مغبرا عليه اطلاس[٢]، فقال : لا . ولا كل هــذا .. ان عاملنا ليس بالشعث ولا العافى .. كلوا واشربوا وادهنوا انكم ستعلمون الذى أكره من أمركم

ومن تمام العلم باسلام عمر؛أن نعلم فضل اسلامه مع من لم يكن من أهل الاسلام ، فان الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود،يدخل فى باب السياسة القومية؛أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الانسانية . وانما يصبح جديرا باسم الحق،حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين فى اسلامه

فلو كان الاسلام ظالما بطبيعته لِمَن لم يدخلوا فيه : لكان عمر أشد المسلمين ظلما لهم وقسوة عليهم . لكنه كان فى الواقع أشــد المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملا بأدبه

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارب من محارب الى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه

وكان شــأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به اخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه ، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه ..

كتب للنصارى فى بيت المقدس أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، وحان وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده . وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر !.. ثم كتب كتابا يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة الا واحدا واحدا غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها .

وكذلك كان يفعل فى كل موضع صلى فيه من الكنائس التى عاهــد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكناها

(١) : المغبر الرأس . (٢) : ثياب خلقة بالية .

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت

فكتب لهم العهد الذى قال فيه : « ... هــذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطـاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صلببهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولايسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .. وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللصوت[١] ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعلية مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ... ومن أحب من أهل ايلباء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى ببيعهم[٢] وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... »

وليس لذى عهد من ظافر[٣] أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الامان

وانه لقد كان يعطبهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاية للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفى لهم بعهدهم وينضح[٤] عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك الى أبى عبيدة كما كتب الى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت ..

وما شكا اليه مظلوم من أهل الذمة واليا كبر أو صغر الا أنصفه منه . بعث زياد بن حدير الاسدى على عشور[٥] العراق والشام . فمر عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوموها بعشرين ألفا . فخيره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفا أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة . فأعطاه التغلبى ألفا وأمسك فرسه ، ثم مر عليه راجعا فى سنته فطالبه بضريبة أخرى . فأبى وشكاه الى عمر وقص عليه قصته فما زاد على أن قال له : كفيت !.. ثم رجع التغلبى الى زياد وقد وطن[٦] نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد

(١) : اللصوص ٠ (٢) البنيع : الكنائس ٠ (٣) أي منتصر ٠ (٤) أي يزب ويرفع ٠ (٥) جمع عشر ٠ (٦) أى هيأ ٠

عمر قد كتب اليه : من مر عليه فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل !

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم ، وأنهم أوغروا[1] صدره ، فقال فيهم يتوعدهم :

اذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ[2] فغيك منى تغلب ابنة وائل

فخشى أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم ، فعزله وأمَّر غيره ..

ولعل حاكما من الحكام لا يرام منه أن يبلغ فى البر بمخالفيه فى الدين مبلغا أكرم وأرفق من اجراء الصدقة على فقرائهم ، ولاسيما الحاكم الذى يدعو الى دين جديد

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر . وقال : ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ..

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين[3]...

فمر فى أرض دمشق بقوم مجذمين[4] من النصارى . فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت

واذا أحصيت له فى سيرته الطويلة أوامر وخططا تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جميعه عن حكمة توحيها سياسة الدولة ، ويقرها العقل والعرف ، كما يقرها الدين والكتاب ، ولم يصدر فيه قط عن حيف[5] مقصود أو عن رغبة فى حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقا هم أحرار فيه

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهى عن استخدام بعض الذميين ، ومنعهم أن يتشبهوا فى الازياء والمظاهر بالمسلمين ، واجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى ابان[6] الفتوح والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع الى ما قاله فى ذلك ، تعلم انه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة فقال :

« انى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فانهم يستحلون الرشى[7] »

---

(١) توقد من الغيظ ٠ (٢) بعمامة ٠ (٣) أي المحتاجين ٠ (٤) أي أصابهم الجذام ٠ (٥) : الجور والظلم ٠ (٦) أي وقت ٠ (٧) أي الرشوة ٠

وطلب يوما من أبى موسى رجلا ينظر فى حساب الحكومة،فأتاه بنصرانى ، فقال : انى سألتك رجلا أشركه فى امانتى،فأتيت بمن يخالف دينه دينى ، وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى الا ذكر بعدها : أنهم أهل رشى ، ولا تحل فى دين الله الرشى !

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق . فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين . فأبى ، وأعتقه وأطلقه وقال له : اذهب حيث شئت ! ..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة الا ايثارا للعدل وكراهة للرشوة والزيغ[1] فى الحكومة ، وما نظن أحدا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب فيه مثل هذه الآفة . اذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا الى منفعتهم قبل أن ينظروا الى منفعتها . وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها ، والرغبة فى خيرها وخير أهلها . ولا سيما فى زمن كانت الدولة تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان

وما من أمة فى عهدنا هذا تبيح الوظائف العامة الا بقيود وفروق متفق عليها : أولها تحريمها على الاجانب ما لم تكن فى استخدامهم منفعة عامة

وهذه هى سياسة عمر فى مسألة الوظائف القومية ، بغير اعنات[2] للدولة ولا اعنات للرعية ، وكفى باتقاء الاعنات أن العبد المملوك يخيَّر فى الوظيفة والاسلام فيأبى ، فلا يصيبه من ذلك ضيم[3] . ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء ..

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكراهته أن يبدلوا أزياءهم التى ولدوا عليها ، فلا يلام عليه حتى نعلم لِمَ كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة ؟.. أكانوا يتشبهون بهم حبا لدينهم فهم اذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالاسلام .. أم يتشبهون بهم كيدا لهم ورغبة فى التسلل بينهم والافلات من عهودهم والتزاماتهم وما

---

(١) : الميل٠ (٢) من معاني العنت : الوقوع في أمر شاق ٠ (٣) :الظلم٠

توجبه الدولة عليهم فى تلك العهود والالتزامات ؟ ..

ان كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه . وبخاصة فى الزمن الذى كان المسلمون فيه جميعا فى حكم الجنود ، وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء

وأما اخراج بعض الذميين من الجزيرة ، فما خرج منهم أحد الا وقد غدر بذمته وكرر الغدر مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر

ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضه العهد ، كما فعل أهل نجران

فقد صالحهم النبى على أن يبقوا فى مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك ، ثم استخلف عمر فرجعوا الى الربا وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه اجلاءهم فاستحب هذا الجلاء

على انه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور . فلما كتب اليه المشركون من أهل منبج أن « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا» شاور أصحاب النبى فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم اليه

***

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الاجلاء التى لجأ اليها عمر ، وأيقن بصوابها وضرورتها .. فأول الأمرين ان الجزيرة حرم الاسلام الذى كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه ، كما صنع الفرس بالعراق ، والروم بالشام ، ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون ..

وثانى الأمرين أن عمر قد سوّى بين الاسلام والنصرانية فى هذه الخطة ، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه ، كما حفظ حرم الاسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره ..

وقد أجمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة الى اتخاذ هذه الخطة فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم[1] النجرانية عند الكوفة ،

(١) أي جعلها لهم .

وكتب لهم وصاة قال فيها : « ... هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين ... ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الارض ، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله ... ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم، فانهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا ، ولا يكلفوا الا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم »

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يختار بعده بالذميين كافة « أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » ... ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل ما اتخذت من حيطة حربية، أو حماية قومية، أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وان عذرها لدون عذر عمر فى خططه وأن أسبابها لدون أسبابه فى الاقناع ..

كان مسلما شديدا فى اسلامه ، فلم تكن شدته فى اسلامه خطرا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليا فأسلم . فأصبح اسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الاسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الانسانى لما كان اسلام رجل طورا من أطواره الكبار .

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون ، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك اذا وجب الحق ووضح القضاء . قال يوما لأبى مريم السلولى قاتل أخيه : والله لا أحبك حتى تحب الارض الدم المسفوح !.. فقال له أبو مريم : أتمنعنى لذلك حقا ؟.. قال : لا .. قال : لا ضير(١) ! .. انما يأسى على الحب النساء

وحسبك من اسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد فى دينه ، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق

(١) : أي لا ضرر .

عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الاسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث . فشرع السنة الصالحة فى توطيد[1] العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتيسير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الاسلام فى هذين العملين الجليلين .

الا اننا نسمى عمر مؤسسا للدولة الاسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق فى أعمال الخلافة . لأننا « أولا » لا نجد مكانا فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام

ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى اقامة دولة كالدولة الاسلامية . اذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الانحاء مؤسسا لدولة الاسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسسا لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الاسلام وأذانه ، وأعزّها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسسا لها يوم بسط يده الى أبى بكر،فبايعه بالخلافة،وحسم الفتنة التى أوشكت أن تعصف بأركانها ، وكان مؤسسا لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم ، وهو فى الدولة الاسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم ، ولم يزل يراجع أبا بكر فى دلك،حتى استدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي،فأمره أن يتتبع آى القرآن ليجمعها من الرقاع والاكتاف والعسب[2] وصدور الرجال ، فكان ذلك أول الشروع فى جمع الكتاب ..

هذا الى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس،ولم يتسع له الاجل حتى

(١) : أي تمكين وتقوية . (٢) أي عسب النخل .

يفرغ من عمله ، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء .. وكانت قدرته على التأسيس هى آية الآيات فيه ، وفى ذلك العصر من البداوة البادية[1] ، لأنه التفت الى مواضعه الخليقة[2] بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران . وهى قدرة تروّعنا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربّى على الملك ، وسلفه على عرشه سمط[3] من الملوك ، وأولى أن تروّعنا وتدهشنا من رجل البادية الذى يقدم على أمر جديد ، لم تعنه فيه السوابق ، ولم يهتد فيه الا بما اختار هو أن يهتدى اليه ..

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد وكلاهما عمل لا يفطن اليه الا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها . وكلاهما فطن اليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة . فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن ، وكان أثره فى تدعيم الدولة الأدبيــة كأثره فى تدعيـم دولة الغزوات والفتوح ..

وندر فى الدولة الاسلامية من نظام لم تكن له أولية فيه .. فافتتح تاريخا ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصـــول القضاء والادارة ، واتخذ لها بيت مال ووصـــل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالمرابطين ، وصـــنع كل شىء فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذى يحسن به الابتداء . فأوجز ما يقال فيه انه وضع دستورا لكل شىء وتركه قائما على أساس لمن شاء أن يبنى عليه ..

وملاك[4] النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه فى زمانه ، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، وضن بهم على العمالة فى أطراف الدولة ، تنزيها لأقدارهم وانتفـــاعا برأيهم واعتزازا بتأييدهم له ومعاونتهم اياه فيما تولاه من ثواب أو عقاب

(١) : الظاهرة ٠ (٢) أي الجديرة ٠ (٣) من معاني السمط : خيط فيه
(٤) ملاك الامر : أي قوامه ٠

وجعل موسم الحج موسما عاما للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها الى أقصاها : يفد فيه الولاة والعمال لغرض حسابهم وأخبار ولايتهم ، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم فى أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال ... فهى « جمعية عمومية » كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصور

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ، ويتوخى فى جميع ذلك تمحيص الرأى وابراء الذمة والخلوص الى التبعة السليمة من العقابيل[١] .

وان أضعف الناس رأيا لمن يستضعف فضل الأمير فى عمل تولاه ، لأنه عمله بمشاورة غيره

فان باب المشاورة مفتوح لكل انسان ، وليس كل انسان مع ذلك بالذى يريد أن يستشير ، أو بالذى يعرف كيف يستشير اذا أراد ، أو بالذى يحسن الموازنة بين الآراء ان عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم فى حالة ويرفضها فى حالة أخرى

ان المشاورة لفن عسير ..

وان الذى ينتفع بمشورة غيره لاقدر ممن يشير عليه

وقد كان عمر عبقرى هذا الفن الذى لا يجارى[٢] . وكان من بدعه الملهمة فى هذا الفن العسير انه لم يلتمس الرأى عند أهل الحنكة[٣] والخبرة وكفى ، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك فى الشعور والتفكير ... فكان كما روى يوسف بن الماجشون : « اذا أعياه الأمر[٤] المعضل دعا الأحداث[٥] فاستشارهم لحدة عقولهم » وانه لالهام فى فن الاستشارة لا يلهمه الا صاحب رأى أصيل . فمن الرأى الأصيل أن يخبر الانسان كيف يستعير آراء المشيرين .

انظر اليه كيف يستشير فى اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا : فن ، وأنه فن عسير

---

(١) : بقايا العلة . (٢) أي لا يضاهي . (٣) الذين أحكمتهم التجارب .
(٤) أي لم يهتد لوجهته . (٥) : الشباب .

قال لأصحابه : دلونى على رجل أستعمله[١]

فسألوه : ما شرطك فيه ؟..

قال : اذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم

ان الذى يسأل هكذا لهو أقدر من الذى يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثى الطريق السديد الى الجواب .

وكان ربما استشار العدو الذى لا يأمنه ، كما فعل فى سماع رأى الهرمزان فى أمر الحرب الفارسية ، لأنه بصير يطلب نورا ، فاذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق .

ومن اليسير ، اذا تعقبنا مشاورات عمر ، أن نعلم انه هو واضع دستور الشورى فى الدولة الاسلامية .. وان الشورى التى وضع دستورها هى شورى الرأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء

***

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية الى تخوم[٢] أعدائها ، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده

فأرسل المدد الى العراق ، وعليه أبوعبيد بن مسعود الثقفى ، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه ، وكيف يقدم فى موضع الاقدام ، ويتريّث فى موضع التريث ، وأجمل له ذلك فى قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا بل اتّئد[٣].. فانها الحرب لايصلحها الا الرجل المكيث[٤] الذى يعرف الفرصة ، ولا يمنعنى أن أؤمر سليطا (ابن قيس) الا سرعته الى الحرب. والسرعة الى الحرب الا عن بيان ضياع » وزاده تبصرة بالحيطة فقال له : « انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية[٥]. تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون وأحرز لسانك ولا تفشين سرك ، فان صاحب السر — ما يضبطه — متحصن لايؤتى من وجه يكره ، واذا لم يضبطه كان بمضيعة »

(١) أي أؤمره وأوليه • (٢) : حدود • (٣) أي ترد وتمهل • (٤) المكث: اللبث والانتظار • (٥) أي التجبر •

فهى المشاورة ، ثم اناة[1] فى الاجتهاد ، الا أن تجب السرعة ببيان وثقة فليكن الاسراع ، وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يظن به الاندفاع . وينسى من يظن به هذا الظن أنه قوى اندفاع وقوى ضـابط فى وقت واحد ، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب

وكتب الى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس ، وفى كتابه له قبس[2] من هذا المعنى : اذا انتهيت الى القادسـية وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر[3] ، على حافات الحجر وحافات المدر والجراع[4] بينها ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه .. فانك اذا أحسوك أنغصتهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحـدهم وجـدهم ، فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتبستم لقتـاله وقويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وان تكن الاخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم . وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح »

ثم كتب اليه يستوصفه المنـازل التى نزل بها ويسأله : « أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؟ .. فانه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم .. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن : صفة كأنى أنظر اليها واجعلنى من أمركم على الجلية[5] »

وكتب الى أبى عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه فى ترك حصارها : « ... سرنى ما علمت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحى التى قربت من انطاكية فهذا بئس الرأى ... أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه ؟ .. فما هـذا برأى .. يعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع ، فترجع اليك الجيوش

(١) من معاني الاناة : التأني ، والحلم • (٢) : شعلة تقتبس من معظم النار • (٣) • قطع الطين اليابس • (٤) الجرعاء . رملة مستوية لا تنبت شيئا• البكدير • (٥) : الواضح الظاهر •

وتكاتب ملوكها . فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .. وقد أنفذت اليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله ورغب فى الجهاد فى سبيل الله ، وهم عرب وموال : رجال وفرسان ، والمدد يأتيك متواليا ان شاء الله تعالى »

فكان دستوره فى الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد فى تنفيذها الى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى فى مصائر الحرب كل التخلى اعتمادا على القائد وحده ، اذ ليس القائد بالمسئول الوحيد عن المصير ..

فاذا رأى القائد رأيا وخالفه هو فى رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه اليه ، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر واعانته عليه ..

ولقد كان الى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغل[1] يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه ، فاذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظام الهجوم ، فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع اليه ، وأن يجرى فى ادارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدة فى دخول الدروب خلف العدو فكتب اليه : « أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى ما لايرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك . وعيونك[2] يأتونك بالأخبار ، فان رأيت الدخول الى الدروب صوابا فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيّق عليهم مسالكهم ، وان طلبوا اليك الصلح فصالحهم ... »

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بداءتها

وهو يختار القائد الضليع[3] بتسيير تلك الحملة

وهو بعد هذا لا يعفى نفسه من التبعة ، ولا يعفى القائد من واجب الرجوع اليه فى المواقف الحاسمة ، ولا يغل يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه ، ولا ينسى أن يعينه اذا خالفه فى الرأى ليتفق الرأيان

---

(١) أي لا يقيد . (٢) المراد : الجواسيس . (٣) القوي .

المختلفان . فاذا رجع القائد الى الحصار الذى أزمع[١] أن يتركه رجع اليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ، ليستمد من الايمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدى عملا يخالف الصواب فى تقديره

وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها عمر فى جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهى السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة ؛ وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد فى الميدان ، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور فى التواريخ والأساطير يقول : ان عمر هو هازمه فى الميدان و « انه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ! .. أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ! .. »

***

وربما أخطأ القائد الذى يختاره ، فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئول عن اختياره غير أنها لا تمسه من جانب الا أعفى منها من جانب آخر أو جوانب عدة ، كما حدث فى وقعة الجسر التى قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين . فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل كل رئيس دولة فى مثل ذلك ، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه فى كل مسألة من هذا القبيل ، وفى هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبى عبيد انصافا له حجته الراجحة فيه ، لأنه كان أول من أجاب الدعوة الى القتال ، فلم ير من الانصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين ، وقد سوغ الرجل اختياره اياه بانتصاراته الاولى التى رفعت شأنه بين القواد ، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر فى وصاياه ، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور ، ولم يكن على عمر لوم فى تقصير عن التنبيه والتحذير

وقبل أن يضع دستورا للولاة وضع دستورا لنفسه قوامه[٢] أن الحكم محنة للحاكم ومحنة للمحكومين ، و « انه لا يصلح الا بشدة لا جبرية[٣] فيها ولين لا وهن[٤] فيه » ... وان الخليفة مسئول عن ولاته واحدا واحدا

(١) أزمع على الامر : ىبت عليه عزمه . (٢) قوام الامر : نظامه وعماده .
(٣) أي تجبر . (٤) أي ضعف .

فى كل كبيرة وصغيرة ، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار ..

قال يوما لمن حوله : « أرأيتم اذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما عليَّ ؟.. قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أنظر فى عمله أعَمِل بما أمرته أم لا ؟ .. »

وعهوده على نفسه هى خير العهود التى تؤخذ على ولاة الأمر ، وأبينها للحدود القائمة بين الراعى والرعية ، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم الى الحكام خلافا لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكما فى كل شيء فكان يقول لهم : « أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا الى ... »

وجمع صلاح الأمر فى ثلاث : « أداء الامانة ، والأخذ بالقوة . والحكم بما أنزل الله » ، وصلاح المال فى ثلاث : « أن يؤخذ من حق ؛ ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل »

وعاهد الناس فقال : « لكم على ألا أجتبى[1] شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى ألا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم[2] ، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم — أى أحبسكم — فى ثغوركم ، واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم .. فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم » .

ومن أوائل عهوده فى بيان الحق الذى يرشح الحاكم لولاية الحكم : « أيها الناس : انى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما وليت ذلك منكم » .

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء ، وليس له فى غير ذلك حق يرشحه للحكومة .

---

(١) اي اجمع . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة : « ان الله ابتلاكم[١] بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى ، فلا والله لا يحضرنى شيء من أمركم فيليه[٢] أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن أهل الصدق والامانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن اليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم »

فهو يعاهدهم أن يلى الأمر بنفسه فى كل ما حضره ، وألا يعهد فيه الى غيره الا اذا غاب عنه ، ثم لا يكون وكلاؤه فيه الا من أهل الصدق والأمانة ، ثم هو لايدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبع أعمالهم ، فيحسن الى من أحسن وينكل بمن أساء

وقد كان يقول ، ويعنى ما يقول ، ويعمل بما يقول ..

***

وصارح القوم فيما لا يحصى من الخطب والأحاديث ان له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وان لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها . ومن ذلك الرواية المشهورة التى سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم : « والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا » فحَمَد الله أن جعل فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه ..

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجرا لعمله الا ما يقيم أوده وأود أهله عند الحاجة اليه ، فان رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه : « ... ألا وانى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم : ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف : تقرم[٣] البهيمة الاعرابية : القضم[٤] لا الخضم[٥] » أى كما تأكل ماشية البادية قضما بأطراف أسنانها لا مضغا وطحنا بأضراسها ..

ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال : « انه لا يحل لعمر من مال الله الا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين »

---

(١) الابتلاء : الاختبار والامتحان . (٢) أي يتولاه . (٣) البعير المقرم : أي المكرم ، لا يحمل عليه ولا يذلل . (٤) : الاكل بأطراف الاسنان . (٥) : الاكل بجميع الفم .

وقد كان أسخى من ذاك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال ، فقدر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه . يزاد عليها عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاله ، ونصف شاة ونصف جريب[1] من الدقيق .

وقدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربع شاة لتعليمه النـاس فى الكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهما وربع شاة فى اليوم ، مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم ... وهكذا على حسب الولايات والنفقات .

وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يغضى عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك

قدم الى الشام راكبا على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟ فالتفت اذ ذاك الى معاوية وسأله : انك لصاحب الموكب الذى أرى ؟

قال : نعم ..

قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : نعم ..

قال : ولم ويحك ؟

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العـدو ، فان لم تتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فاننا نخاف من البـذلة[2] بمرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فان استنقصتنى نقصت ، وان استزدتنى زدت ، وان استوقفتنى وقفت !

فقال عمر : ما سألتك عن شىء الا خرجت منه . ان كنت صادقا فانه رأى لبيب[3] ، وان كنت كاذبا فانها خدعة أريب[4] ، لا آمرك ولا انهاك

(١) : مكيال ، وهو اربعة أقفزة . (٢) : ما يمتهن من الثياب . (٣) : اي عاقل . (٤) : الدهاء وهو من العقل .

أما دستور الولاة عنده فأساسه أن الولاية تمييز بالواجب والكفاءة وليست تمييزا بالوجاهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : « افتح لهم بابك وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا »

وشغله كل الشغل أن تخضع الرعية لواليها رغبة فى حكمه واطمئنانا الى عدله ، فكان يقول للوالى : « اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس » ويقول للرعية : انى لم أبعث اليكم الولاة ليضربوا أبشاركم ويأخذوا أموالكم ، ولكن ليعلموكم ويخدموكم »

وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم فلما رأى أقواما ذميين ينقضون العهد ويثورون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفدا ، فيهم الأحنف بن قيس ، وهو مصدَّق عنده فسأله : « انك عندى مصدَّق ، وقد رأيتك رجلا فأخبرنى : « ألمَظْلمَة تَفَر أهل الذمة أم لغير ذلك » ؟ ..

فقال الاحنف : « لا .. بل لغير مظلمة والناس على ما تحب »

فهدأ باله وقال : « فنعم اذن ... انصرفوا الى رحالكم »

وربما ذهب فى ارضاء الرعية مذهبا لم يحلم به الغلاة[1] من المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور

فكان من قواده وولاته سعد بن أبى وقاص قائده المظفر فى حروب فارس ، وقريب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل الذى جعله عمر واحدا من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة ، فثارت به طائفة من أتباعه وشكته الى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والثأر ، فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره ، وايفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها .. فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة،يسأل عن سعد وسيرته فى الرعية ، وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه ، الا من شكوه . فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه ، وقال فريق منهم : انه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية ، ولا يغزو فى السرِيَّة »

(١) من التغالى .

فعاد محمد بن مسلمة الى المدينة وسعد معه ، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة ، الا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة ، فعزله وقال لشاكيه : « ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر وقد استعد لكم من استعد . وايم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وان نزل بكم » وقال لسعد يومئذ مبرئا له من تهمة خصومه : « هكذا الظن بك يا أبا اسحق !.. ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيننا » . ثم أبى أن يفارق الدنيا وفى ذمته شهادة لسعد يعلنها لملأ المسلمين ، فلما حضرته الوفاة وسألوه أن يستخلف ؛ أبَى أن يخلف أحدا من أهله ، وسمى عليا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعدا « لأنهم نفر توفى رسول الله وهو عنهم راض ، فأيهم استخلف فهو الخليفة » ... ثم قال : فان أصابت سعدا فذاك ، والا فأيهم استخلف فليستعنْ به ، فانى لم أعزله عن عجز ولا خيانة .

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين

ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بتشكايات الرعية ، الا أن عمر فى حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين .. فغبن وال أو قائد أهون من غبن أمة أو جيش.. ومن أقواله فى ذلك : « هُان شيء أصلح به قوما أن أبدلهم أميرا مكان أمير » ..

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص . وانما هو سبب من الأسباب التى ترجع الى سلامة الدولة أو ما نسميه فى العصور الحديثة بالسياسة العليا ؛ وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين

فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض اذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب

عسير ..

فقد تزيِّن له نفسه ، أو تزيِّن له رعيته ، أن يستقل بالأمر وينتحل[١] لذلك ما شاء من المعاذير . فان فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ، ولو جاء بعده من يضارعه فى القوة والمهابة لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج منها بعد طول تربص واستعداد

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الاسكندر المقدونى وتواريخ العتاة[٢] من قياصرة الرومان ، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ما تلاه من الامثلة فى دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقيين ومغربيين ، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعا وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم : انما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم ، أو لكيلا تفتتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم ، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ فى الوجاهة يدعوه الى تغلب رغبات الرعية على مكانة الولاة ، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض الا الفرصة السانحة[٣] ، وهى أقرب شيء سنوحا فى ابان[٤] التأسيس والانتقال

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل ، فلا جزاء الا بقسطاس دقيق محيط ، ولا سيما فى الشؤون المالية ، لأنه يعتمد فى محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض ، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه

فمن هذه الوسائل انه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما لايدخل فى عداد الزيادة المعقولة ، ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم : انما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجارا

ومنها أنه كان يرصد[٥] لهم الرقباء والعيون[٦] من حولهم ليبلغوه ما ظهر

---

(١) : أي بدعي · (٢) أي الجبارين · (٣) أي المهيأة والموأتية
(٤) أي وقت · (٥) الترصد : الترقب · (٦) أي الجواسيس ·

وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس اليه أن يرفع نبأه الى الخليفة .

ومنها انه كان يندب لهم وكيلا خاصا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها ، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون ...

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارا اذا قفلوا اليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ما حملوه فى عودتهم ، ويتصل نبأه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق .

ومنها انه كان يستقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد . ونوى[١] فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير فى البلاد ، فيقيم شهرين فى الشام ، ومصر ، والبحرين ، والكوفة ، والبصرة ، وغيرها . فانه ليعلم « ان للناس حوائج تقطع عنه أما هم فلا يصلون اليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها اليه »

وكان لايكتفى بوسائله تلك اذا استراب[٢] ، فيعمد الى الحيلة للكشف عن الخبايا التى تريبه . ومن ذلك انه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام ، فوقع فى نفسه أن ولده قد زوده فى عودته بمال . وجاءه أبوسفيان مسلما فقال له : أجزنا يا أبا سفيان ! .. قال : ما أصبنا شيئا فنجيزك ! .. فمد يده الى خاتم فى يده فأخذه منها وبعثه الى هند زوجه ، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما

فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال ..

وكانت سنته[٣] اذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أربى[٤] على كسبه المعقول فيترك له النصف ويضم النصف الى بيت المال ، وهذا عدا ما

---

(١) أى عزم . (٢) من الريب ، وهو الشك . (٣) سنته : أى طريقته .
(٤) . أى زاد .

يجزيه به من عزل أو عقاب

أما حساب الشكايات من المظالم : فكانت سنّته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة[1] المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها . فمن ضَرب ضُرب ، ومن غصب ردّ ما غصب !.. ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب

وقد يأخذ الوالى أحيانا بوزر[2] ولده أو ذوى قرابته اذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها ..

جاءه مصرى فشكا اليه واليها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة !.. ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمنا .. وما زال محبوسا حتى أفلت وقدم الى الخليفة لابلاغه شكواه ...

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس ... ومضت فترة اذا به فى خلالها قد استقدم عمرا وابنه من مصر فقدما ومثلا[3] فى مجلس القصاص . فنادى عمر : أين المصرى ؟.. دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين

« فضربه حتى أثخنه[4] ونحن نشتهى أن يضربه . فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين !.. ثم قال : أجلها[5] على صلعة عمرو !.. فوالله ما ضربك ابنه الا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزعا : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، وقال المصرى معتذرا : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى .. فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه[6] . والتفت الى عمرو مغضبا يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله : أيا عمرو !.. متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! ٠

(١) أي شريعة ٠ (٢) أي بذنب ٠ (٣) يقال : مثل بين يديه : أي انتصب قائما ٠ (٤) : اذا بالغ الجراحة فيه ٠ (٥) : أي أدرها ٠ (٦) تتركه ٠

ومن هــذا العدل فى شؤون الولاية . نستطيع أن نفهم دستوره فى شؤون القضاء ، فلن يكون هذا الدستور الا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق .. الا اننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ؛ فلا تعقيب بعدها لمعقب فى زمانه أو فى زمان يليه . مهما تختلف الاقوام والاوقات

أنشأ وظائف القضاة وتخير لها العدول الأكفاء . ولم تكن به من حاجة هنا الى سن الشريعة التى يحكمون بها فانها ماثلة فى الكتاب والسنة ، ولكنه كان فى حاجة الى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر . فأحسن التعليم

***

كان يكتب لأحدهم : « اذا جاءك شيء فى كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . فان جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت : ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تأخر فتأخر . ولا أرى التأخير الا خيرا لك »

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه . فلم يقطع يد السارق فى عام المجاعة رعاية للزمن ، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيــده رعاية لسنّه أو للعلاقة بين الســارق والمسروق منه ، واشتركت المرأة وصاحبها فى قتل رجل فتحرج من قتل اثنين بواحد حتى أفتاه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد اذا سرقوا لحما من بعير واحد . فأخذ بفتواه

***

ومن وصاياه للقاضى : « آس[1] بين الناس فى مجلسك ووجهــك حتى لايطمع شريف فى حيفك[2] ولا ييأس ضعيف من عدلك . والبينة على من

(١) أي ساوى . (٢) جورك وظلمك .

ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا وأحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى[١] فى الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج فى صدرك ما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد[٢] الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدا[٣] ينتهى اليه . فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر ... المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا[٤] فى ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ[٥] عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الدخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس »

ومن وصاياه لمن يلون الحكم : « الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك : اذا تقدم اليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه ، وتعهد الغريب فانك ان لم تتعهده ترك حقه ورجع الى أهله ، وانما ضيع حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس فى لحظك[٦] وطرفك[٧] ، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء »

***

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام ، وهى فيما نراه أحكم وصاياه وأقربها أن يتبعها سواه

ولذلك سبب لا يعسر تعليله . فقد كان عمر فى الجاهلية حكما من قبيلة محكمين ، أو سفيرا يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء . فهو فى هذه الصناعة عريق

(١) أي الاستمرار . (٢) أي أقصد . (٣) وقتا . (٤) : المتهم .
(٥) أي دفع . (٦) اللحاظ : مؤخر العين ، ولاحظه : راعاه . (٧) : العين .

الا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها ، وانما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا فى وصاياه لقضاته .. فما من أحد يستطيع أن يوصى قاضيا بخير مما أوصى ، وما من عقدة قضائية تأتى من قبل القضاة أو من قبل التقاضين الا وهى ملحوظة فى كلامه ، وهاتان هما الخصلتان الباديتان فى دستور القضاء كما أملاه

***

ولا بد أن يلفت النظر فى سياسته للولاية وسياسته للقضاء انه كان يأخذ بالواجب حيث وجب ، وان اختلف الواجبان ..

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ، ويمعن فى تحرّيها ، ولا يكتفى من الناس بالظواهر ..

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضها البينه القاطعة ، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول : « أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فان من أظهر لنا قبيحا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا » أو يقول : « انما كنا نعرفكم اذ الوحى ينزل ، واذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا » فقد رفع الوحى . وذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، فانما أعرفكم بما أقول لكم . ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأثنينا عليه . ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه »

بل كان له فى الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه فى القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه وينهى أن تظن بكلمة شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا

وهذه فى الظاهر نقائض ، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضعه لازم ..

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولى مسئول ، لا تنصلح الأحوال بغيره ، وفى الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس

والأخذ بالبينة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور ، وهو فى أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية ، اذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة فى الحكم بغير برهان

وفى الاخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الاصدقاء اذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات ومنها الأسرار .

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هى دليل البصيرة فى عرفان كل واجب منها ، وانها تصدر عن رأى أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف واملاء التقليد والمحاكاة ..

***

وأنشئت فى عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الاحصاء والخراج والمحاسبة التى لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده . فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . ووكل معظم الدواوين الى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة وليس من الميسور أن ينصرف اليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد ... فلو وجد منهم من يفى لتلك الاعمال لكانت خسارة الدولة فى قيامهم بها أعظم من ربحها ، ولكنهم غير موجودين ، ولا عملهم فيها باللازم اللازب[١] للمصلحة الكبرى ، وقد يكون عمل الفارسى فى مصلحة فارس والسورى فى مصلحة سورية والمصرى فى مصلحة مصر أحرى أن يعصمهم ان كان بهم عاصم ، والا فلا تثريب[٢] .

ووضع عمر نظاما لتحصيل الجزية ، وتصرف فى وضعها على حسب الأمم والبلاد . فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بديلا عنها ضعف صدقة المسلم ، لأنهم أنفوا[٣] أن يؤدوها وأزمعوا[٤] اللحاق بأرض الروم ..

(١) الثابت . (٢) : الاستقصاء في اللوم . (٣) استكبروا واستعظموا
(٤) أزمع على الامر : ثبت عليه عزمه .

وكان له نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده . فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك . ولكنه أبقى الارض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ؛ ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم .. واذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثروتهم وأن يعتصم الجند الاسلامى من فتن النزاع على الارض والعقار ومن فتن الدعة والاشتغال بالثراء والحطام . وربما أغضى عن كثير فى سبيل الاهانة على تعمير البلاد بأهلها ؛ فتسفح عن أهل السواد «العراق» لأمنوا البقاء فيه . مع أنهم حنثوا[١] بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال ..

***

ويلوح من كلامه فى أخريات أيامه انه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى ، وعلاج مشكلة الفقر والغنى ، على نحو غير الذى وجدها عليه . فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء » .

ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية ، ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه ، فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة فى الآداب النفسية والساواة فى السنن الاجتماعية . فكتب الى أبى موسى الاشعرى : « بلغنى انك تأذن للناس جما[٢] غفيرا[٣] . فاذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فاذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة » ، ولكنه لما رأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم فى مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟.. ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة فى جفان[٤] واحدة

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات

---

(١) : الخلف في اليمين . (٢) : المال وغيره اذا كثر . (٣) أي الجمع الكثير . (٤) جمع جفنة : وهي القصعة .

ولم يكن برضيه كذلك أن يعتمدُ الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم فى خطبه : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا[1] على المسلمين » وكان يوصى الفقراء والأغنياء معا « أن يتعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدهم الى مهنة وان كان من الأغنياء »

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فصول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها فى وجوه البر والاصلاح

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا لديوان الوقف الخيرى على الوجه الذى نعهده الآن . فقد أنشأ بيت الدقيق لاغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضا بخيبر فاستشار النبى عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها[2]. فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم . ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقا فقيرا منها

***

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة اليها فى وقته فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج اليه من اصابة الرأى وحسن الروية . فكانت نصائحه فى تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح ، وكانت دواعيه الى بنائها من أشرف الدواعى وأليقها بالأمير

شاهد فى الجند هزالا وتغير ألوان ، فسأل قائدهم سعدا : ما الذى غيَّر ألوان العرب ولحومهم ؟.. فأجابه : انها وخومة[3] المدائن ودجلة ، فكتب اليه ان العرب لايوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان ، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا[4] منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم نيه بحر ولا جسر ، وأمر أن تبلغ مناهج[5] المدينة أربعين ذراعا ، وما يليها ثلاثين ذراعا ، وما بين ذلك عشرين ، والا تنقص الازقة عن سبعة أذرع ليس دونها شىء ، وألا يرتفع بناء الدور

(١) العالة : الفاقة . (٢) أي ما يحصل عليه منها . (٣) بلدة وخمة ووخيمة : اذا لم توافق ساكنها . (٤) أي فليطلبا . (٥) : أي طرق .

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم[1] الملجأ الذى يسكنون اليه بعد الغزو فى حدود فارس . فكتب الى عتبة بن غزوان أن « ارتد[2] لهم منزلا قريبا من المراعى والماء » ووصف له ما يلتزم من مواته وخططه فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حولا[3] يفرغ فيه من حفره واعداده لمسير السفن فيه ، فساقه من جانب الفسطاط الى القلزم ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن وسمى خليج أمير المؤمنين ، ولم يزل مفتوحا حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء

***

فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره ، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئا لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الدور والزهد فى تشييد القصور . أما هو فالوجه الذى توخاه فى سياسة التعمير أن يحمى الدولة فى نشأتها من الترف والبذخ ، وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة الى متاع القصور المشيدة والصروح الممردة[4] وما فيها من بواعث الوهن[5] والفتور . ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلا على ابتداء الضعف وعفاء[6] العقيدة ، ويقول « شبنجلر » أحد هؤلاء الفلاسفة : ان الامم فى نهوضها تعبر طريقين مختلفين : طريق العقيدة وقوة النفس وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التى تقاس بالباع والذراع وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق ..

وعمر على كلتا الحالتين لم يتعدّ طبائع الاشياء ، ولم يأخذ فى زمانه بغير الصالح من الآراء .

وقصارى القول: ان هذا الرجل لم تواجهه فى ولاياته الواسعة صعوبة

---

(١) أي يحتاجون ويفتقرون اليه . (٢) : أطلب . (٣) أي سنة

(٤) تمريد البناء : تمليسه . (٥) الضعف . (٦) من قولهم : عفا المنزل : أي درس .

أكبر منه وأحوج الى قدرة أعلى من قدرته أو هيبة ودر... أ بل مما ... له من هيبة ودراية ، فاذا عرضت الصعوبة الطـارئة فهنالك الحزم اللازم لمواجهتها والحيلة الصالحة لتدبيرها ، كأنما كان لها على استعداد ، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس[١] بهذه الأمور

***

وكان اضطلاعه بتفريج الأزمات والكوارث ، كاضطـلاعه بتـدبير الحاجات الى التعمير والتنظيم .. ففى السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهور ، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ ان الوحش كانت تأوي فيه الى الانس ، وان الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها[٢] لقبحها

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب[٣] ، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت ، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين الى حيث يمشر بالجياع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم ، وآلى[٤] على نفسـه لا يأكل طعاما أنقى من الطعام الذى يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت . ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذى يرسله اليهم مع عماله .. فقال للزبير بن العوام : « اخرج فى أول هذه العير فاستقبل بها نجدا ، فاحمل الى أهل كل بيت قدرت أن تحملهم الى ، ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه ، ومرهم فليلبسـوا كساءين ولينحروا البعير فليحملوا شحمه ، وليقددوا[٥] لحمه ، وليحتزوا جلده ، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق »

***

وهـذه السهولة فى مواجهة كل حالة بما يوائمها[٦] هى التى تبرز لنـا « مؤسس الدولة الملهم » فى هذا الرجل العظيم

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس[٧] ، صعب عند تصورنا

(١) من المراس والممارسة . (٢) عاف الرجل الطعام أو الشراب : كرهه .
(٣) الامر . (٤) : أقسم . (٥) أي يجففوه . (٦) : أي يلائمها ويناسبها .
(٧) الصحيفة .

اياه واحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وانجاز وخلق وهيبة . فكم بين المدينة وتلك الاطراف فى زمن أسرع وسائله بعير سريع ؟.. وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح ، وكل أمة تحكم ، وكل عارض يطرأ على غير رقبة[١] ولا سابقة خبرة ؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل ، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل ، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل ، والسؤال عن قادة الاعداء ومداوراتهم ليستقصى خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل ، وانشاء المدن والعمائر فى مواضعها ، واقامة الدواوين عند الحاجة اليها ، وارضاء الأمم والجيوش بالاصغاء الى شكاياتهم ولو جاءت فى غير أوانها ، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغى لها ، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة والاجتهاد بالرأى عندما تختلف الآراء ، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه ، وخدمة الناس فى دينهم وخلقهم كخدمته اياهم فى دنياهم ودولتهم ، وتجدد هذه المتاعب يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام . وهى شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضا الى أيام

***

وجليل[٢] بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالاشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق وأجير الديوان الصغير ، لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب بعينه ، ولا يدع أحدا من خدام الدولة الواسعة الا وهو شريك له فى مثل ما يتولاه ..

وأكبر ما يستحق الاكبار فى هذا الرجل الكبير انه كان قادرا على تأسيس الدول وعلى فتح الامصار ، ولكنه راض القدرتين فلم يقدم على فتح الامصار الا بمقدار

فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحربى لبانة من لباناته ، وهو على

(١) أي ترقب وتوقع وانتظار . (٢) أي عظيم .

علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الارض لم يكن يرى فى ذلك داعيا الى العجلة بالفتح كما كان يرى فيه دواعى للتبصر والاناة ، حتى لا يسفك دم فى غير موجب ولا تعتسف خطة بغير روية

فكان همه الاكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الاسلام فى عقر داره[١]. ولولا أن الدول العظمى التى كانت تحدق[٢] بجزيرة العرب تحفزت للبطش بها ، وتمنع دعوتها فى مهدها ، لكانت للدولة الاسلامية سياسة أخرى فى مصاولة أولئك الاعداء

فدولة الروم كانت ترسل البعوث الى تخوم[٣] الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبى عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون فى فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها . يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبى حيث يقول : « ... وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم[٤] هو ؟ .. ففزعت فخرجت اليه وقال : حدث أمر عظيم ... قلت : ما هو ؟ .. أجاءت غسان ؟.. قال : لا ، بل أعظم منه وأطول .. طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه ! »

***

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار ..

أما فارس فقد بلغ بطغيانها ان عاهلها غضب من دعوته الى الاسلام فأوفد الى الحجاز رسولا مع نفر من الجند ليأتيه بالنبى العربى حيا أو ميتا ! .. ولولا أنه مات قبل انجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن فى بلاده لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب لدفاع وما هو الا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسى حتى سكنوا الى ذلك ، وود عمر بن الخطاب « لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » ولم تتغير خطته هذه الا حين استوى يزدجرد على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين واخراجهم

(١) : وسطها · (٢) أي تحيط · (٣) : حدود · (٤) أثم ؟ : أهناك ؟

من حيث نزلوا .. فتجدد القتال ..

وقد طال تردد عمر فى فتح مصر ، ولم ينبعث الى غزوها حبا للغزو ولهجا[1] بالفتوح ، ولولا أن علم أن أريطون قائد الروم فى بيت المقدس قد فرّ منها الى مصر ليحشد فيها الحشود ويتأهب للكر على الشام لطال تردده فى الزحف عليها . ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد اشخاصه اليها ، ونهاه عن الايغال فى المغرب بعد فتحها ، لأن السطوة — وهو مقتدر عليها — لم تكن تزدهيه ولا تغويه ، ولأن الضن بالأرواح أغلب فى طبعه من الشغف بالفتوح و « أن رجلا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار ! »

***

فلا يخطىء القائل الذى يقول ان الاناة فى السطوة أكبر ما يستحق الاكبار من هذا الخلق الرفيع ، وان دلالته الانسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر . لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة انسانية عالية ولا تكون لزاما نقمة من نقم الاثرة والأنانية ، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء .

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين ، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية ، أما الدين فلا يهدمه شىء كما تهدمه قوة الطغيان

ان البأس الذى رزقته نفس عمر لحظ عظيم . ولكنه لو كان فى يدى غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو فى يديها ، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره ، ولم يضرب به قط بمعزل عن الايمان حتى فى أيام الجاهلية . فلو لم يقع فى روع عمر أن محمدا أهان قريشا وانتقص دينها لما تصدى له بأذى ، ولولا حرمة الايمان الجاهلى عنده لما ثار على ايمان محمد وصحبه ..

وغاية ما هنالك انه فرّق بين ايمان وايمان ، ففى الجاهلية كان ايمانه

---

(١) : المولوع به .

مضللا فعقم ولم يأت بطائل ، وفى الاسلام كان ايمانه رشيدا فأتى بأطيب الثمرات ..

***

قبل أن يقال:ان عمر كان أكبر فاتح فى صدر الاسلام ينبغى أن يقال : انه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الاسلام ، وانه أسسها على الايمان ولم يؤسسها على الصولجان[١] ، فكان مؤسسا لها قبـل أن يلى الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان من يوم اسلامه آخذا فى تشييد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

ان تاريخ عمر وتاريخ الدولة الاسلامية لا يفترقان ، فاذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك ، ولن يطول بك الاستطراد حتى تثوب[٢] اليه كرة أخرى

---

(١) : كلمة فارسية معربة ، ومعناها :المحجن . (٢) تثوب : ترجع .

عُمَر والحكومة العصرية

من الحقائق التى لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولاة العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا ، واننا مطالبون بأن نفهمهم فى زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا فى زماننا ، وان الرجل الذى يصنع فى عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التى يقتدى بها أبناء كل جيل ، ولا حاجة به الى اقتداء بنا . ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر الينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا:ان أشكال الحكومات بمرتبة دون مرتبة المبادىء التى تقوم عليها ، وان المبادىء التى تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الانسانى الذى ينبغى أن يعمها ويتخللها ، لأن المبدأ يعيبه أن يخلو من الروح الانسانى ولا يعيب الروح الانسانى أن يخالف المبدأ فى بعض الأحايين .. فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد ، هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية ، ولكن العدل والحرية هما الروح الانسانى المقدم على المبدأ وعلى الشكل معا ، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضيرنا اذا وجدنا العدل والحرية ... أما فقدان العدل والحرية فهو الذى يضير ولو توافرت المبادىء والأشكال

فاذا عرفنا العدل بروحه ولبابه ، فلا ضير عليه أن تنكره مبادىء الثورة الفرنسية أو مبادىء الوثيقة الكبرى فى البلاد الانجليزية ، أو مبادىء الدستور الامريكى فى أيام آباء الدستور هناك ، أو مبدأ من المبادىء التى لا تنى[1] تتجدد وتتغير كائنا ما كان

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور الحديثة : ماذا كان هذا العظيم صانعا لو نشأ فى القرن الاول للهجرة مثلا أو القرن الأول للميلاد ؟ .. أكان يصنع فيه ما هو « عصرى » فى زماننا

---

(١) يقال : فلان لا ينى يفعل كذا : اي لا يزال يفعله .

أو يصطنع فيه ما هو عصرى فى ذلك الزمان ؟ .. فمما لا مراء فيـه[1] أنه يخالف عمله فى زماننا ، ولا يخالف عمله فى زمانه الذى نشأ فيه ، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق . بل اللوم علينا نحن اذ ننتظر ما لا ينتظر ونقيس على غير قياس .

والى جانب هذا كله ينبغى أن نذكر ولا ننسى أن عصرنا ليس بخير العصور ! .. واننا لو ملكنا تبديله فى كثير من الامور لبدلناه ، واننـا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقبـاح القبيح فيه ، وان الفارق الاكبر بينه وبين العصـور الاخرى انما هو فرق الالفة والاستغراب ، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصور مستغربة فى أنظارنا ، وكثيرا مايكون الاستغراب عرضيا سخيفا متعلقا بالمظاهر والازياء دون الجواهر وحقائق الأشياء ..

أذكر من الصور التى رأيتها فى الصحف الاوربية — ولا أنساها — صـورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات فى أزياء عصرنا وأزياء العصور السـابقة على اختـلافها ، عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك فى الطريق ؟ ..

فاذا تأملت الصـورة رأيت فيهـا يوليوس قيصر فى القبعة الطويلة وكسوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوباترة فى زى الباريسية العصرية ، ثم رأيت أميرا من أمراء هـذا الزمن وحكيما من حكمـائه على نمط[2] التماثيـل التى حفظت لقيـاصرة الرومان وحكماء اليونان . فاذا بك تستغرب ما تألف وتألف ما تستغرب ... وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذى يفهمك وتفهمه من الكلمة الاولى ، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذى مثلته لك الصورة فى زى الأقدمين المخالفين لك فى العقيدة والشـارة والذوق ونمط التفكير والنظر الى الأشياء ..

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة أن تعلمنا

---

(١) لا مراء فيه : أي لا ريب فيه · (٢) أي نظام وطريقة ·

الكثير وأن تصحح لنا مقاييس المقـابلة والتقدير بين كل عصر سـابق وعصر أخير ..

***

ونحن — اذ تنظر الى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها الى نظام الحكم فى زماننـا — واجـدون فيها كثيرا من المستغربات التى تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الاولى . ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وتنفذ الى اللباب حتى تزول الغرابة ونرى فى مكانها الحق الخالد الذى تتغير العصـور ولا يتغير ، بل نرى فى مكانها أحيانا ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادىء هذا العصر الاخير

خـذ مثلا انه — وهو أقدر المالكين فى عصره — كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ، ويهنأ[1] ابل الصدقة ، أى يداويها بالقطران ، ويراه رسـل الملوك وهو نائم على الارض نومة الفقير المـدقع[2] ، وتعرض له المخاضة[3] وهو داخـل الى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خفيه ويخوض الماء ومعه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوى بينهما فى المأكل والمركب والكساء ..

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه ، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمت[4] والشـارة[5] ، لأن حاكم الأمة يحتاج الى المهـابة بين قومه وغيرهم من الأقوام ، وهذا حسن مشكور

ولكن هذه وجهتنا نحن فى هذا ، فما هى وجهة عمر فيه ؟ ..

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا .. فما هى حجة عمر فيما ارتسم ؟ ..

اننا اذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين ألفيناه فى غنى عن وجهتنا وحجتنا ، وانه كان يصـل الى الغاية التى نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذى توخيناه

فكان يعيش عيشـة الفقراء ، وأمته وأمم أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان فى القصور ..

(١) : طلاهـا بالقطران · (٢) : الشديـد الفقراء الملصـق بالتراب ·
(٣) : ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا · (٤) أي الشكل والهيئة والمظهـر ·
(٥) أي العلامة ·

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هى أساس الحكم قبل كل أساس ، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة ، ثم لا غضاضة[1] فيها على السلطان

وكان يدين[2] نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها ، ويقنع باليسير ويعطى الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت فى المآثر والأعمال . فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام فى عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه فى قبولها ، ولما قسم الولايات جعل لكل وال كفاء[3] عمــله من أجر وطعام مكفولا[4] له مع عطائه الذى يعطــاه كسائر المسلمين . وهو الذى خالف أبا بكر فى التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق ، فقال له : أتسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ .. أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ .. ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق

أما المهابة فمن افتقر من الولاة الى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى به فى خصاصته وشظفه[5] ، فله من ذلك ما تقضى به مصلحة الدولة حيث كان ..

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى « الواجب الحكومي » على الوجه الأقوم فلا سبيل لأحد الى أن يؤاخذه فيه بقياس حــديث أو بقياس قديم ..

فاذا بقى أن نستدل بتشديده فى المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هى الدلالة التى يدل عليها ؟ .. هل يدل هذا التشديد فى محاسبة النفس على شيء يعاب ؟ .. هل هو أدنى الى النقص أو هو أدنى الى الرجحان ؟ ..

ان أناسا يشددون على أنفسهم عن كزازة[6] فى الطبع وضيق فى الحظيرة وعجز عن ملابسة الدنيا . وهذه نقائص تعاب فى مقياس الفكر والاخلاق

ولكن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعب المتوجس العاجز الذى يرجع الشظف عنده الى العجز عن ملابسة الدنيا ؟ ..

---

(١) : الذلة والنقصة • (٢) : العادة والشأن • (٣) أي جزاء أو قدر •
(٤) أي مضمونا • (٥) :يبس العيش وخشونته • (٦) : الانقباض واليبس

أعجل الناس بالاتهام ، لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه .

وانما تدل جملة أخلاقه على ان الخلق الذى ألزمه حياة الشظف انما هو خلق قوى يروض صاحبه على ما يريد ، وليس بخلق ضعيف ، يجفل من التصرف والتكليف ، اجفال العجز والرهبة والوسواس ..

وفى « طبيعة الجندى » التى قدمنا الكلام فيها بعض التفسير لنظرته فى حساب نفسه وفى الموقف الذى اختار أن يقفه بين يدى الله . فهو يعلم ان الله شديد الحساب وان الله رحيم ، ولكن الجندى القوى اذا وقف بين يدى مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق تفاصيله ، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة ، فان جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها . فأكرم لطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص فى اعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران

وكان وفاؤه لحق الصداقة ، كوفائه لحق الله ، سببا من أسباب هذا الشظف الذى عاش عليه بعد النبى وخليفته الاول . فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيرا مما عاشا ، وأن يستبيح — وقد صار الأمر اليه — حظا لم يستبيحاه ، وكثيرا ما توسل اليه خاصته أن يشفق على نفسه وأقنعوه بما عنموا أنه أدنى الى اقناعه ، وهو أن يتوسع فى العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق ، فكان يقول لهم : « قد علمت نصحكم . ولكنى تركت صاحبى على جادة ، فان تركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل » ، وكلما نصح له ذووه ومنهم بنته حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة[٢] سألها : كم كان نصيب النبى من هذا أو من ذاك وأنت تعرفين نصيبه ؟ .. فيكون السؤال هو الجواب .

ثم كانت رغبته فى اقامة الحجة على ولاته وعماله سببا آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل ، فقد يستحى أحدهم أن يخون ليغنى وخليفته قانع لا يطمع فى اكثر من الكفاف[٣] .

وماكان عمر بالذى يجهل ما عرفه الناس من مروءة « الأبهة والوجاهة »

---

(١) : المنزعج . (٢) ساغ الشراب : سهل مدخله في الخلق ، وساغ له ما فعل : جاز . (٣) أي القوة الضروري .

هو الذى يعلم ما جهلوه ، ولكنه كان غنيا عنها ايثارا لغيرها مما هو أرفع منهـا وأدل على المروءة فى حقيقتهـا . فكان يقول : « المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ومروءة باطنـة . فالمروءة الظـاهرة الرياش[١] ، والمروءة الباطنة العفاف »

فهو فى جملة أحواله يفرض الشظف على نفسـه لأن قوته الخلقيـة تستطيع أن تريد فتفعل ، وتستسهل الجد الذى يصعب على غيرها . ففيها رجحان يكبره العقل والخلق ، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق ..

انما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه فى غير بخس[٢] ولا حرج ، ويحاسب نفسه فيؤثر الشـدة ليقطع الشك ويدرأ[٣] الشبهة ويقتـدى بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه .. فلا سبيل عليه لباحث فى نظم الحكم ولا لباحث فى معاني الاخلاق

على ان عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر ، وهى تهلل للملوكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته[٤] فى بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهى الاوقات التى يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها فى المعيشة والتكليف . وأكثر ما يكون ذلك فى أوقات المجاعات والحروب وشح المؤونة على الاجمال

ففى الحروب الأخيرة تجاوبت الصـحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التى توجبها ضرورات التموين ، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون الا ما تأكله شعوبهم وأنهم لايرون لهم عزة فى الترف الذى يعز على رعيتهم ، فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط ، وعلمتهم الشدة كيف ينفذون الى الواجب الانسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة

وشىء آخر يسـتغربه العصريون فى نظـام حكومة عمر وان كانوا ليتمنون مثله لو استطاعوه ، ونعنى به طريقته فى محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقق الامانة

---

(١) : اللباس الفاخـر ، وقيـل : المـال ، والخصـب ، والمعاش .
(٢) : النقصان . (٣) : يدفع . (٤) أي طريقته .

فكان يجزى الوالى جزاء المثل عن كل مظلمة وقعت على أحد رعاياه ، ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذويه ان أساءوا وهم مستطيلون بما للولاية من حول[1] وجاه ..

وكان يحصى أموال الولاة ، ثم يستصفى ما زاد عليها كلما فشت لهم فاشية[2] من النعمة لا يخبرونه بمصدرها .

وفى هـذا وذاك ضمان للعدل والأمانة ، يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه فى طرائق الحكومات العصرية

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟ ..

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف فى تنفيذه

أما انه حسن فلا شك فى حسنه ولا فى انه أحسن من نظـائره بين النظم العصرية ، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وان ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته الا باذن منها !.. وقد تحميه مرة أخرى بالاحالة الى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله ، لأنها هى المختصـة بمناقشته فيه . وتعتذر فى الحالتين بعذر المحافظة على نظـام الدولة ان يهدده ما يهدد مراكز الحكام

ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه ، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام .

أما الطريقـة العصرية فى ضـمان أمانة الحكام فهى أن تحرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال فى الشركات وما اليها ، ثم هى لا تأخـذ منهم درهما ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضياع والقصور والأموال ..

فمن استغرب الطرائق العمرية فى هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب ، وان المـألوف هو المعيب ان قصر عن الغرض المطلوب ..

---

(١) : الحيلة ، والقوة ، والمراد : القوة . (٢) جمعها « فواشي » وهي : كل شيء منتشر من المال كالغنم السائمة والابل وغيرهما .

وما عدا هـذا من اختلاف بين العهدين فقلما يعدو اختلاف الاسماء وتغيير العناوين ، وقلّ أن ينفذ الى ما وراء القشور . وهـذه بعض الشواهد التى تقرب أسباب النظر الى حقيقة هذا الاختلاف ..

مرّ عمر فى سوق المدينة ، فرأى اياسا بن سلمة معترضا فى طريق ضيق فخفقه[١] بالدرة وقال له : « امط[٢] عن الطريق يا ابن سلمة ! .. »

ثم دار الحول ولقيه فى السوق فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ .. قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يا ابن سلمة ! .. استعن بهذه ، واعلم انها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول[٣] ! .. قال اياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها ... فأجابه عمر : أنا والله ما نسيتها .

فالنظم العصرية تحار فى وضع هذه الحادثة فى باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات ..

ولكن ماذا يصنع جندى المرور فى عصرنا اذا شاء أن يميط عن الطريق ويفض الزحام ؟ .. وماذا تصنع المحاكم فى تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة ؟ ..

ان جندى المرور ليضرب بالدرة وبما هو أقسى منها ، وان المحاكم لتعوض المضروب بشىء من مال الدولة عن خطأ الجند والموظفين ، وعمر قد عوض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة:انه ذهب به الى بيته ، فان لم يكن هذا المبلغ من مال عمر وكان من خزانة الدولة فقد غرم عمر كل دين عليه قبل موته ، ولم يفارق الدنيا الا على ضمان وثيق أن يعاد كل درهم من دينه الى ذويه . وقد يكون الخطأ يومئذ فى الحساب لا فى تصرف عمر بن الخطاب

ورأى عمر امرأة فى زى استغربه فسأل عنها فقيل له :انها الامة فلانة ! فضربها بالدرة ضربات وهو يقول لها : يا لكعاء[٤] ! .. أتتشبهين بالحرائر ؟

وهنا مجال واسع للحذلقة[٥] العصرية فى الكلام على «الحرية الشخصية»

(١) أي ضربه . (٢) أي تنح وابعد . (٣) يعني : العام الماضي .
(٤) : أي لئيمة . (٥) : أظهر الحذق .

وعلى حق من يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريبات اللاتى يتنكرن بأزياء الحرائر ويأوين الى البيوت فى أحيائهن ويخرجن معهن الى الطريق؟ وبماذا يختلف شأن النساء المريبات من شـأن الاماء فى زمن كن فيه متهمات الاعراض ؟ ..

***

ورأى عمر رجلا يتبختر[1] ويمشى مشية قبيحة لا تليق بالرجال فأمره أن يتركها فأبى ، وزعم انه لا يطيق تركها .. فجلده ، وعاد بعد جلده الى التبختر فجلده مرة أخرى . ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين . ان كان الا شيطانا أذهبه الله بك ..

الحرية الشخصية مرة أخرى ! ..

غير أن عمر فى عقوبته هذه انما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال ، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع عليه ، ومن شهدوه وأقروه .. وكلهم يأبى أن يمشى فى الأرض مرحا[2] ويعدها من قبائح الآداب .

ولكننا فى العصر الحديث نقسم النواهى والأوامر الى قسم يحاسب عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المـأثور . وعقاب العرف حق الامة وليس بحق الحكومة والقضاء .

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانونى هنا غير منصـوص عليه وليس النص عليه بمستطـاع ، وربما فتح البـاب للأغراض والأهواء واستبداد الحاكمين اذا استطيع .

وعندنا ان حجة العصر الحديث فى هذا ناهضة لا شك فى صـدقها ، ولكنها ان نهضت فانما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام[3] العرف والقضاء على السواء ...

---

(١) أي يتصنـع الحس أو التكسر في مشيتـه . (٢) : شدة الفرح .

(٣) الراد بالزمام هنا : المقود .

فماذا لو استطاع العرف فى عصرنا أن يحاسب الناس بالحبس والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطىء أو يجوز ؟.. أيأبى الاصلاح وهو آمن عقباه ؟ .. ان أباه فليس صوابه فى ابائه بأكبر من صواب عمر فى تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا الى عدل يعيينا أن نطمئن الى مثله

***

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس ، ونهاه أن يهجو أحدا فضرع[1] اليه الرجل وقال : اذن أموت ويموت عيالى من الجوع ، فأنذره ليقطعن لسانه ! .. ثم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم ، فسلم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر .. ثم عاد اليها بعد موته ..

ان أمين الحساب فى خزائن الدول الحديثة يحار فى أى باب من أبواب المصروفات يضع هـذه الدراهم التى اشترى بها هجاء الحطيئة ، ولكنه لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمنا للثناء والهجاء . فيضعها هنالك وهو أهـدأ ضميرا مما وضع فى الباب كله ، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الاخلاق ، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين ..

ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقـة العمرية التى يستغربها العصريون وهم مخطئون فى اسـتغرابها أو قادرون على النظر اليها كما ينظرون الى المـألوفات ، لو أطلقوا عقولهم من عقال[2] الصيغ والاشكال ونفذوا من ورائها الى الجواهر والأصول ..

كان عمر يعمل فى المدينة فسمع صوت رجل وامرأة فى بيت ، فتسور[3] الحائط فاذا رجل وامرأة عندهما زق[4] خمر ، فقال : يا عدو الله !.. أكنت ترى ان الله يسترك وأنت على معصية ؟.. فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أنا عصيت الله فى واحدة وأنت فى ثلاث ، فالله يقول : « ولا تجسسوا »[5] وأنت تجسست علينا . والله يقول : « وأتوا البيوت من أبوابها »[6] وأنت

(١) أي خضع وقال في مذلة ومسكنة . (٢) : القيد . (٣) : تسلقه .
(٤) وعاء من الجلد غير المنتوف . (٥) من الآية : ١٢ من سورة الحجرات .
(٦) من الآية : ١٨٩ من سورة البقرة .

صعدت من الجدار ونزلت منه . والله يقول : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها[1] » وأنت لم تفعل ذلك .. فقال عمر : هل عندك من خير ان عفوت عنك ؟ .. قال : نعم ، والله لا أعود . فقال : اذهب فقد عفوت عنك

ما أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهى مستريحة البال : هذه بدوات البادية فى حكمها ... تجسس ثم محاجة جدلية ثم نزول عن عقاب . وهى « طريقة تعوزها الاجراءات الرسمية » التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين ! ..

لكن ما القول فى مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث فى اجراءاته الرسمية بغير استثناء ؟ ..

فالدساتير الحرة ، تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار ... والحكومات — مع هذا المنع الدستورى — تضطر الى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات . فاذا اتفق فى حادث من الحوادث انها استباحت سرا يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الاجراءات الرسمية ؟ .. يكون ما كان من عمر فى الحادث الذى رويناه بغير اختلاف .. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ولا تثبت عنده الجريمة الا بدليل مشروع ، والحكومة تضطر هنا الى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء .. وهى فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع . لأنه جعل الاستطلاع سبيلا الى العظة والتوبة . واستغنى عن الاجراءات الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين ! ..

***

ونقترب من حادث تطول فيه الالسنة العصرية أبعد مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها ، ونعنى به كتابه الذى خاطب به النيل يوم قيل له انه أمسك عن الفيضان

وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا الى عمرو بن العاص فى شهر

(١) من الآية : ٢٧ من سورة النور .

بؤونة فأخبروه أن للنيل عندهم سنة[1] قديمة لا يجرى الا بها ، وهى : « انهم اذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا الى جارية بكر بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها فى النيل » .. فلم يجبهم عمرو الى ما سألوه وقال لهم : هذا لا يكون فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة ، وأبيب ، ومسرى ، لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيرا ، ثم رفع عمرو الخبر الى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له : انى بعثت اليك بورقة مع كتابى هذا فألقها فى النيل . وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه : « من عبد الله عمر الى نيل مصر . أما بعد : فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كنت تجرى من قبِل الله فنسأل الله أن يجريك »

قال رواة هذه القصة : ان عمر ألقى بالورقة فى النيل قبل يوم الصليب بشهر وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما بعده من الاعوام .

والرواية على علاتها قابلة للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ .. وقد يكون الواقع منها — ان وقعت — دون ما رواه الرواة بكثير ..

ولكن على هذا صحيحة بحذافيرها فما هى الغضاضة فيها على العلم الحديث ولا نقول على العقل « البدوى » قبل نيف وألف سنة ؟ ..

ان عمر لم يجد أهل مصر معوّلين[2] فى فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة[3] ، فأبى عليهم أن يعولوا عليها ، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحق له أن ينكرها ، ولم يقل لهم ان ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجريه ، بل قال لهم : ان النيل ليجرى بغير تلك السنّة التى استنوها له .. بغير القربان الذى يتقربون به اليه . وليس فى هذه القصة كلها ما يستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله منكر للخرافات . فورقة عمر أقرب الى العقل فى زماننا هذا من الكؤوس

---

(١) أي طريقة ٠ (٢) يقال : عول علي بما شئت : أي استعن بي ٠
(٣) يكرها ٠٠

والقوارير التى تكسو فى الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها ، وأقرب الى العقل من البخور الذى يحترق فى البيع[١] والهياكل جلبا للفيضان واستغاثة بالسماء ..

***

ونحن لا نعرض لهذه الاشتات من طريقة عمر فى حكومته لأنها هنات تلجىء المعجب به الى دفاع وتسويغ[٢]، وليس فى كل هـذه الاشتـات وأشباهها ما يلجىء عمر ولا المعجبين به الى دفاع أو تسويغ

وانما عرضنا لها توسعة لأفق النظر الى العظمة الانسانية فى مختلف أزمانها ، واستخفافا بالغرائب التى تخلقها العادة العارضة لعبادها ، ثم هي لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الانسان وانها لأنفس ما نعتز به فى جميع الأزمان ..

عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير « استئمارة[٣] » مدموغة ينص عليها قانون المرافعات ! .. أو لأنه كان يقضى فيه على غير « الاجراءات العصرية » فى مواجهة الحقوق الشخصية ! .. أو لأنه كان يقضى فيه قضاء يختلف الفقهاء فى عنوانه وفى الرف الذى يضعونه عليه بين رفوف الأضابير[٤] ! ..

يا لها من حمـاقة تخجـل العصر الحديث ، تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات[٥] وادحاض[٦] الخرافات .

---

(١) : الكنائس . (٢) : تجويز . (٣) أي « استمارة » . (٤) : الحزم من الصحف . (٥) : قلة العقل . (٦) : ابطال .

عمر والنبي

يندر أن يظفر الباحثون في طبائع الانسان بمغنم نفسي هو أوفر[1] ثمرة وأنفس[2] محصولا من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهر المختلفة التي تتجلى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدا في النفوس التي نعهدها ، ومما يتعذر جدا حتى في نفوس الافذاذ من العظماء ..

بيد أن المغنم الاكبر في هذه الدراسة انما هو مغنم علم الاخلاق لأن علم الأخلاق أحوج الى الاستدلال بالظواهر الطبيعية ، وأفقر الى الاسناد والدعائم التي تقيمها أمثال هذه الدراسات

فكل نفس ــ عظمت أو صغرت ــ فدراستها مغنم لعلم النفس لاشك فيه ، كائنة ما كانت النتيجة التي تتأدى اليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها ..

لكن الوصول الى نتائج علم الاخلاق هو الصعب الجديد الذى لن يزال اليوم وبعد اليوم صعبا وجديدا الى أمد[3] بعيد

فالمفروض أن نتائج علم الاخلاق « فكرية تكليفية » يستنبطها الفكر الذى يختلف في صوابه كما يختلف في خطئه ، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الانسان رياضته على الأمر الغريب « الاجنبي » عن نوازع الطباع .

فاذا اهتدينا الى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التي هي أقرب الى الآمال المنشودة[4] منها الى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير ..

---

(١) أكثر . (٢) أغلى . (٣) زمن . (٤) نشد ضالته : أي طلبها .

واذا ظفرنا بحقيقة نفسيــة ، هى فى الوقت نفســه حقيقــة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذى قلما ينال .

ونفس عمر بن الخطاب هى تلك النفس التى تدعم علم الاخلاق من الاســاس ، وهى ذلك الصرح[1] الشامخ الذى تنظر الى أســاسه فكأننا تسلقنا النظر الى ذروته العليا ، لأنه قرب بين الآمال والقواعــد أوجز تقريب ، اذ هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الاصلاح هى فى نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات

فمنها فيما أسلفنــاه:ان القوة لا تناقض العدل فى طبيعة الانسان بل يكون العدل هو القوة التى تخيف فيخافها الظالمون

ومنها فيما نحن بصدده الآن ، أن القوة لا تناقض الاعجاب ، على خلاف ما يتبادر الى الأكثرين

فان الاكثرين يحسبون أن الرجل الذى يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد ، وأن البطل الذى يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة فى غيره ، وأن التطلع الى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر الى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدرا وأحق بالاعجاب ..

لكن البطل الذى ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع ، لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة ... ويستحق الاعجاب غاية استحقاقه ، ثم يُخيَّل اليك من فرط ولائه لمن يفوقونه انه خُلق للاعجاب بغيره ، ولم يُخلق ليكون هو موضع اعجاب .

فعمــر كان يحب محمــدا حب اعجاب ، ويؤمن به ايمان اعجاب ، ويستصغر نفسه اذا نظر الى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة فى الدعة وحسن المعاملة لجميع

(١) : القصر ، وكل بناء عال .

صحبه وتابعيه ، وكان يعاملهم جميعا معاملة الاخوان والزملاء فلا يغمرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد ، فلو جاز أن ينسى أحد فارقا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبى هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته ، ولو نسيانا الى حين .

الا أن عمر « العظيم » سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة « يا أخى » فظل يذكرها مدى الحياة -

استأذنه فى العمرة فأذن له وقال : « يا أخى لا تنسنا من دعائك » .. فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها : « ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس لقوله يا أخى ! .. »

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخى الناس كبارا وصغارا وان الناس كبارا وصغارا لا ينسون ما فى مؤاخاته من فخر وغبطة[١] وما بينهم وبينه من فارق بعيد ..

وشهادة لعظمة عمر انه أهل لذلك الاخاء ، لأنه يدرك ما فيه من عظمة ، ويشعر بما فيه من رضوان .

وما يدريك ما عمر الذى يشيع فى قلبه الفرح بهذا الاخاء ؟ ..

ليس بالرجل الذى يحب تواضع المرائين ، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يهاب مخلوقا بغير الحق ، وبغير الاعجاب

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة ، وحجته الاولى فى ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع ، وانه كما قال : « لو علمت ان أحدا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنقى أحب الىَّ من أن أليه »

نعم ، هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم ، وهو عمر الذى يستصغر نفسه اذا نظر الى المثل الأعلى والقدوة الفضلى ، وهو اذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار ..

لقد كان يسمع ، وهو خليفة ، يقول كالساخر وما هو بساخر : « بخ بخ[٢] يا ابن الخطاب . أصبحت أمير المؤمنين ! .. »

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه ؟ ..

(١) من معاني الغبطة : المسرة . (٢) : كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء ، وتكرر للمبالغة ، واذا وصلت مكررة كسرت الخاء : بخٍ بخٍ .

كلا .. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر الى المثل الأعلى .. يعرف الاعجاب بما فوقه . يعرف محمدا ويعرف أن اللحاق به أمل لا يطال . يعرف الاعجاب بطلا معجبا ببطل ، ويشاء فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه .

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره ، ويتواضع لأنه يشعر بضعة[1] فيه

ان الصغير لا حاجة به الى تصاغر لأنه صغير ، وربما كانت حاجته الكبرى الى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء[2] وتزويق[3] الطلاء ، والتخايل بالمسكن والكساء .

وانما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح[4] ما يخامره[5] من اعتداد بنفسه ، ومحال أن تمتلىء نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها ، فليس ذلك من معهود الطباع فى حى من الأحياء ، ولا نقصر القول على الانسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ؛ لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون وهو يغالب عزة الفتح داخلا الى الشام دخول المنتصر ، وقيل له فى ذلك فصاح بهم : خلوا سبيل جملى ! .. انما الأمر من ها هنا ، وأشار الى السماء

وكلما اعتز مَن حوله ، من خاصة أهله وخلصاء رعاياه ، بما يرونه فيه من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر فى أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية ، فقال لأصحابه يوما وقد مر ببعض الشعاب على مقربة من مكة : « لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرعى ابل الخطاب ، وكان غليظا يتعبنى ، ثم أصبحت وليس فوقى أحد ! »

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له : « ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ » .. قال : « ان أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها »

وانظر هنا الى كلمة « أمير المؤمنين » يقولها الابن ، ثم انظر الى كلمة « أباك » يقولها امير المؤمنين

(١) وضع الرجل ضيعة : أي صار وضيعا ، والوضيع : الدنيء من الناس . (٢) : المنظر . (٣) أي تحسين . (٤) : جذبها باللجام لتقف . (٥) أي يخالطه .

ومن قبيل هــذا ركوعه لله ذليلا خاشعا يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله ، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان فى شعاب مكة فيستمع لما أمر .

وليس هذا وأشباهه تصاغرا يكشف الصغر ، انما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد

***

بل يشاء بأس هــذا البطل أن تتمادى فيه الصفات الى غايتها وهى متناقضة فى النظرة الأولى ، فاذا بهذا التمادى يردها الى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف .

فمما رأيناه أنه عادل يفوق العدول ، وقوى يفوق الأقوياء .. فاذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان .

ومما رأيناه انه بطل تعجب بطولته الاصدقاء والخصوم ، ثم هو فى اعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعى الاعجاب

وبقى من موافقاته النادرة أن الاعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ، ولا يهدد « الشخصية » بالفناء والزوال ، فيعجب بمن يفوقه غاية الاعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران .

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من اعجاب عمر

ولم يكن أحد مستقلا برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر . فهو آية الآيات على أن فضيلة الاعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبى عليه السلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال .

فمحمد فى بيته وهو صاحبه ، ومحمد فى شريعته وهو صاحبها ، كان يستمع الى عمر حين يقترح ، وحين يستنزل الأحكام ، وحين يستدعى الوحى فى أمر من الأمور .

فكان يشير على النبى عليه الســلام أن يحجب نساءه ، ويبلغ ذلك

احدى أمهات المسلمين زينب فتقول له : انك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا فى بيوتنا ! .. وتخرج احداهن سودة وهى تحسب أن أحدا لايعرفها لاستتارها بالظــلام فيعرفها بطول قامتها ويناديها : « عرفتك يا سودة ! .. » ليؤكد ضرورة الحجاب . فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن الا من وراء حجاب !!!

***

ولما هم النبى عليه السلام بالصلاة علي عبد الله بن أبى كبير المنافقين يوم وفاته ، تحوّل عمر حتى قام فى صدره ، وأخذ يذكّره مساوىء عبد الله وأقاويله فى النكاية بالاسلام وحكم القرآن فيه وفى أمثاله أن « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »[1] وألح فى التذكير حتى أكثر على النبى عليه السلام وهو يتبسم ويقول له : « أخر عنى يا عمر ، لو أعلم أنى ان زدت على السبعين غفر له زدت » . ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه ... ثم ما كان الا يسيرا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره[2] »

وروى أبو هريرة عن النبى عليه السلام أنه أنفــذه الى رهــط من المسلمين فقال له : « اذهب اليهم فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فبَشّره بالجنة » فكان أول من لقى عمر . فصده وعاد به الى النبى يسأله : « يارسول الله بأبى أنت وأمى ، أبعثت أبا هريرة من لقى يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة ؟ .. قال النبى : نعم .. فلم يتريث عمر أن قال : فلا تفعل يا رسول الله ! .. فانى أخشى أن يتكل الناس عليها . فخلهم يعملون » فوافقه عليه السلام وقال : « فخلهم ! »

وفى التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصــل الى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد فى حكمه ، فما زال يســأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف . وهو هو الذى كانت الخمر شهوة له فى الجاهلية يحبها ويكثر منها . ولو شاء لالتمس الرخصــة فيها ولم

---

(١) الآية : ٨٠ من سورة التوبة . (٢) الآية : ٨٤ من سورة التوبة .

يكثر من السؤال عن تحريمها ، ففى سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأى والاخلاص فى المراجعة ، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذى لا هوادة فيه

وجرى صلح الحديبية الذى كان ظاهر الغبن[1] فيه على المسلمين وظاهر الفوز فيه للمشركين . فيستطيع قارىء التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين . فقد غمّه هذا الصلح غما شديدا وذهب الى أبى بكر يراجعه ويناجيه : علام نعطى الدنية فى ديننا ؟.. فأجابه أبو بكر : يا عمر الزم غرزك (أى رحلك) فانى أشهد أنه رسول الله . وردد عمر انه ليشهد أنه رسول الله ثم ذهب فى بعض الروايات اليه عليه السلام فسأله : ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل ؟ .. أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ ورسول الله يجيبه : بلى ! .. فيعود فيسأل : علام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ ..

فلما ناداه : ابن الخطاب ! .. انى رسول الله ! .. ولن يضيعنى الله أبدا ، ثم علم أنه الفتح المنتظر ، ثاب الى الرضى وكفّ عن السؤال

والمحنة على ما هى عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن اليه سورة[2] طبعه ، فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد اليهم قريش أحدا ممن يجيئون اليها ، وان يكتب النبى اسمه فى عقد الصلح فلا يكتب فيه انه رسول الله ، وهذه محنة وردت على حمية عمر بالوارد الجلل الذى ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف . ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت[3] الغاشية[4] كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه . فبينما هم يكتبون اذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد قد انفلت الى رسول الله . فقام اليه سهيل — وكان وكيل المشركين فى عقد الصلح — فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به الى قريش ، وأبوجندل يصيح : يا معشر المسلمين ، أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ .. فواساه النبى ودعاه الى الصبر

---

(١) غبنه في البيع : حدعه • (٢) انسورة : الحدة • (٣) ادلهم الظلام : كثف واسود (٤) من معاني الغاشية : القيامة والنار •

والاحتساب . ووثب عمر اليه يمشى الى جنبه ويدنى منه قائم السيف ويقول له : اصبر يا أبا جندل فانما هم المشركون . وانما دم أحدهم دم كلب ، ورجا — كما قال بعد ذلك — أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه ... قال : ولكن الرجل ضن بأبيه ونفذت القضية .

فالمحنة أعظم مما تطبقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية . ولاياما سكنت نفسه واطمأنت الى حكمة سيده ومعلمه وهاديه . ولا سيما حين ناداه : ابن الخطاب ! .. انى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا ..

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التى لا يحيد عنها ولا يأباها النبى عليه السلام ، وكثيرا ما جاراه واستحب ما أشار به وعارض فيه . فلا جرم يراجع النبى فى كل عمل أو رأى لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة وما قلقت خواطره حتى تثوب الى قرار(١)

اللهم الا أن تستعصى المراجعة ويعظم الخطر ، فهناك تأتى الخليفة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضطلع بجلائل المهمات . فلما دخل النبى عليه السلام فى غمرة الموت ، ودعا بطرس(٣) يملى على المسلمين كتابا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير ، وقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا . ومال النبى الى رأيه فلم يعد الى طلب الطرس واملاء الكتاب . ولو قد علم النبى أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين

وكانت هذه سنته فى حياة النبى وبعد موته فى كل عمل لا يستريح اليه ، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيا وميتا فى مسألة ليست من مسائل الوحى الذى فيه فصل الخطاب ، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض بها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع .

كذلك صنع فى قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش الى البلقاء وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام . فقد ولاه النبى القيادة ومات عليه السلام وهو فى أول الطريق . فقال أسامة لعمر : ارجع الى خليفة رسول

---

(١) أي استقرار . (٢) : الشدة (٣) : الصحيفة .

الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس ، فان معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل [١] رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون » وقالت الأنصار : فان أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة »

وغضب أبو بكر وكان جالسا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! .. استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه ؟ ..

فوجبت الطاعة ، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذى لا رجعة فيه ، وعمر جندى متى صرح له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له الا أن يطيع .

وختمت سنة النبى بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعا اليها من عمر ، ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله . الا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل اذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية ، فخالف أبا بكر رضى الله عنه فى اقطاعه الارض لعيينة بن حصن والاقرع بن حابس وقال لهما : ان رسول الله كان يتألفكما على الاسلام وهو يومئذ ذليل ، وان الله قد أعز الاسلام .. فاذهبا فاجهدا جهدكما ... »

فقد علم سنة النبى مع « المؤلفة قلوبهم » ولم يغفل عن سببها وموقتها فهى سنة تطاع لحكمتها ولا توضع فى غير موضعها ، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التى ألفوها من صاحب الرسالة ، اذا تغيرت الحكمة واختلفت العلة ، واستغنى الاسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والانفال[٢].

ولمثل هذا السبب — ولا شك — نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيا عنهما كل النهى فى حياة النبى عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها ، وكان منهم

---

(١) من معاني الثقل : كل شيء نفيس مصون . (٢) الانفال : الغنائم .

من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه،فنهى عنهما عمر فى أيام خلافته وقال : « متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما » .

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لايدعونا المقام هنا الى احصائها واستيفائها ، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلى[1] له مآتيها ومراميها[2]، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه ، وحسب الاسلام فخرا أن يؤمن به الانسان ايمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر . فالايمان فى أقصاه لا يعطل الرأى المستقل فى أقصاه ، وكل صفة فى عمر فهى صفة مستقصية لا وسط فيها . اذا آمن فذلك غاية الايمان ، واذا استقل فذلك غاية الاستقلال ، واذا أعجب فذلك غاية الاعجاب ... وان الظفر الذى يظفره علم الاخلاق من دراسته لمبعثه هذا الشاهد من الصفات التى تتناقض فى ظاهرها وهى على عهدنا بها فى عمر ، متفقات متساندات لا تستغنى واحدة منها عن سائرها ..

***

فان لم يكن فى دراسة عمر الا أن نرى رجلا عادلا بالغا فى عدله ، قويا بالغا فى قوته ، معجبا بالبطولة بالغا فى اعجابه ، مستقلا بالرأى بالغا فى استقلاله ، لكفى بذلك ظفرا لعلم الاخلاق ، وكفى بسيرة واحدة ان تقرر لنا هذه الحقائق التى تستكثر على عشرات السير ، وهى ان القوة لا تناقض العدل ، وان البطولة لا تناقض الاعجاب ، وان الاعجاب لايناقض الاستقلال ، وتلك الحقائق أثبت فى عمر من معارف بدنه وملامح سيماه ..

وكانت مودة النبى لعمر كمودة عمر للنبى شرفا له من جانبيه ، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه .

كانت نظرة محمد اليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره عارفيه ، ولم يكن رضاه عن

(١) اي تظهر . (٢) اي مصادرها او أسبابها والغاية منها .

مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته .. لأنه كان ينظر الى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للاسـلام خيرا منها ، بل يدخر للاسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته ، ويسوسه فى رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذى يعينه ويستعين بغيرته ، ويروضـه رياضة الامام لمريده الذى يهيئه للامامة بعد حين ؛ وبشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيعا يثبت فيه حسن الرأى ويستزيده منه .

ولا يتـأتى أن ينظـر النبى الملهم الى عمر دون أن يرى فيـه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهى الالهام الدينى والبصيرة الروحية . فكان عليه السلام يقول فيه : « قد كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فان يكن فى أمتى أحد فعمر »

ومن قوله فى بعض ما نقل عنه عليه السلام : « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » وقوله : « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ... وقوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب ؛ وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

وتلك لمحات نبى ملهم الى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء ... وان فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذا الى الضمير ، من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادى ضمائر ، وفاتح عهد روحى فى تاريخ الانسان

ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان محمـدا قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه . وراقبه قبل اسـلامه وبعد اسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه ، الا أنه لم يحمد منه شيئا كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل ، فهى الخصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها ، وان كان محمد لأرحب صدرا وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل ، فلا بد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لابد منه بين المعلم والمريد ، وبين الامام والمـأموم ..

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريع

ذلك الشاعر الذى كان ينشد النبى بعض الاماديح فاستنصته[١] مرتين اذ دخل عليهما عمر والشاعر لايعرفه . فصاح : وا ثكلاه ! .. من هذا الذى أسكت له عند النبى ؟ .. فقال النبى : « هذا عمر ... هذا رجل لا يحب الباطل » ..

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبى مرات ، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمدا كان يقبل الباطل الذى يأباه عمر . أو كان يهوى اللغو الذى يعرض عمر عن سماعه ... وانما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه فى مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل ويعلم أن الامام يطيق ما لا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه ، وان محمدا أراد أن يعوّد الناس مهابة عمر ، وأن يستبقى لعمر سورته فى محاربة الضلال ، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغى أن تراض عليه ..

وهنا يتجلى مذهبـان فى كراهة الباطل ، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد :

فعمر كان ينكر الباطل انكار المحارب ويرفع له سلاحه حيثما رآه ، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه ... لأنه يعلم ضروبا من الباطل وضروبا من الانكار

ومن الانكار أحيانا أن يتجاوز عنه ، وأن يشفق عليه اشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير ، وأن يتربص[٢] به الأيام حتى يزول وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب ، وهو بذلك قد أعد له ضروبا[٣] من الانكار ، وكان أكمل عدة له من الراصدين[٤] له فى ميدان واحد

أنقول: ان الفارق بين محمد وعمر فى هذا هو الفارق بين نبى وخليفة ! ؟

ان قلنا ذلك فقد قلنا حقا جامعا لا شـبهة فيه ، ولكنا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء ... فمحمد نبى وعمر خليفة ما فى ذلك خلاف .. ولا بد بينهما من فارق ما فى ذلك خبر جديد . فما هو الفارق الذى لا يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟ ..

(١) أي طلب منه أن ينصت ويسكت . (٢) : الانتظار . (٣) الضرب هنا بمعنى : الصنف . (٤) الراصد للشيء : الراقب له .

الفارق فيما نرى هو الفارق بين انسان عظيم ورجل عظيم

فالنبى لايكون رجلا عظيما وكفى . بل لابد أن يكون انسانا عظيما فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التى تعم الرجولة والانوثة والاقوياء والضعفاء ، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم . فيكون عارفا بها وان لم يكن متصفا بها ، قادرا على علاجها وان لم يكن معرضا لأدوائها[١] ، شاملا لها بعطفه وان كان ينكرها بفكره وروحه . لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الانداد[٢] ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شىء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها آفاقا كآفاقها ، هى آفاق الروح .

ومن الصغائر الآدمية التى كثيرا ما يطيقها الانسان العظيم ، ويبرم بها الرجل العظيم كل غرور صبيانى يحيك[٣] بنفوس النـاس ، وهو ضروب ليست لها نهاية . غرور الشاعر بأماديحه ، وغرور الفنان بصنعته ، وغرور المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بتراثه ، وغرور الأحمق بخيلائه ، وغرور الجاهل بعلمه ... وفى كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليما وهدى كما تجرى عرضا غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه فى هـذه الضروب شتى الفوائد ، كما ظهر من سياسته فى أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبى عليه السلام بقيد الحياة

فقد أشار على النبى بقتل عبد الله بن أبى بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين . فأبى النبى وترك عبد الله يمضى فى شـطـطه[٤] حتى أنكره قومه وعنفوه ، وتصدى له من صلبه من يريد له الموت ، فقال النبى لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ .. أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى

وكان عمر يستكثر صـلاة النبى على عبـد الله بن أبى بعـد موته

---

(١) أي لامراضها • (٢) جمع ند ، وهو : المثل والنظير • (٣) حـاك الشيء في صدري : رسخ • (٤) : مجاوزة القدر في كل شيء •

ويستعظم أن يهب له قميصه وأن يكفنه أهله فى ذلك القميص ، وكان النبى يرعى فى ذلك حق ابنه الذى أخلص فى اسلامه وبلغ من اخلاصه انه اقترح على النبى قتل أبيه ، وسئل النبى كما جاء فى بعض الروايات : لم وجهت اليه بقميصك وهو كافر ؟ .. فقال : ان قميصى لن يغنى عنه من الله شيئا ، واننى اؤمل من الله أن يدخل فى الاسلام كثيرا بهذا السبب ! .. فقيل: ان ألفا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول ، وخرجت الصحابة وعمر فى طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوى الحكيم .

وشبيه بدرس عبد الله بن أبى درس الخطيب المفوه: سهيل بن عمرو الذى أسر فى بدر فأشار عمر على النبى بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام ، اذ كان مشقوق الشفة السفلى ... فأبى النبى « عسى أن يقوم مقاما لا تذمه » فما زال وما زال عمر حتى رآه فى حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام .

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية ، فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشا خسرت ولم تربح بالصلح الذى عارضوه ، وان المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله . وانهم زادوا عددا وزادوا حلفاء من غير المسلمين ، وان الذين رفضهم النبى من تابعيه عملا بالصلح لم ينفعوا قريشا بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال . وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال : « ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا » .

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها فى خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة : وذلك حين بلغوه فتح « تستر » وذكروا له أن رجلا ارتد عن الاسلام فقتلوه ، فلامهم على قتله وقال لهم : « هلا أدخلتموه بيتا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه ؟ .. اللهم انى لم أشهد ولم آمر ولم أرض اذ بلغنى » .

فهذا عمر تلميذ محمد فى الاسلام ، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول

ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين ، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس ، ومعنى ذلك جميعه أن محمدا أعظم من عمر ، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم .

***

ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان النبى عليه السلام كان يعلم ما يحتاج اليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس . فعمر لم يعوزه قط درس قوى يعلمه حب الحق وكراهة البـاطل لأنها خليقة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة[1] بطبعه ، ولكنه قد يعوزه حينا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولا سيما فى فوعة[2] الشباب ، وألا يأسى على الحق ان تفوته معركة زائلة فى صراعه الدائم مع خصمه القديم ، فهى معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة . ولا تزال سجالا منظورة العواقب فى ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء ! ..

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء فى معظم الأحايين ، وهو أن يذكروا أن الناس جميعا ليسوا بأقوياء ، وأن الناس جميعا ليسوا بعمر بن الخطاب . فاذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة ، فقد يشق ذلك على آخرين ، واذا استطاع أن يتصدى للموت فى كل لحظة فليس ذلك فى وسع كل مسلم ، وقلما يستحضر الاقوياء هذه الحقيقة الا بعد تذكير وروية . أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلا لما هم أهل له وكفؤا لما هم قادرون عليه ، ولهم من الشرف فى نسيان هـذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف فى تذكارها ودوام استحضارها .

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة فى عهد النبى عليه السلام ، فكان يفضى اليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره ، مطمئنا الى مرجع الرأى ومقطع القول بين يديه ، شاعرا بواجبه الأول أحسن شعور فى هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذى لا يضن بشىء من عونه فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه اذا شاء ، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر

(١) أي موصولة . (٢) أي أول الشباب .

أن يطلب الكثير ..

مثل عمر فى هذه المواقف مثل صاحب المال: تنزل الضائقة الحازبة[١] فيبسط ما عنده من المال جميعا ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد ، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين ، وهو الواجب الذى يليق بعمر فى صحبة الرسول ..

ولا يحسبن قارىء اننا نعتسف[٢] التأويل والتخريج لننظر الى عمر فى أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه . فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة فى عهد رسول الله وتفسيره ، كما قال غير مرة انه كان سيفا للرسول ان شاء ضرب به وان شاء أغمده فى قرابه ، وانه كان جلوازه[٣] القائم بين يديه ، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيرا أو قليلا من بأسه حتى يؤمر بامساكه ، ويرد الى الهوادة واللين

بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه فى شدة عمر ولينه ، فكلما تحدثوا اليه بغلظته قال : انما يشتد لأنه يرانى لينا ، ولا غلظة على الضعفاء فيه .

فكان جميلا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة ، وأن يحتاج فيها الى تذكير واستحضار ، وكان أفضل واجبيه لا مراء أن يعرض البأس حتى يؤبى[٤]، ثم يثوب الى اللين ولا جناح عليه .

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليقا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله اليها ولم يجعل باله الى تقديم ما عنده « والجود بأقصى جوده » فى انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام ، ولولا استعداده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدرة ولا أغنت معه المثل والتجارب

ومهما يكن من حاجته الى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة الى تلك الدروس ، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين . فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام الا

(١) حزبه الامر : نابه واشتد عليه • (٢) العسف : الاخذ على غير الطريق • (٣) الجلواز : الشرطي • (٤) :يرفض •

كان مفتقرا الى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه ، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقارا الى ذلك من رفاقه وتابعيه وان اختلف ما يعوزهم من مواضع الهدى ، والتهذيب ، والتقويم .

وواضح مع هذا أن دعوة النبى عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس فى مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر فى ذلك المقام ، فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر اليه رضى الله عنه فلباه ، وتفصيل ذلك كما جاء فى رواية البخارى أن النبى اشتد عليه المرض فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قالت عائشة رضى الله عنها : ان أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام فى مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء .. فلو أمرت عمر ؟ .. فعاد النبى يقول : مروا أبا بكر فليصل ! .. فعاودته ، فقال مرة أخرى : مروه فليصل .. انكن صواحب يوسف ! » ..

***

وحدث عبد الله بن زمعة أن بلالا دعا النبى الى الصلاة فقال : مروا من يصلى بالناس « فخرجت فاذا عمر فى الناس ، وكان أبو بكر غائبا . فقلت : قم يا عمر فصل بالناس . فقام ، فلما كبر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، وكان عمر رجلا مجهرا[١]. فقال : فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون . فبعث الى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس »

قال عبد الله بن زمعة ان عمر لقينى فقال لى : ويحك ! .. ماذا صنعت بى يا ابن أبى زمعة ؟ .. والله ما ظننت حين أمرتنى الا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك . ولولا ذلك ما صليت بالناس ... قلت : والله ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ! .. ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة .

والواضح من كلتا الروايتين أن النبى عليه السلام قصد الى اختيار أبى بكر للقيام فى مقامه من امامة المسلمين وضمن ذلك ما ضمنه من معنى

(١) مجهرا : أي عالي الصوت .

الاستخلاف والتقديم .

فعلى أى وجه نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصــد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق ؟ .. وعلى أى وجه تساءل النبى عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال : « يأبى الله ذلك والمسلمون » ؟

اننا لا نفهم ذلك الا على وجه واحد يجمل بمحمد ويجمل بأبى بكر ويجمل بعمر ويجمل بالمسلمين :

فمن البديه أن ينظر النبى فى اختيار خليفته الى جميع الاعتبارات التى تدخل فى الحسبان ، ولا يقنع بالنظر الى اعتبار واحد

فاذا نظر النبى الى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبى بكر ولا يقع عليه ؟ ..

ان اختيار أبى بكر يجمع للاسلام فضائل الرجلين ، ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين . ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق الى الاسلام وثانى اثنين فى الغار ، وأقمن[1] أن تبطل حوله منافسة الأنداد ، وله الرأى الصائب والشجاعة المأثورة والايمان الثابت والمسالمة المرضية والحق الظاهر فى الايثار كلما قوبل بغيره من الحقوق

ومع هذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه فى الموقف الذى كان منظورا بعد موت النبى عليه السلام ، وهو موقف رضى ومسالمة بين المسلمين يغنيان اذا جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون . فاذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه[2] أبو بكر فى رفقه وهوادته فذلك اذن موطن الاجماع ، واذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواه فصلابتهم أقمن اذن أن تنعطف بلينه الى الاجماع الذى لا شذوذ فيه ٠

فالنبى عليه الســلام قد حسب للعواقب كل حســاب ، وقد نظر فى استخلافه الى كل اعتبــار ، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة

---

(١) أي أجدر ٠ (٢) : القاه ٠

ومما نظر اليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك ، فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر ، واذا انتفع الاسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج اليها فسينتفع الاسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه ، يوم تغنى الصلابة فى مدافعة الأعداء ما أغناه الرفق فى تأليف الاوداء[1] .

ولا يحسبن قارىء هنا أيضا أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان ، فالواقع المنصوص عليه ان الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظورا اليه قبل أن ينكشف عنه الغيب . وقد نظر اليه النبى عليه السلام فقال : « أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب[2] فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا[3] أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت[4] غربا[5] فلم أر عبقريا يفرى فريه[6] حتى روى النـاس وضربوا بعطن » [7] . ولم يخف معنى هـذه الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد ، وهو الذى أشار اليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف النزع بقصر المدة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن « الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته »

***

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هـذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن فى عصرنا . فلهذه المسائل فى جميع العصور نواحيها الموضعيـة ونواحيها الخاصـة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين . ومتى كانت هذه التقديرات التى فصلت فى مسـألة الترشيح للخلافة ، فأى غضاضة فيها على عمر ..؟ انها شىء لا يتناوله وحده وليس لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه ، وان الذى حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديما للصالح فى تلك الأحوال ، أو هو تأخـير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة ، فأبو بكر كفؤ للخلافة وعمر

---

(١) : المحبين • (٢) أي بئر • (٣) : الدلو المملوء • (٤) انقلبت عـن حالها • (٥) : الدلو العظيمة ، وعرق في العين يسقي لا ينقطع • (٦) : أتى بالعجب • (٧) . المكان الذي تبرك فيه الابل حول الماء •

كفؤ للخلافة ، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين

وانك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة فى رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر ... وذلك انه عليه السلام لم يبرم[١] قط أمرا فيه غضاضة على أحد من أصحابه ، ولا سيما فى مسألة الاستخلاف أو التقديم للامامة والصلاة بالناس ، فكل الذى حدث فيها فهو الذى يجمل بالنبى من تقدير وتدبير ، ويجمل بصاحبيه من ايثار وتوقير ، ويجمل بالاسلام من تمكين وتعمير ، وانتفاع بعمل كل عامل واقتدار كل قدير .

***

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبى وعمر، لايسكت عنه لكثرة ما قيل فيه ، فضلا عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهما لها واستقصاء لمداها واطلاعا على طريقة عمر فى الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت[٢] بين يديه ، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت وبين عمر وابنى عم النبى الكبيرين على وابن عباس بعد انتقال النبى الى الرفيق الأعلى ...

فالذين أولعوا فى التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيرا فى هذه العلاقة ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم ويناجزهم مناجزة[٣] لعصبية فيه عليهم . ولكنهم لايذكرون من الوقائع ما يعزز[٤] شبهة أو يرجح بظن فى هذه الوجهة . وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فانما تخلص بنا الى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه . وهى الوفاء المحض[٥] لذكرى النبى عليه السلام فى آله وخاصة بيته ، والأمانة المحض لمصلحة العرب والاسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة ، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبى النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة . وكان لهم التفضيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما

---

(١) : أحكمه · (٢) شجر بين القوم : اختلف الامر بينهم ، واشتجر القوم : تنازعوا · (٣) : المقاتلة · (٤) أي يقوى · (٥) : الخالص ·

كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة ، وفضلهم عمر على أقرب الناس اليه فى اللقاء والحفاوة[١] ، فكان فى بعض الأيام ينتظر الحسين بن على رضى الله عنه فذهب اليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر فى الطريق فسأله : من أين جئت ؟ .. قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لى . فرجع الحسين ولم يذهب اليه ... ثم لقيه عمر معاتبا وسأله : ما منعك يا حسين أن تأتينى ؟ .. قال : قد أتيتك ولكن أخبرنى عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت ... فعزّ ذلك على عمر وقال له : وأنت عندى مثله ؟ .. وأنت عندى مثله ؟ .. وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟ ..

***

وكسا عمر أصحاب النبى فلم يكن فى الاكسية ما يصلح للحسن والحسين رضى الله عنهما . فبعث الى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها : الآن طابت نفسى ! ..

وسافر الى الشام فاستخلف عليا رضى الله عنه على المدينة وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع اليه فى قضائه متحرجا من دعوته اليه حين يحتاج الى سؤاله : استفتاه بعضهم فى مجلسه فقال : اتبعونى ، وأخذهم الى على فذكر له المسألة فقال على : الا أرسلت الىّ ؟.. قال عمر : أنا أحق باتيانك ..

وكذلك كان يستفتى ابن عباس فى الدين والأدب ولا يلقاه باحثا مسترسلا فى الحديث الا قال له معجبا متبسطا : غص غواص ! .. وقلما سئل فى أمر وابن عباس حاضر الا قال يشير اليه : عليكم بالخبير بها

ولم يحجم[٢] عن توليتهم الولايات الا كما أحجم عن تولية الجلة[٣] من الصحابة ورؤوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه . وفى ذلك يقول لابن عباس . انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم ... والله ما أدرى أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ؟ .. أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب ؟

---

(١) حفى ، حفاوة ، فهو حفي : أي بالغ من اكرامه ، والطافه ، والعناية بأمره . (٢) أي يكف ويمتنع . (٣) قوم جلة : أي سادة عظماء ذوو أخطار .

أما مسألة الخلافة فالذى يزعمه فيها الذين يخوضون فى القضايا والمخاصمات أن عمر رضى الله عنه تعمد أن يحول بين على والخلافة بصرفه النبى عن كتابة الكتاب الذى أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده ، ويزعمون: انه هو قد حال بين على والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته فى دعوة على الى مبايعة أبى بكر كما جاء فى بعض الروايات التى ترجح صحتها ، وخلاصتها: « ان عمر أتى منزل على وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن الى البيعة ، فخرج الزبير مصلتا بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه ... » أو قال لهما فى رواية أخرى : « والله لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان »

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة ، وعدّوها من اصرار عمر على الاجحاف بعلى واقصاء بنى هاشم عن الخلافة .

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار على للخلافة بعده ، فهو قول من السخف بحيث يسىء الى كل ذى شأن فى هذه المسألة ، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى فى المسألة مثل رأيه ..

فالنبى عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة على أو خلافة غيره . لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج الى أكثر من كلمة تقال ، أو اشارة كالاشارة التى فهم المسلمون منها ايثار أبى بكر بالتقديم ، وهى اشارته اليه أن يصلى بالناس

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ، ولم يكن بين على وبين لقائه حائل ، وكانت السيدة فاطمة زوج على عنده الى أن فاضت[1] نفسه الشريفة . فلو شاء لدعا به وعهد اليه ...

وفضلا عن هذا السكوت الذى لا اكراه فيه نرجع الى كل سابقة من سنن النبى فى تولية الولاة فنرى انه كان يجنب « آله الولاية ويمنع

(١) فاضت نفسه : خرجت روحه .

وراثة الأنبياء » وهذه السنة مع هذا السكوت لايدلان على أن محمدا صلوات الله علبه أراد خلافة على فحيل بينه وبين الجهر بما أراد ..

ولم يعتمد عمر على الشورى فى اختيار الخليفة بعده وله مندوحة[١] عنها . فقد رأى من أصحابه ــ كما قال ــ حرصا سيئا وخلافا لايحسمه[٢] رأى واحد ، وكانت حيرته عظيمة ، بين الاستخلاف وترك الاستخلاف ، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة : ماذا تقول لله عز وجل اذا لقيته ولم تستخلف على عباده ، أصابته كآبة .. ثم نكّس رأسه طويلا ثم رفع رأسه وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين . وأى ذلك أفعل فقد سن لى . ان لم أستخلف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وان استخلفت فقد استخلف أبو بكر » .

❋❋❋

واختار للشورى فى أمر الخلافة أناسا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار ، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم هو، لرشحهم لها كل مختار .

ولم يكن الفكاك[٣] من التبعة هو الذى أوحى اليه أن ينفض يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره .. فعُمَر لاينجو بنفسه ليوقع أحدا فيما يحاول النجاة منه ، ولكنه قدر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الاجماع وينحسم بترجيحه النزاع . فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الاقلون ويردعها الاكثرون .

وكان مع هذا يود لو اجتمع الرأى على اختيار علىّ بعد المشاورة ، فقال لابنه : لو ولوها الاجلح « أى المنحسر الشعر » لسلك بهم الطريق فسأله ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم عليا ؟ .. قال أكره أن أحملها حيا وميتا .

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبى ، والاستخلاف بعد عمر، فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين على وغيره ....

---

(١) أي سعة · (٢) أي بقطعه · (٣) أي التخلص ·

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبة[1] دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها ، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت .

كان يحجر[2] على وجوه[3] قريش أن يخرجوا الى البلدان الا باذن والى أجل ، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن فى النـاس : « ان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم ، الا ان فى قريش من يضمر الفرقة ويروم[4] خلع الربقة[5] ، أما وابن الخطاب حى فلا . إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد »

وكان يزجر قومه بنى عدى كلما أحس منهم الطمع فى خلافتـه لأنه واحد منهم ، فيصارحهم قائلا : « بخ بخ بنى عدى ! .. أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أهب حسناتى لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وأن أطبق عليكم الدفتر ... » أى وان كتبتم فى الاعطية آخر الناس . وهو الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذى زين له استخلافه : لا أرب[6] لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد » ..

***

وجمع عليا وعثمان فى مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت الى على فقال : « اتق الله يا على ان وليت شيئا ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين » ..

والتفت الى عثمان فقال : « اتق الله ان وليت شيئـا فلا تحملن بنى معيط على رقاب المسلمين » أو قال : بنى أمية

وكان أكبر همه أن يعصم الاسلام من الملك الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس ، وكثيرا ما سأل : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ ! مستعيذا بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير ... وكلمته لابن عباس حيث قال : « ان الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وان قريشا اختارت لأنفسها فأصابت » هى كلمته حيثما تكلم فى هذا

---

(١) أي جماعـة ٠ (٢) منـع التصرف ٠ (٣) : سادتهم وعظماؤهـم ٠

(٤) : يطلب ٠ (٥) : العروة في الحبل ، والمراد : الدين والخلافة ٠ (٦) أي لا حاجة ٠

الصدد لا يخص بها بيتا دون بيت ولا معشرا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة .. الا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعا ، حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء فى الاتفاق ..

وما كانت لعمر صرامة مع على لم تكن له مع غيره فى مأزق الخوف من الفتنـــة والذود[١] عن الوحدة .. فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم مَن الخليفة بعده : « ان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما . فان رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين الا لأنه خارج من الاختيار ، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجا من رأبه ان شاءوا ألا يتبعوه....

ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء فى مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب ...

***

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يجمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس . هو الحكم الذى يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز ، وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبى سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان »

(١) الذود : الدفاع .

عمر والصحابة

بايع عمر فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه

وبويع عمر فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه

وقد تواترت أقوال الصحابة فى عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره ويكبر فى أعين الناس أكبر من تقال فيه .. لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم[1] راجحة ، وألسنة صادقة ، وعقيدة راسخة ، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق فى انسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هى الشهادة التى يقولها الصادق باختياره ،ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع ، وانما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور ، أما الشهادة التى تعبّر عن نفسها بلغة الواقع ، فهى قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس : انكارها كانكار المحسوس الذى تقع عليه الأيدى ،ولا تغمض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبى بسلام

ولكن انتهاءها بسلام لا يعنى انها كانت ستنتهى وحدها بسلام على أيه حال ، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التى يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة . اذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعى النزاع ، ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق

فما هو الا أن لحق النبى بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعى النزاع من كل فج[2] ، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكمن ، وجهل علم الناس كيف تنجلى الغاشية ويستقر القرار .

---

(١) جمع حلم ، والحلم : العقل والاناة ، والمراد هنا : العقول .

(٢) : الطريق الواسع بين جبلين .

فالأنصـــار يقولون انهم أحق بالخلافة من المهـــاجرين ، لأنهم كثرة والمهاجرون قلة ، ولأنهم فى ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم جميعا عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والايواء

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينعقــد به الاجمــاع ، وحجتهم الغالبة انهم السابقون الى الاسلام ومنهم جلة الصحابة الاولين

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوى فى الخلافة النبوية ، وبين آله رجلان هما: على والعباس .. لو أصغيا الى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخضت[1] عن خطب عظيم

وكأن هذه العصبيات لم تكفِ دعاة الخلاف حتى جاء أبو ســفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبــائل وأصغرها فى قريش .

فدخل على علىّ والعبــاس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة ، ويهيب بعلى باسمة . ثم بالعباس باسمه : « يا على !.. وأنت يا عباس !.. ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟.. والله لو شئت لأملأنها عليه — يعنى أبا بكر — خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ... فيجيبه على بما هو أهله : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها » ، ثم يبلغ به كرم النحيزة[2] أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفى على سعيه فى هذه العصبية فيقول : « يا أبا سفيان !.. ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششــة بعضــهم لبعض ، متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم ! .. » .

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعى النزاع وكوامن القلق والخوف . فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون[3] ، وكان هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شــفير[4] من الفتنــة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار ، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون ، فهم ان لم يفسدوا فى الارض لا يصلحون .

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهى مســألة الخلافة بســلام فيكون

---

(١) : أتى بها . (٢) :أي الطبيعة . (٣) : كارهون . (٤) شفر الشيء وشفيره : حده ، وناحية الوادي من أعلاه .

اتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب . وتبحث عن سر هذه الاعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسما واحدا هو اسم عمر بن الخطاب ... الى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف فى وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة ؟

سؤال يدلك على سرّ تلك العجيبة قبل كل جواب .. فما عُرف رأى عمر فى البيعة حتى بطل الخلاف الا ما لا خطر له . واطمأن من يوافق ، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه واجتمعت كلمة على مبايعة أبى بكر أوشكت أن تكون كلمات

قال أبو بكر لعمر : أبسط يدك نبايع لك

قال عمر : أنت أفضل منى

قال أبو بكر : أنت أقوى منى

قال عمر : ان قوتى لك مع فضلك . لا ينبغى لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك يا أبا بكر . أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثانى اثنين ، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر

ووثب عمر فأخذ بيد أبى بكر . فتواثب الجمع من علية الصحابة يبتدرون[١] البيعة ، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس : « ان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وأولى الناس بأموركم ، فقوموا فبايعوا » ...

فكانت البيعة العامة ، وتركت شجرة الخلاف لجفاف ، فان لم تذبل لساعتها فهى وشيكة ذبول

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب[٢]

وذلك قدر عمر عند الصحابة ، وقدره عند أبى بكر ، وقدره عند الله ، تغنى شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام .

وفى تلك الكلمات الموجزات التى تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة

---

(١) بدر الى الشيء : أسرع . (٢) مثل عربي نصه : « قطعت جهيزة قول كل خطيب » ويضرب للبت في الامر ، كثر فيه الرأي ، ودار حوله الخلاف، وجهيزة : اسم امرأة .

نقد الناقدين وبحث الباحثين وحكم التـاريخ فى أبى بكر وعمر ، وفى موقف الخلافة من بدايته الى منتهاه

قال عمر : انك أفضل منى

وقال أبو بكر : انك أقوى منى

وقال عمر : ان قوتى لك مع فضلك

صدقا غاية الصدق ، وجاملا غاية المجاملة ، وقضيا بالعدل والحكمة والاخاء . وتركا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب ، ثم لا يزيد فى فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات

ولقد كان من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر فى خلافته حتى يرجع عن رأيه ، وكان من فضل أبى بكر أنهم يسألونه مستثيرين : والله ماندرى أأنت الخليفة أم عمر ؟ .. فيقول : هو لو كان شاء ! ..

وكان فضل أبى بكر وقوة عمر جمعا لا يشذ عنه مكابر . ومن شـذ عنه فما له من فضل ولا قوة ينفعانه

بل كان الرجلان على اختلافهما فى المزاج كأنهما رجل واحـد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فاذا هو رأى جميع لا خلاف فيه ، لأنهما يصدران عن عقيـدة واحدة ويتجهان الى غرض واحد . فهما غير مفترقين الى أمد طويل

وأعجوبة الاعاجيب فى هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التى واجهتهما معا بعد موت النبى بأيام قلائل وهى مشكلة الردة ونكوص[١] العرب عن أحكام الدين ، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر فى مشكلة كبيرة أو صغيرة ، وانما العجب هو نوع هـذا الخلاف الذى لم يتوقعه أحد . فيخالف أبو بكر لأنه يجنح[٢] الى الشدة والصلابة ، ويخالف عمر لأنه يجنح الى اللين والهوادة .. ثم يلتقيان ولا يتعارضان ..

فأبو بكر يأبى الا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرا على

---

(١) أي رجوع · (٢) يجنح: يميل ·

قوله : « والله لو منعونى عناقا [١] لقاتلتهم على منعها »

وعمر يقول له : « كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وماله الا بحقه وحسابه على الله ! ؟ »

ويشارك عمر فى رأيه جلة [٢] الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى : « انه أمين الأمة » وسالم مولى أبى حذيفة الذى قال فيه النبى : « ان سالما شديد الحب لله » وأناس من هذه الطبقة فى صحابة الرسول

ويعود أبو بكر فيقول : « ان الزكاة حق المال » وفيها نحارب بالحق . ثم يهيب بعمر : رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك !.. اجبار فى الجاهلية وخوار [٣] فى الاسلام ؟ ..

فاذا بعمر يثوب الى شدته بعد أن أفرغ أمانة الرأى كما قال : « ماهو الا أن رأيت ان الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت انه الحق » وما أسهل أن يعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه

أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد ؟ ..

قل هـذا وذاك فالقولان مستويان . ما دمت لا تنسى ان الرجلين المختلفين معهما العقيدة الراسخة التى لا تفارقهما ، وطالما جمعت العقيدة جيوشا على قلب واحد ، فضلا عن رجلين ..

وانما كان يعيب عمر أن يعـارض اذا كان فى المسألة وجـه واحـد لايحتمل المعارضة بحال ، فاما أن يكون لها وجه آخر يبديه ويشرح حجته فالذى يعيبه ويضير الاسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتا فى موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذى رآه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان عمر خليقا أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه فى الحرب والسياسة . فقد كان بطيئا الى الحرب كما عرفنـا من عامة وصاياه ، وكان أبطأ ما يكون عنها اذا نشبت [٤] بين العرب أو المسلمين ،

(١) : الانثى من ولد المعز . (٢) أي عظماء . (٣) أي ضعيف . (٤) أي علقت .

وكان جيش الاسلام بعيدا عن المدينة فى غزوة الروم التى خرج بها أسامة ابن زيد بعد قيام أبى بكر بالخلافة ، فالتريث الى أن يستكمل الاسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف ، أو هو فى أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول .

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب النعمة متى وجبت الطاعة واستقر القرار ، فلا ضير اذن لا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأى على اختلافها ، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى ما استطاع

ومثل هذا الرجل معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه .

وخليق بنا أن نفهمها على صوابها فى مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلتات[1] الضعف فيه . لأنه رأى الرأى فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجنه ، جريئا فيما رآه .

وعلى هذا الدأب[2] ظل عمر قوة لأبى بكر بموافقته ومعارضته على السواء . وأصاب فيما قال له يوم بايعه : « ان قوتى لك مع فضلك » . فكسب الاسلام خليفتين معا بتقديم أبى بكر للخلافة ، لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأربا[3] غير خدمة الاسلام

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه

عرضها عليه أبو بكر فقال : لا حاجة لى فيها ، فقال أبو بكر : « ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطاب » ... وسأل خيرة أصحابه فقال له عبد الرحمن بن عوف : هو والله أفضل من رأيك فيه . وقال عثمان بن عفان : « ان سريرته خير من علانيته ، وانه ليس فينا مثله » وسأل أسيد بن الحضير فقال : « اللهم اعلمه الخيرة بعدك . يرضى للرضى ويسخط للسخط والذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » ..

وأجمع المهاجرون والانصار على تزكية عمر وتصويب أبى بكر فى ترشيحه . ولعلهم لم يذكروا من مناقبه الا ما هو لا أقالنى الله ان أقلتك وتقدم الى ضرار بن الازور بضرب يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه :

(١) يقال : فلتات المجلس : أي هفواته وزلاته . (٢) : العادة والشأن .
(٣) أي مطلبا وحاجة .

لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب فى حزمه وصدقه لن يخلو من مبغض ، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين

قال له وهو يعرض عليه الخلافة : « يا عمر ! .. أبغضك مبغض وأحبك محب . وقدما يبغض الخير ويحب الشر » .

وان منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له : « انك كنت تأخذ على يديه ولا تطيق غلظته ، فكيف وهو خليفة ؟ .. وما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافه علينا » ؟ ..

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه ، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس فقال لمن خوفوه الله وعمر : « اباالله تخوفوننى ؟ .. خاف من تزود من امركم بظلم . أقول : للهم انى قد استخلفت على أهلك خير أهلك ! »

ولو شاء أبو بكر لقال ان ما خوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التى قدمته عنده على غيره . فقد خاف عليهم الفتنة ، وكان أكبر حذره أن تجىء الفتنة من أولئك الاعلام الذين يتبعهم الطغام[1] . وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه ، فمن هنا وصاه فحذره « هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم لنفسه » وقال له : « ان لهم لحيرة عند زلة واحد منهم فاياك أن تكونه واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك » .

فالذين حذروه عمر انما رغبوه فيه ولم يحذروه منه ، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه ، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبى بكر ورجاء فى صلاح أمر الاعلام والطغام .

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على ايثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته وأبرأ الى الله ذمته ودعا بعثمان فأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث

(١) الطغام : أوغاد الناس .

يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ، ويصـــدق الكاذب : انى استخلفت عليكم بعدى .... »

ثم أخذته غشية فيكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ولم يترك الكتاب خلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبى بكر في تلك الغشية فيلج[١] من يلج بالخلاف ، وله شبهة يحوم[٢] عليها ...

وانه ليكتبها اذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب ، فكبر وأدرك ما وقع فى روعه[٣] فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الاسلام خيرا : والله ان كنت لها لأهلا » ... ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة باجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده الا أن تكون وراثة فى دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان . فكانت شهادة من الصــحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الالســـنة والقلوب : بالبديهة التى لا تكذب فى صادق ولا كذوب .

وجائز جدا أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه ، وأن يختمها آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، اذ الحكم يخلق العداوات ، ويفتق[٤] أسباب التباعد فى الظنون والآراء . ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينتصون ، والمتفقون على حمده يزيدون[٥] ، ثم هم يزيدون[٦] فى حمدهم اياه وثنائهم عليه .

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا من فضة ومضى به . فبكى زياد ... قال عثمان : ما يبكيك ؟ .. قال : أتيت أمير المؤمنين بمثــل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام وان ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحدا قال له شيئا ... قال عثمان : « ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله . وانى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله ، ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر ! .. »

وبكى علىّ يوم موته ، فسئل فى بكائه فقال : « أبكى على موت عمر

---

(١) يلج : يدخل . (٢) حام الطائر : دار . (٣) الروع بالضم : العقل والقلب . (٤) فتق الشيء : شقه . (٥) أي عددا . (٦) أي مقاما وقدرا .

ان موت عمر ثلمة[١] فى الاسلام لا ترتق[٢] الى يوم القيامة »

وقال عبد الله بن مسعود : « كان اسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امارته رحمة »

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء : « أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده .. وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن » ..

وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه : « لله در ابن حنتمة[٣] . أى امرئ كان ! .. »

ولم يقل فيه قائل ، راض ولا ساخط ، الا ثناء كهذا الثناء بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثنـاء لأربى[٤] على الأمل فى انصـاف بنى الانسان ..

***

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قـدره .. الا أنه كان مفضلا فى هـذا كما كان مفضلا فى جميع محامده وحسناته ، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها ، وقليل منهم من كان قادرا أن يعمـل معه غير ما عمل ، ويقول فيه غير ما قال

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم[٥] أمرا ولا ينقضه الا بعـد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبى وأحاديثه

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعا له فجنبهم ولاية الاعمال قائلا لمن راجعه فى ذلك : « أكره أن أدنسهم[٦] بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بحسن تقسيمه وصادق حدسه[٧] وتدبيره : هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملا من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رؤوس القبائل وقروم[٨] الجزيرة العربية . فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان ابن حرب فى جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين ، وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران . ولكنهما شهدا بدرا وصحبا رسول

(١) : الخلل في الحائط ٠ (٢) : لا تلتئم ٠ (٣) اسم أم عمر ٠ (٤) : أي زاد ٠ (٥) أي يحكم ٠ (٦) : الوسخ ٠ (٧) : الظن والتخمين ٠ (٨) : السيد ٠

الله .. فأذن لهما قبل علية القوم[1] !.. وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ .. أما صاحبه فكان حكيما فقال : أيها القوم ! .. انى والله أرى الذى فى وجوهكم ... ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم — الى الاسلام — ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ »

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال .. ولا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل ..

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس[2] الذى يعطى كل ذى قدر قدره حيث ينبغى له من تقديم وتأخير . فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين .

فلما ندب النـاس الى غزو العراق فبادر اليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار . وأجاب من راجعوه قائلا : « لا والله ! .. لا أفعل . ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو . فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسـة منكم من سـبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء . والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتدابا »

ثم دعا معه ابن عبيد وسـليطا بن قيس فأبلغهما « انكما لو سبقتما لوليتكما ... » والتفت الى أمير الجيش الذى اختاره فقال له : « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهـد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب » .

هذا ما استحقوه .. فلا رجحان لهم الا بالحق ؛ ولا رجحان عليهم الا للحق ..

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء وحق الأمان الذى يعم الدولة ويوطـد أركانها ، فاذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم ، وحقها الأكبر مقدم على الكبير من حقوقهم . فربما حبسهم فى المدينة لا يسافرون منها الا باذن والى أجل ، مخافة منهم على

(١) أي سادتهم وعظماؤهم . (٢) : الميزان . (٣) أي يقوى .

الناس ومخافة عليهم من الناس . ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجا بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده[1] بها عن السفر ، ويقول له : « ان لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك ، وبحسبك ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وان خيرا لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

***

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين ، فهو القسطاس الذى لا يجور ، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء .

بل على هـذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحـد من عامة المسلمين ، فلكل رجل حقه ولكل عمل حقه ، ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله ، ولا ينفع أحدا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله ، فكل عمل وله حساب ، وكل قدر وله كرامة ، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم الى العمل النافع . وأصغر النـاس خليق أن ينال جزاءه الحسن اذا استحقه ، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فانما يفارقه الحاكم لظلم أو لخوف ، وليس هذا ولا ذاك سبيل الى عمر ، لأنه عادل ، ولأنه لا يخاف ، واذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات .

على هـذا الوجه وحده ينبغى أن نلتمس التأويل فى محاسبـات عمر ومعاملاته اذا وقع منها ما يحتاج الى تأويل ، وقل فى محاسبـات عمر ومعاملاته ما يحتاج اليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة[2] كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه ...

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القـادة والولاة ، لأن الذى صنعه فيهـا عمر هو الذى كان منتظرا أن يصنعه ،

(١) أي يدفعه ويرده . (١) أحدقت النار : اتقدت وازدادت اشتعالا .

سواء كان القائد خالدا أو كان رجلا غيره ... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيف[١]، أو ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين ، وتنظر اليهم بنظرتين مختلفتين .

عزل عمر خالدا وهو سيف الاسلام وبطل الجزيرة والشام ، واذا كان لابد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل ، فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب .. هو على قدر عزله بلا مراء ، وهو قدر كبير ..

فقال اناس انها منافسة الند للند والشبيه للشبيه ، وقال اناس عزله لغير خطأ أتاه ، وقال اناس انها ترة[٢] قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله ، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده ..

والذين ظنوا هــذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها الى حدســهم . لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق وخلق توحى الظن بالتنــافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقتــه تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد ..

فمن شاء أن يخبط[٣] بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صــان على القــائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض فى أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الاولى ، وكتب الى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم: « انه لم يعزله لسخطة ولا خيانة ، ولكن النــاس فتنوا به » ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويبتنوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لايكونوا بعرض فتنة »

ولما سأله خالد فى ذلك قال له : « ان الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس »

فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فقد يخبط ما شاء وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع الى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه . ويوقن أن عمر لم يحاسب خالدا بميزان غير الذى حاسب به جميــع القادة والولاة ، وأن المدهش الحق أن يبقيه فى الولاية والقيادة بعد ما

---

(١) أي الجور والظلم • (٢) أي ضغينة • (٣) أي يضرب •

أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين

والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه الى أيام النبى عليه السلام ، وبعضه الى أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وبعضه الى أيامه ، وكله مما يصح أن يؤخذ به فى موقف الحساب ، وان كان الذى حدث فى أيام عمر وحدها كافيا لما قضاه فى أمره .

ففى فتح مكة نهى رسول الله خالدا عن القتل والقتال ، وقال له وللزبير : « لا تقاتلا الا من قاتلكما » . ولكن خالدا قاتل وقتل نيفا[١] وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب : من قتلها ؟.. قال : خالد بن الوليد . فأمره أن يدرك خالدا فينهاه أن يقتل امرأة أو وليدا أو عسيفا — أى أجيرا — وبعث اليه من يسأله : ما حملك على القتال ؟.. فاعتذر بخطأ الرسول فى تبليغه ، وشهد الرسول على نفسه بالخطأ فكف عنه .

ثم بعث رسول الله خالدا الى بنى جذيمة داعيا الى الاسلام ولم يبعثه للقتال ، وأمره ألا يقاتل أحدا ان رأى مسجدا أو سمع أذانا ، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا . فأمر بهم خالد فكتفوا. ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، وأفلت من القوم غلام يقال له السميدع حتى اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا اليه . فسأله رسول الله : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ .. قال : نعم ، رجل أصفر ربعة[٢] ورجل أحمر طويل ... وكان عمر حاضرا فقال : أنا والله يا رسول الله أعرفهما ، أما الاول فهو ابنى ، وأما الثانى فهو سالم مولى بنى حذيفة. وظهر بعد ذلك أن خالدا أمر كل من أسر أسيرا أن يضرب عنقه ، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبى حذيفة أسيرين كانا معهما ... فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : « اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد » ... ثم دعا على بن أبى طالب وأمره أن يقصد الى القوم ومعه ابل وورق[٣] فودى[٤] لهم الدماء وعوضهم من الاموال .

وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالدا الى بعض أهل الردة

(١) النيف : الزيادة ، وكل ما زاد على العقد فهو نيف ٠ (٢) ليس بالطويل ولا القصير ٠ (٣) الدراهم المضروبة ٠ (٤) أي دفع الديات ٠

يدعوهم الى أحكام الاسـلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا[1] اليها . فعزم على المسير الى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير اليه . وأحجم الانصار ينتظرون أن يكتب اليهم الخليفة بما يراه ، وقال خالد : « قد عهد الى أن أمضي وأنا الأمير ، ولو لم يأت كتاب بما رأيتـه فرصـة وكنت ان أعلمته فانني لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد الينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد الى مالك ومن معي من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم ... »

ثم جـاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى ثعلبـة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم : يشهد قوم أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء . فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم فى ليلة باردة . وأرسل فيما قيل مناديا ينادى : ادفنوا أسراركم ، فظن القوم أنه أراد قتلهم .... لأن ادفاء الأسرى كناية عن القتل فى لغتهم...

ويروى أن مالكا قال لخالد : ابعثنا الى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا . فلم يجبه خالد الى طلبته وقال له : لا أقالنى الله ان أقلتك ، وتقدم الى ضرار بن الازور يضرب عنقه . وتزوج بامرأته فى الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره .

وقد أبلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبى بكر : ان سيف خالد فيه رهق[2] . فاعتذر له أبو بكر بأنه « تأول فأخطأ » وودى[3] مالكا واستدعى خالدا اليه ..

قدم خالد فدخل المسجد ، وعليه قباء[4] ، وفى عمامته أسهم غرزها للمباهاة فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : قتلت امرءا مسلما ثم نزوت[5] على امرأته ؟ .. والله لأرجمنك بأحجارك ! ..

وكان أبو بكر رضى الله عنه همّ بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال الذى فى ولايته فسأل عمر : من يجزىء جزاء[6] خالد ؟.. فندب عمر نفسه ليخلفه ان لم يكن بد من ذلك ، وتجهز عمر حتى أنيخ الظهر[7] فى الدار ، لولا أن مشى أصحاب رسول الله الى أبى بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر

---

(١) أي يرجعوا . (٢) الخفة ، وركوب الشر ، والظلم ، وغشيان المحارم .
(٣) أي دفع له الدية . (٤) نوع من اللباس . (٥) أي وثبت . (٦) أي من يقوم مقامه ؟ . (٧) أي هيئت الراحلة ليركبها .

لحاجته اليه ، وأن يبقى خالدا فى ولايته لحاجته اليه ، فعمل بما أشاروا

ذلك ما كان فى عهد النبى وأبى بكر ، فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه فى حساب المال،والا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله ، وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه : « اما أن تدعنى وعملى والا فشأنك بعملك » ، فلم يطقها عمر وقال : « ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه »

وقد أبرمه[١] منه أنه وهب للشاعر الاشعث بن قيس عشرة آلاف درهم . ونمى[٢] الأمر اليه كما كانت تنمى اليه أخبار الولاة والقواد من عيونه وأرصاده . فكتب الى أبى عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة « فان زعم أنها من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة وان زعم أنها من ماله فقد أسرف » ..

***

وقد أبى خالد أن يجيب فى مبدأ الأمر فاعتقله[٣] أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر ونزع منه قلنسوته فى موقف المحاسبة حتى قال انها من ماله . فقومت[٤] عروضه[٥] وضم ما زاد منها الى بيت المال ، وقال له عمر يومئذ : « يا خالد ! .. والله انك علىّ لكريم ، وانك الىّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء » .

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على أثر قيامه بالخلافة كما جاء فى بعض الأخبار ، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه ، والارجح ان فى تاريخ لقصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير ، فكتب عن عزل خالد فى أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم ذكره فى أخبار السنة السابعة عشرة ، وأورد فى الموضعين أقوالا متشابهات ..

تلك جملة المآخذ التى أخذها على خالد من عهد النبى عليه السلام الى عهد خلافته ، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح[٦] له أنه أنكر من خالد شيئا كان يقبله من غيره ، وأنه نصب له ميزانا غير الموازين التى يحاسب

(١) أي جعله يضجر . (٢) أي بلغه وعلمه . (٣) أي قيده . (٤) أي قدرت . (٥) أي أمتعته . (٦) أي يظهر .

بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول . فرأى عمر فى انكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه ، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه ، كما حدث من ابنه فى بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف . ثم أنكر النبى عليه السلام ما أنكراه واستصوب ما استصوباه .

فعمر كان يكره الاسراع الى القتال ويوصى قواده جميعا بالتريث فيه ، وربما نحى القائد المغوار[1] عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يعجل بالقتال ، كما قال لسليط بن قيس : « لولا انك رجل عجل[2] فى الحرب لوليتك هذا الجيش ، والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث[3] » .

وكان يتحرج غاية الحرج ان يستبيح دم برىء أومشكوك فيه ، وتقدم فى هذا الكتاب أنه لام أناسا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه ، وقال لهم : هلا استتبتموه وحبستموه ؟ .. وتبين من رأيه فى أهل الردة انه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال . فان كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه ، فانكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذى لا شذوذ فيه ، ويضاف اليه انكار البناء بامرأته ، ووقوع البناء بها فى أثناء المعركة ، وهو أمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده ، بل تكرهه العرب عامة ، مسلمين وغير مسلمين .

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب : يكتب عروضهم قبل ولايتهم ، ويسألهم فيما فشا[4] من طارىء أموالهم ، ويأمرهم اذا عادوا الى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارا لينكشف ما عادوا به اليهم ، ويقاسمهم كل درهم يربى[5] على المحسوب من أرزاقهم . ويجرى على هذه السنة[6] مع كل وال وكل عامل ذى أمانة . فلم يستثن منها أحدا قط ، ولم يعرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر « سرعة هجماته وشدة صدماته » سنة عمرية لا شذوذ فيها ، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها ، ولو انه صنع غير هذا

(١) أي الشجاع . (٢) عجل : أي متسرع . (٣) الرزين . (٤) أي انتشر . (٥) أي يزيد . (٦) أي الطريقة .

الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة ، لأنه لا يحابى ولا يفرق فى المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير . وليس يجب أن يقال:ان رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الاسلام . فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الاسلام من عزل وال مظلوم أو ولاة مظلومين .

ولا ننسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل فى محاسبة العمال ، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو ما نسميه نحن فى أيامنا « بالسياسة العليا » ..

وعمر لايتركنا نفسر أعمــاله هنا باجتهادنا فى فهمها وتأويلها على ما نراه ، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل

فكان يرعى فى شئون الولاة الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة[١].

أحد هذين الأمرين ، أن يفتتن بهم الناس فيفتتنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله . والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفؤ أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبل أحسن البلاء ولم تتساير بذكراه الأنباء ، فليس لهذا خطر فى بقائه كخطر القائد الكبير .

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليا دون وال ولا قائدا دون قائد . فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد : لم عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ .. ألعجز أم خيانة ؟ .. فقــال له : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . وقديما قال فيه عمر : لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه . فالحيطة[٢] منه وفاق رأيه فيه .

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ بالحيطة ويطيل الروية ثم يجزم بالرأى السديد فى غير ابطاء ، ولهذا كان يكره ولاية الرجــل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته ، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالد بن سعيد وكلمه فى عزله لأنه رجــل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب .. فعزله أبو بكر كما أشار

---

(١) المجازاة والمحاسبة . (٢) أي الحذر .

فاذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا الى المآخذ التى أنكرها على خالد فلا جناح عليه ، ولا محل للشك والظنة فى أسباب عزله ..

لقد رأى زهو[1] خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق بالشهرة أنداده[2] من القواد : رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفى عمامته السهام . ورآه يوم استقل ببيت المال فى ولايته على عهد أبى بكر وعلى عهده ، ورآه فى أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها ، ورآه مما يحس ولا يلمس ، ومما يقدر ولا ينتظر . فاذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه .

وثانى الأمرين اللذين يدخلان فى تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل فى غير جريرة[3] ظاهرة أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح ، وان يُعزى[4] اليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دونه ، وان تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره باقصاء قائده ولو لم يكن له نظير

فان كان له نظير ، كما تبين من اختيار عمر لقواده فى كل ميدان فلا خسارة هناك . بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد . واذا حان اليوم الذى ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين[5] أن ينفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير ..

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه الى كل شىء فتراه فيه على صواب : تعزوه الى ايمانه بالله فهو فيه مصيب ، وتعزوه الى حسن سياسته فهو فيه مصيب ، وتعزوه الى تقديره للواقع فهو فيه مصيب . فكل أولئك كان خليقا أن يرجح كفة العقيدة عنده على كل كفة ، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء . وألا يزال بالناس يذكرهم ما ذكرهم به حين كتب الى الامصار بعد عزله خالدا « ان الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة »

ولو أن رئيسا لخالد غير عمر بن الخطاب فى ايمانه المكين لما فاته أن

(١) الكبر والفخر ٠ (٢) جمع ند ، والند : المثل والنظير ٠ (٣) أي ذنب أو جناية ٠ (٤) ينسب ٠ (٥) أي جدير ٠

يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم فى جميع الميادين ، ولا فاته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما فى يديه : تلك قوة العقيدة لا مراء ، ان ضاعت فلا عوض عنها ، وان بقيت فللقادة عوض كثير ..

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا ايمان تسليم ، كما يفكر فيه تفكير سياسة وتدبير ؟ .. لئن نسى ذلك لهو الحقيق باللوم على نسيانه ، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالدا بغير جريرة لما كان عليه من لوم

وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة ، أو لم يكن حسابه له مختلفا عن حسابه للقــادة والولاة ... وقد كان أبو بكر نفسه ـــ وهو من أبقى خالدا ـــ يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال : أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ! ؟

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة فى كل نجاح واسناده كل فشل الى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ فى فتحها فالتمس عمر علة ذلك فى ضعف نياتهم وكتب اليهم يقول : « عجبت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين .. وما ذاك الا لمــا أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم » ..

فنظرته فى عزل خالد هى النظرة العامة التى لا تخصيص فيهــا لرجل ولا لمعركة ولا لمكان ، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليهــا فى مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان ... وهل أخطأ ؟ .. هل كانت منه حماسة ايمان ولم تكن روية تفكير ؟ .. هل يرى غير هــذا الرأى ناقد عسكرى من أعداء الاسلام لو بحث فى الأمر ونفذ الى حقائق الأسباب ؟

كلا .. بل هو صدق الرأى وصدق الايمان معا مقترنين ، لايشير هذا بغير ما يشير به ذاك .

ودون[1] هذا من أسباب « السياسة العليا » يجيز لعمر ما استجازه من

(١) أي وأقل منه .

عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ وبعد ما علم الناس انه لا يسامح أحدا فى أمثال هذه المآخذ . فما باله يسامح خالدا فيها ؟ انه اذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه ، وان الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر لا يقل عنه : أن يسكن[1] الناس الى التفرقة فى الحساب ، وأن يألفوا ما يعاب اذا عيب من الرؤوس والأقطاب[2] ، دون الأتباع والأذناب .

***

ومسألة آخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصرى وهو ينظر فى عزل خالد للأسباب التى قدمناها أو لأى سبب غيرها .. وذلك أن حقوق الولاية فى عصرنا غير حقوق الولاية فى عصر عمر على التخصيص ، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة فى دول الاسلام ..

فالولاية فى عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى ، وكأنها صناعة العمر التى لا يحتمل عمر الانسان تجديد صناعتين مثلها . فاذا قيل ان واليا عزل فى عصرنا فكأننا نقول ان تاجرا صودر ماله أو زارعا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرة من هذا القبيل حرى أن تلتمس لها أسباب من قبيلها فى الرجاحة والاقناع

غير أن الولاية فى عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذئ اصطلح عليه العرف وان لم ينص عليه القانون ، وانما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل الوالى لأسباب أهون من تلك الأسباب التى قدمناها فى الرجاحة والاقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة فى ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

لله در « ابن حنتمة » أى رجل كان ! ..

كلمة قالها رجل يعرف الرجال ... قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن

---

(١) سكن اليه : أي اطمأن · (٢) جمع قطب ، وقطب القوم : سيدهم ·

بود أن يقولها لولا أنطقه بها الاعجاب الذى لا يجدى[1] فيه كتمان
وهى كلمة يقولها الناظر فى سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذى يبحث عن الخطأ فيلفيه[2] حيثما بحث عنه عسيرا جد عسير ... أى رجل كان هذا الرجل ؟ .. أى عدل كان عدله ؟ .. أى قسطاس كان قسطاسه ؟ .. أى حساب كان حسابه لنفسه ؟ .. وأى سبيل للناقد الى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب ؟ ..

وربما اختلفت الأمزجة[3] أو اختلف تركيب العقول والأبدان ، فقل فى ذلك ما تشاء ، وقل فى خلائق عمر ما تشاء ... قل هى الشدة والصرامة ، أو قل هى الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق فى عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف الصواب ... قل ما بدا لك من ذلك واذهب ماشئت أن تذهب فيه ، فانك لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك فى سبب انتقاد أو علة اختلاف ، لأنه لا يزاول أمرا الا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطوية[4] من وجهة ذلك المزاج .

***

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تنفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع الى الذين يردونه الى المنافسة والتناظر فنجيز هذا ولا نمنعه أو نرى فيه منالا من قدر عمر ومنقصة تغض من اعجابنا بمزاياه . لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم فى تاريخ الانسان ..

وفى عصرنا هـذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضغنهم[5] على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا باقصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم بين يدى القضاء . ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات ، وقرنوا قتل أفراد باحياء أمة ، فبقى لأولئك الأبطال حقهم الخالد فى الثناء والتعظيم .

واذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصى عليه خطأ غير عزله لخالد وما

(١) أي لا يفيد · (٢) أي فيجده · (٣) أي الطبائع · (٤) أي النية ·
(٥) الحقد ·

جرى مجراه فما أكثر هذا صوابا على الآدمى وان كان من أعظم العظماء ؟

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفى خلدنا هذا الفرض الذى لايحملنا على استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر الى جانب حسنات ؛ فلا ضير أن يكون له موضعه فى جانب تلك الحسنات...

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه فى هــذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده ، ولا تزال كلمة ابن العاص تعود الى لساننا وتعود ، حتى نطقنا بها كما هى ، وغفر الله لابن العاص .

***

وهكذا كنا نصنع فى كل خطأ نسب الى عمرو وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء . فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه ، أو يضعف ســنده ضعفا لا يبيح الاعتماد عليه ، الا لمن يتجنى[1] ويتمحل ذرائع[2] النقد ودعوى التخطئة والعيب

كلا .. هذا رجل لا يسهل نقده ، ولا يتأتى لانســان أن يحاسبه كما حاسب هو نفســه ؛ ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينــه الا على انه اختلاف فى الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فاذا وضع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تحصى عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب .

فالذى حصل والذى كان متوقعا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وانصافه فى قضية خالد بن الوليد ، وقد حكم فيهــا بما وجب عنده ، وانتهى كل شىء بعد ذلك فى هذه القضية بانتهاء الغرض منها فى مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا ، اذ لا موضع فيهــا لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجر اليه من لغو المشاكسة[3] وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب على فى شىء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض فى قضيته الا أن تثار فى معرض عام ، فيشير اليها حيث تثار على سبيل الاعتــذار ، ويقبل ما شــاء له كرم الخليقة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايعين[4] وان أغلظوا فى المقال ، على ما كان له من هيبــة ترد الجامح

---

(١) يتجنى : يدعي ذنبا لم يحدث ٠ (٢) وسائل ٠ (٣) الشكس : صعب الخلق ٠ (٤) الاتباع والانصار ٠

وتخيف من لا يخاف ..

قال من خطبته بالجابية : انى أعتذر اليكم من عزل خالد بن الوليد ، فانى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه[١] بكلام غليظ يقول منه : « والله ما أعذرت يا عمر .. ولقد نزعت غلاما استعمله رسول الله صلى‌الله عليه وسلم ، وأغمدت سيفا سله رسول الله صلى‌الله عليه وسلم ، ووضعت أمرا نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطعت رحما وحسدت بنى العم ... »

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره : « انك قريب القرابة ، حديث السن ، تغضب فى ابن عمك »

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته فى أمصار المسلمين ، فكتب ما ألمعنا اليه آنفا يرحض[٢] عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه ، ولا لتثريب[٣] عليه

وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع[٤] مرارا ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه . ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ، ميمون[٥] النقيبة[٦]..

ولم يهمه أن يذكر صوابه أوخطأه فى عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال : « قد ثلم فى الاسلام ثلمة لا ترتق » . وقيل له : لم يكن هذا رأيك فيه . فلم يحجم أن يعلن قائلا : « ندمت على ما كان منى اليه » .. وقال فى غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب[٧] من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه : « رحم الله أبا سليمان . كان على غير ما ظنناه به » ..

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل . فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يبكينه وسئل عمر أن ينهاهن قال : « دعهن يبكين على أبى سليمان ، ما لم يكن نقع[٨] أو لقلقة[٩] على مثله تبكى البواكى » ! ..

---

(١) أي واجهه واستقبله • (٢) أي يغسل • (٣) الاستقصاء في اللوم •
(٤) أي قال : انا لله وانا اليه راجعون • (٥) مبارك • (٦) النفس • (٧) أي يترك • (٨) أي غبار • (٩) شدة الصوت •

ودخل هشام بن البخترى فى أناس من بنى مخزوم على عمر فاستنشده شعره فى خالد ، وقال له وقد أطال الاصغاء اليه : « قصرت فى الثناء على أبى سليمان . رحمه الله ، ان كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وان كان الشامت به لمتعرضا لمقت[1] الله . رحم الله أبا سليمان ! .. ما عند الله خير له مما كان فيه » .

ومن الحق أن يقال ان قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل فى صفحتيه فاذا هو بطل الفؤاد فى ولايته وبعد عزله ، وفى شدته على عدوه وطاعته لأميره ... وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل فى ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحا أى رجحان ...

وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الابقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقا بالغض عنه والتجوز فيه ..

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانىء[2] وكل منصف وجاحد ، وما نخال أن تقديرنا خالدا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان فى هذه القضية من جديد . فقصارى[3] ما نغنم من ذلك أن خالدا كان جديرا بالبقاء فى منصبه ولم يكن مستحقا لعزله . وليس ذلك بشىء الى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان فى القضية كما نصبه خليفة الاسلام ، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الابطال . فان أخطأ البطل — على تقدير خطئه — فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء ، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللاسلام من كل ميزان .

---

(١) أي غضب · (٢) الشانىء : العدو · (٣) أي نفاية ·

ثقافة عمر

اذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول: انه كان رجلا وافر[1] الحظ من ثقافة زمانه ، وانه كان أديبا مؤرخا فقيها ، مشاركا فى سائر الفنون ، مدربا على الرياضة البدنية ، خطيبا مطبوعا على الكلام ، فليس أرجح من نصيبه فى ثقافة زمانه نصيب .

ظل فى اسلامه كما كان فى جاهليته عظيم الشغف[2] بالشعر والأمثال والطرف[3] الأدبية ، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التى لا تدع له من وقته فراغا لغيرها ؛ فكان يروى الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن : « يا بنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فان من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه . ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ولم يقترف أدبا » ... وقال للمسلمين عامة : « اروووا الأشعار فانها تدل على الأخلاق » .

ونظر الى فائدته العملية كما نظر الى متعته الأدبية ، فقال فيه انه جذل[4] من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ويبلغ به القوم فى ناديهم ويعطى به السائل .

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التى لا يبالى الموت لو حرم نصيبه منها ، فكان يقول : « لولا أن أسير فى سبيل الله ، وأضع جبهتى لله ، وأجالس أقواما ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت » .

واذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ[5] .

وقد كان اعظام الرجل فى عينيه بمقدار حذقه[6] للحديث وقدرته على

---

(١) أي كثير . (٢) أي بلغ شغافه ، وهو : غلاف قلبه . (٣) أي الطرائف . (٤) أصل الشجرة وغيرها . (٥) مدح الانسان وهو بحق أو باطل . (٦) أي مهارته واجادته .

الابانة[١] والمنطق الحصيف[٢]. فنظر يوما الى هرم بن قطبة ملتفا فى بت[٣] بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة[٤] وضالة ومنظر زرى[٥]، فأحب أن يكشفه ويسبر[٦] حكمته، فسأله فى علقمة ابن علاثة وعامر بن الطفيـــل : أرأيت لو تنافرا اليك اليوم أيهما كنت تنفر ؟ .. فأجابه الرجل : يا أمير المؤمنين ! .. لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة، أى لأعاد الحرب فتيه[٧] كما كانت، فأثنى عليه وقال : لهذا العقل تحاكمت إليه العرب ! ..

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعا واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة الى أن مات...

وسره أن عاد العرب الى رواية الشعر بعد أن شـغلهم عنه الجهاد فى سبيل الدين، فكان يقول أن الشعر «كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الاســلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا[٨] الى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره ».

ومن ناحية الأدب فيه، وناحية الدين معا، حثه على تعلم العربية « لأنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة » وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية ..

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، لم ينكر من الشعر الا ما ينكره المسئول عن دين، ولم ينس قط انه الأديب الحافظ الراوية الا حيث ينبغى أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضى المتحرز[٩] الأمين.

فنهى عن التشبيب[١٠] بالمحصنات كما نهى عن الهجاء، وجىء له بالحطيئة متهما بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه :

دع المكارم لا ترحـل لبغيتهـا واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر الا أنه القاضى الذى يدرأ الحدود

---

(١) أي الايضاح . (٢) استحكم عقله . (٣) طيلسان من خز ونحوه .
(٤) قبح . (٥) أي محتقر . (٦) أي يختبر . (٧) أي قوية . (٨) أي يلجأوا .
(٩) الحرز : الموضع الحصين ،وتحرز منه : أي توقاه. (١٠) النسيب بالنساء.

بالشبهات، ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة ، وقال للزبرقان : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحش فى هجائه ، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود الى مثلها ، فانتهى طوال حياة عمر ، ثم عاد الى الهجاء بعد وفاته .

واستعداه تميم بن مقبل على النجاشي لأنه قال فى قومه بنى العجلان :

اذا الله عادى أهل لؤم وذلة فعادى بنىالعجلان رهط[١] ابنمقبل

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر ، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات : انه دعاء والله لايعادى مسلما

قال تميم : فانه يقول عنا :

قبيلته لا يغدرون بذمة[٢] ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء

قال تميم : وانه يقول :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بنكعب بن نهشل

فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه

قال تميم : وانه يقول :

ولا يردون الماء الا عشية اذا صدر[٣] الوراد[٤] عن كل منهل[٥]

فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام)

قال تميم : وانه يقول :

وما سمى العجلان الا لقولهم خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم أنفعهم لأهله

قال تميم : فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين[٦] وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه ؛ وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب ..

وقد تجوزنا فقلنا، ان عمر نسى علمه بالشعر ليذكر ابراء الذمة فى القضاء . وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب فى نسيان أدبه .

(١) أي طريقهم • (٢) العهد • (٣) رجع • (٤) الذين يردون الماء • (٥) المورد ، وهو عين ماء ترده الابل في المراعي • (٦) اللئيم •

ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستطاع . فكان عمر فى تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه الا ظاهر لفظه ومعناه ..

ومن المشهور عن عمر انه كان عليما بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر انسابها كعلمه بالمتخير من شعرها ولنثائر أمثالها .

جنح[1] الى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه ، وكثيرا ما كان يقول كما جاء فى البيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب ولم أسمع ذلك عن الخطاب

ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا » . ومنها : « عليكم بطرائف الأخبار، فانها من علم الملوك والسادة ، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم »

***

وفقه عمر بالشريعة التى كان مسئولا عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبد الله بن مسعود يقول : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله » وكان اذا اختلف أحد فى قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأطنب[2] فقال : « لو ان علم عمر بن الخطاب فى كفة ميزان ، ووضع علم الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم ، ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم » ... وقال ابن سيرين : « اذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك فى دينه » وكل ما فسر به آى القرآن فى معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح .

ونصائحه للعلمــاء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء فى طلبــه ، فكان يقول : « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » وكان يوصى طلابه « أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم ، ويسألوا الله رزق يوم بيوم ،

---

(١) أي مال . (٢) أطنب الرجل : أتى بالبلاغة في الوصف مدحا كان أو ذما .

ولا يضـيرهم الا يكثر لهم » ولا يزال يذكرهم ان التفقه مقـدم على السيادة « فتفقهوا قبل أن تسودوا » .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال : « تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم فى البر والبحر ولا تزيدوا عليه »

ولا شك ان نصائحه العملية فى طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه . شأنه فى ذلك شأن رجل الدولة الذى يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم ... ولكننا مخطئون ان فهمنا من هـذا القول الذى رويناه فى علم النجوم انه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفنـاها نحن فى أيامنا ، فانما الزيادة التى كرهها هى تلك الزيادة التى كانت على عهده تخوض فى التنجيم وتربط أقدار النـاس بالكواكب وتجعل منها أربابا تعبـد وأرصادا تؤتمن على أسرار الغيب . وذلك ما نتهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح ..

ولم يفته الحرص على المعرفة التى تخترع منها منافع للناس فى أمر المعاش . فطلب الى أبى لؤلؤة غلام المغيرة ان ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصـناعات كما انتهى اليه فى عصره ، لا يضيره انه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار .

على أن زبدة[1] الثقافة كلها فى أقطاب الحكم وعظماء الأعمال انما تتلخص فى شىء واحد : هو الدراية بالناس ونفاذ البصر فى شؤون الدنيا وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو ما نسميه فى أيامنا هـذه بالرأى السليم والحكمة العملية ، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه ، وحفظت له كلمات فى معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام ، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء ..

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : « ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشرَّين » ..

(١) المراد : خلاصتها باعتبار أن الزبدة خلاصة اللبن ، أو دسامتها لما في الزبد من دسم .

وأى نفاذ فى تركيب الطبائع أمضى من نفاذه اذ يقول : « ما وجد أحد فى نفسه كبرا الا من مهانة[١] يجدها فى نفسه » ؟ . أليس هذا بعينه هو مركب النقص الذى يلهج به علم النفس الحديث ؟ ..

وأى رأى فى تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول : « لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب » أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصحبته فى السفر ؟ .. أعاملته ؟ .. فلما أجابه نفيا قال : « فأنت القائل بما لم تعلم » ؟.

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : « اذا توجه أحدكم فى الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرا فليدعه[٢] » ؟ ..

كذلك سداد[٣] جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يقارفها وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشتهيها أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله ، فكتب فى هذا فصل الخطاب اذ قال : « ان الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم ».

وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقباه حين قال : « من كتم سره كان الخيار بيده » .

وكذلك وصيته فى الحب والبغض حين قال : « لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا » .

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال : « أحذركم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من السكر»

وكذلك وصاياه التى كانت تحفل بها كتبه الى الولاة وخطبه فى الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العملية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فى أقطاب الحكم خاصة ، وفى كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته فى سائر الفنون والمعارف التى كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها الى التفصيل

(١) أي عيب ونقص . (٢) أي فليتركه . (٣) أي صواب .

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف « جغرافيــة » الشرق كأحسن ما يعرفها رجل فى وطنه ، ولكنه كان يعرفها حقا عن سماع وعن رؤية وعن زكانة[1] تعين السماع والرؤية . بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيرا عن ذلك . فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه اليه وقالوا فى شكواهم اياه : « انه لا يدرى علام استعمــل » وجعــل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير ، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره ..

ومن الواجب أن نشك فى كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التى يحتاج اليها فى تدبير الدولة ، فلا يعقل مثلا أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجرا منذ نشأته فى الجاهلية وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هى الالوف وما هى عشرات الالوف ، فاذا استفسر عن رقم فلن يكون الا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة[2] كما جاء فى أخبار الخراج من هجر والبحرين :

قال أبو هريرة ما فحواه : قدمت[3] من هجر والبحرين بخمسمائة ألف درهم . فأتيت عمر بن الخطاب ممسيا أسلمه اياه فسأل كم هو ؟ .. قلت خمسمائة ألف درهم ! .. قال : وتدرى كم خمسمائة ألف درهم ؟ ! .. قلت : نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات ... قال : أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح ! ..

فكل شىء يجوز أن يفهم من هذه القصة الا ان عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك ، وهو الذى شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال فى عهده ... انما هى غبطة[4] واستعظام ، وليس هو جهلا بدلالة هذا الرقم فى جملة الحساب .

واذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظا من السماع والغناء ، ولكنه كان يسمع ويغنى فى بعض الاحيان ، ولا ينهى عن غناء الا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات . جىء

(١) أي علم وفهم . (٢) أي غفلة . (٣) في وقــت المساء . (٤) من معاني الغبطة : المسرة ، وحسن الحال .

له برجل يغنى فى الحج وقيل له : ان هذا يغنى وهو محرم . فقال : دعوه فان الغناء زاد الراكب...

وروى نائل مولى عثمان بن عفان انه خرج فى ركب مع عمر وعثمان وابن عبـاس ، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهرى الذى كان يحدو[1] ويجيد الحداء والغناء . فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستنكرا : مع عمر !.. قالوا : احدُ فان نهاك فانته . فحدا ، حتى اذا كان السحر قال له عمر : كف فان هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليـلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نصب العرب . فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا : مع عمر ؟ .. قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فان نهاك فانته . فنصب لهم نصب العرب حتى اذا كان السحر قال له عمر : كف فان هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيان[2]. فما هو الا أن رفع عقيرته[3] بغنائهن حتى نهاه وقال له : كف فان هذا ينفر القلوب .

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعرا ويؤثر أن يكون ذلك من شعره

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار ، وقال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده[4]. فما زال يغنيهم حتى كان السحر فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وجاءه قوم فذكروا أن امامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر ، فقـام معهم اليه واستخرجه من منزله وسـأله فيما بلغه عنه ، واستنشده الأبيات التى يغنيها ، فأنشده :

وفـؤادى كلمـا نبهتـه عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر الا لاهيا فى تماديه فقـد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا فنى العمـر كذا باللعب
وشباب بان منى فمضى قبل أن أقضى منه أربى

(١) الغناء للابل حتى تجد في سيرها . (٢) الامة مغنية كانت أو غير مغنية ، وجمعها : القيان . (٣) صوت المغني والباكي والقـاريء . (٤) أي من شعره .

نفس لا كنت ولاكان الهوى   اتقى المولى وخـافى وارهبى

فأعاد البيت الأخير ، وقال لمن شـكوا اليه : من كان منكم مغنيا فليغن هـكذا .. وكان مرة فى سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة[1] من محمـد

فاجتمع الركب اليه ، فقرأ فتفرقوا . فعل ذلك وفعلوه مرات ، فصاح بهم : « يا بنى المتكاء ! .. اذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم ، واذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم ؟ .. » لا يلومهم على الغناء وسماعه ، وانما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات .

ولا شك ان الشغف بالشعر الجزل[2] والحديث الرائق[3] والصوت الحسن لا يجتمع فى نفس الا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل . ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشـدة حجره على زينـة الحسان ؟ .. فقد دخل فى روع أناس أنها جميعا من نقائض حب الجمال ، وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يجلون[4] عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته ، لأنه كان شديدا فى الحجاب وكان ينفى الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان ، وكان يقول : « استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر »...

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الاحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته ، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره . وما نخال أحدا من المترخصين فى الحجاب كان يؤمن بسـلطان الجمال أبلغ من ايمان عمر بسلطانه ، أو كان يعرف حق المرأة فى الشوق اليه كما عرفه وأمر برعايته ، فانه كان ينكر على الآباء أن يكرهن فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم : « ألا تكرهوا فتياتكم على الرجـل القبيح فانهن يحببن ما تحبون » وجاءت له امرأة بزوج أشعث[5] أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يحم[6] وأن تقلم أظفاره ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمن فى مجلسه : « هـكذا فاصنعوا لهن فوالله انهن ليحببن أن تتزينوا كما تحبون أن يتزيَّن لكم »

فكل ما روى عن عمر من الشدة والرفق فى معرض الجمال فهو دليل

---

(١) أي عهدا . (٢) ضد الركيك . (٣) بمعني الحسن . (٤) يعظمون .
(٥) المغبر الرأس . (٦) من الاستحمام .

على الاحساس به ، واكبار خطره ، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة .

***

ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال فى معارض السياسة أدب الذكريات الذى لا يستغنى عنه ولاة الأمر الموكلون باحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها ...

ففى هذا الأدب كان لعمر النصيب الذى يغنيه . فهو الذى اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الاسلامى . وانه لأصلح يوم يؤرخ به الاسلام . لأن العقائد كما قلنا فى « عبقرية محمد » « تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة ، أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى[١] فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة، وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء»

وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة[٢] من ذوق الذكرى ، كان مجيبا له سريع الاصغاء اليه . فكان يحترم وفاء بلال واقلاعه عن الاذان بعد وفاة النبى عليه السلام . ولكنه دعاه الى الاذان تلبية لاقتراح الجلة[٣] من الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين . فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة اذا بالصوت الذى انقطع بعد النبى يرتفع رويدا[٤] رويدا فى الفضاء ويسرى رويدا رويدا من الاسماع الى الصدور . والتفتوا وكأنهم يسألون : ماذا ؟ .. هل عاد محمـــد الى الأرض ؟ .. ان لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين اليه أقوى ما ينبعث من صوت انسان الى صـــدر انسان ... فذابت قلوب لايذيبها الهول ، وبكى أشيب[٥] أولئك الأبطـــال وأصبرهم على حر القتال .

***

واذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا الى النظر من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله ،

---

(١) أي يظهر . (٢) له نفحة طيبة : أي رائحة . (٣) سادتهم وعظماؤهم.
(٤) أي شيئا فشيئا . (٥) أي أكبرهم سنا .

وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الاسلام ، وسيرته بعد الخلافة الى أن فارق الحياة ..

فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل ، وكان ينوط[1] مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب الى الامصار أن « علموا أولادكم السباحة والفروسية.ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر» ولا يفتأ يذكرهم انه « لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو » أى برمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

***

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية[2] ولم تكن من صفات الذهن وكفى ، فكان له فم يمتلىء بالـكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ، ولوحظ عليه انه كان ينطق ببعض الحروف ــ كالصاد ــ من كلا شدقيه وهى تنطق فى الاغلب من شدق واحد

وكان جهـورى[3] الصـوت واضح النطق سـليم الشفتين فى اخراج الحروف ، وكتابته كلها كأنها خطب ومرتجلات تقرأها فكأنك تصغى الى خطيب لا تفقد منه الا الصوت المسموع...

ولانطبـاعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب الا الذى يغير من نظرته الى الناس ويلجئه الى المداراة والباطل . فكان يقول : « ما يتصـعدنى[4] كلام كما تصعدنى خطب النكاح » . والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال : « ما أعرفه الا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق[5] من قرب فى أجواف الحداق ، ولأنه اذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، واذا علا المنبر صاروا سوقة[6] ورعية » والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح الى « أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه » وكلا القولين جائز فى بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم فى محافل النكاح . فهو مطبوع على

(١) أي يعلق . (٢) الفطرة . (٣) العالي الصوت . (٤) أي شق علي .
(٥) جمع حدقة ، والحدقة : سواد العين . (٦) أي عوام الناس .

أن يتكلم الى الناس كلام رجل يقود الرجال ، ومطبوع على الصـدق الذى تثقل على صاحبه المداهنة[١] ، وهى مما لا غنى عنه فى هـذا المقام ، ولو كان الخاطب من الأكفاء .

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى : أنه كان شـاعرا ورويت له أشعار لا تشبهه ولا ترضيه ، ونفى هو نظمه للشعر حين قال : « لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدا »

ولا طائل فى هذا الخلاف ، لأنه لن ينتهى الى رأى قاطع يسكت عليه ، ولكنما المهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعا على التعبير وله عبقرية فيه ، أو أن تعبيره كان خاصـا به لا يشبهه تعبير سـواه ، فهو تعبير عمرى بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحـد من أهل عصره حتى ليسـهل تمييز كلامه من كل كلام ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة

فمن خصوصياته فى التعبير انه كان يقول : « لولا الخليفى لأذنت » وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الاغراب .

ومنها وهو ينقل خبر اسلامه الى خاله : « وجئت الى خالى فأعلمتـه فدخل الى البيت وأجاف الباب » أى أوصده ! .

ومنها وهو يصف ما وقع فى نفسه من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال : « والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى » يعنى انه عجز عن القيام .

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة[٢] ، وأجود الخط أبينه » .

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى النـاس يوم أحد : انها « كانت تزفر للناس القرب » أى تحملها

ومنها فى المشورة : « الرأى الفرد كالخيط السحيل[٣] ، والرأيان كالخيطين المبرمين[٤] ، والثلاثة مرارا[٥] لايكاد ينتقض[٦] » .

ومنها حين كتب الى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة : « ... ولا تبعث سرية الا فى كثف من الناس » .

---

(١) اظهار خلاف ما يبطن . (٢) السرعة في القراءة . (٣) الخيـط السحيل : سهل القطع . (٤) أي المفتولين ، فيكون قطعهما شاقا . (٥) أي حبلا (٦) النقض في الحبل : ضد الابرام .

ومنها حين شكا اليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه :

ولا يردون المـــاء الا عشية　　　اذا صدر الوراد عن كل مورد

فقال ذلك أنفى « للسكاك » أى الزحام

ومنها فى سماحه بالبكاء: « ما لم يكن نقع[1] أو لقلقة[2] » أى ما لم يثر التراب ويفرط فى العويل ...

ومنها وقد حار بأهل الكوفة : « أعضل بى أهل الكوفة ما يرضـــون بأمير ولا يرضاهم أمير » .

ومنها : « ان قريشا تريد أن تكون مغويات لمال الله » أى مصـــائد تحتجنه[3] لها دون عباد الله .

ومنها : « تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا » أى تزيوا بزى العرب من معد بن عدنان

ومنها : « فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأســـين ، ولا تلثوا بدار معجزة » أى تقيموا

ومنها : « فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا » أى أن يتعرضا للقتل

ومنها : « ... ان الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى الضـــلالة ، فافهموا ما توعظون به ، فان الحريب من حرب فى دينه » يريد المسلوب

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة[4] يبرزها[5] زوجها فقال : « هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما » أى لأغلظت القول لهما

ومنها لما سألوه لم حصبت[6] المسجد فقال : « هو أغفر للنخامة وألين فى الموطن » أى أستر للبصاق

ومنها : « ثلاث من الفواقر : جار مقامة ان رأى حسنة سترها ، وان رأى سيئة أذاعها ، وامرأة ان دخلت عليها لسنتك وان غبت عنها لم تأمنها ، وسلطان ان أحسنت لم يحمدك ، وان أسأت قتـــلك » ولسنتك : أى تناولتك بلسانها ..

ومنها وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم السقيفة : « لقد هممت أن أطأك

---

(١) أي غبار . (٢) شدة الصوت . (٣) احتجنته : اذا جذبته بالمحجن الى نفسك . (٤) أي منكشفة . (٥) أي يظهرها . (٦) أى فرشته بالحصى .

حتى تندر عضدك » أى تسقط

ومنها وهو تتكلم عن امرىء القيس : « خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معانى عور أصح بصر » أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال : « والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه » أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه فى طلبه .

ومنها قوله لاعرابى استفتاه فى صيد ظبى وهو محرم : « أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا ! » ، أى تعيبها ولا ترضاها ! .

***

وأشباه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات ..

ويلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء . وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ، وانما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيار الأعلام . فلا تستطيع أن تسميها اغرابا[1] أو عسلطة[2] أو تعملا[3] بنحو من أنحائه ، اذ ليس وراءها قصد متفق فى جميع هذه الصيغ ، وأبين ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك ، وانها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها ، فهى قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف . وهكذا كان المتكلم عمر وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون منطبعا على التعبير ، فلو أن كلمات تتمثل رجلا لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلقه كما كان

***

ومحصل هذه الأخبار جميعا أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية ، وكان وافر السهم[4] فى ثقافة قومه وعصره ، وكان الجانب العملى من ثقافته

(١) الاغراب : الاتيان بالغريب . (٢) الكلام بلا نظام ، وكلام معسلط : مخلط . (٣) أي تصنعا . (٤) أي الحظ .

أغلب وأظهر من جوانبها النظرية،كما هو المعهود فى ساسة الأمم وعواهل[1] الدول ، وان كان هذا لا يمنع انه اشتاق الى نفائس الشعر ،وأطايب الأدب،لما يجده فيها من راحة النفس،ومتعة الخاطر ...

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية الى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى فى زمانه ، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الاسكندرية التى قيل انه أمر باحراقها . فهل هو الآمر باحراقها كما جاء فى تلك الرواية ؟ .. واذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره ؟ .. وما وجه التبعة فيه ؟ .. فحوى تلك الرواية أن عمرو ابن العاص رفع اليه خبر المكتبة الكبرى فى الاسكندرية ، فجاءه الجواب منه بما نصه : « أما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى : وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها » قال مفصل هـذه الرواية : فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها ! ..

وأحرى شىء أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين ادحضوها[2] وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخى الاوربيين الذين لايتهمون بالتشيع للمسلمين ، وكانوا جميعا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم فى هذا الموضوع :

فالمؤرخ الانجليزى الكبير ادوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب « الدولة الرومانية فى انحدارها وسقوطها » يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلا : « أما أنا من جانبى فاننى شديد الميل الى انكار الحادثة وتوابعها على السواء ، لأن الحادثة لعجيبة فى الحق كما يقول مؤرخها اذ يسألنا هو أن نسمع ما جرى ونعجب ! .. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحى وكلاهما مصرى ، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eutychius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الاسكندرية ، وان القضاء الصارم الذى نسب الى عمر لبغيض الى

(١) جمع عاهل ، والعاهل : الملك الاعظم كالخليفة · (٢) أدحضوها : أبطلوها ·

أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم احراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسلمين فى الحرب ، وما كان من الكتب دنيويا ظنينا[١] سواء ألّفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى[٢] الى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى[٣] من ذلك بالهدم والابادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعا لقلة المادة المحترقة ! .. فلا نرجع الى نكبة المكتبة فى الحريق الذى أصابها على غير قصد بيدى قيصرى وهو يدافع عن نفسه ، ولا الى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيرا لتعفية[٤] الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا نتحدر شيئا فشيئا من عصر أنتونين الى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى احدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير ، فان كانت هذه هى الوقود الذى أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الانسان ! .. »

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الانجليزى الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والاسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداء لأن حنا فليبوتوس الذى قيل انه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيا فى أيام فتح العرب لمصر .. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيرا من كتب القرن السابع كانت من الرق[٥] وهو لا يصلح للوقود ، وانها لو قضى الخليفة باحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا[٦] نقلها الى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع امكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان ، واننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوما ،

(١) المنهم · (٢) أي تنسب · (٣) أي أشد · (٤) يقال : عفا المنزل : أي درس · (٥) نوع من الجلد الرقيق يكتب فيه · (٦) أي تكلفه على مشقة ·

وهذا عدا الشك الذى يعتور[1] القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الاسكندرية ، ثم كتابتها بعد ذلك خلوا من المصادر والاسناد ، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد ، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين

والمستشرق كازانوفا يسمى الحكاية أسطورة ويقول انها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون ، وينقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر ، ثم يقول : « ... وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر ، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربا من عمرو ولم يذكر شيئا عن مكتبة الاسكندرية . فحادثة المكتبة اذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة فى عصره »

ثم يمضى فى تفنيده[2] فيقول : « وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التى حرقها عمر عند فتح العرب . وقال ابن خلدون فى كلام آخر : ان العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبى وقاص عمر عما يأمر به فى شأن الكتب التى بها فأمره بالقائها فى اليم[3] فانتقلت القصة من فارس الى الاسكندرية مع الزمن ، وفعل الخيال فعله فى تحريفها ...

« وقد وقع تحريف فى هذه الخرافة فى بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الاسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد ، وأن الترك فتحوا الاسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموا[4] فيها النار على عهد أحمد بن طولون ... ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر ، وانما أقامه خليفة بغداد حاكما عليها . فلا علاقة للترك اذن بهذا الحادث المزعوم »

قال : « وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضباط الانجليز اتهم نابليون الأول باحراق مكتبة الاسكندرية »

قال : « وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى

---

(١) أي يعيبها • (٢) اللوم وتضعيف الرأي • (٣) اليم : البحر •
(٤) أضرموا : أي أشعلوا •

القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك » ...

« ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر الى حكم خلفاء بغداد . وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر ، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس ، وعاصر عبد اللطيف البغدادى وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين ، فتلاقيا فى القدس وسمع منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها . فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد . ومما يروى عن صلاح الدين:انه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية الى القرن الثامن عشر يوشيها[١] ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية . ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها[٢] خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله الا كتاب الله » ..

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » حيث قال : انه كان يميل الى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا الى قبولها وأورد من أسباب ذلك « ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها أبوالفرج تعصب دينى ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرا محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار . ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب ، وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صدده

(١) الوشي : نقش الثوب وتزيينه . ومعنى يوشيها : يزينها ويحسنها .
(٢) تعززها : أي تقويها .

وان ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذا عن مصدر ضائع . وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة ، فلا بد له من سبب ، والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو لعل لذلك سببا آخر ، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج ... »

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين ، فان ابن القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات . فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية الى أن نجمت[1] بعد بضعة قرون ..

***

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات فى هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها ، وانها موضوعة فى القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح ، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم[2] عليه وعلى الاسلام

واذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه الى الكتب المدونة ، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليما بالأقوال والأحوال التى أثرت عن عمر بن الخطاب وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما

(١) نجم الشيء : ظهر وطلع . (٢) أي القبيح المذموم .

يتوخاه[٢] الخليفة فى أوامره ونواهيه ... ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الاسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الاسرائيليين ، وانما عمت واستفاضت بعد ما دونت السير وجمعت المتفرقات .

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملفق عارفا بما فى هذه التهمة من المعابة ، شاعرا بما فيها من الاعتساف[٣] والغرابة ولم يكن هذا أيضا مفهوما فى أيام فتح اسكندرية بين خصوم الاسلام ، لأنهم كانوا قد تعودوا احراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجسا[٤] من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم الا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين فى تدمير التحف الاغريقية ولا سيما « ثاوديسيس » الذى أحرق هياكل شتى فيها ولاشك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التى عليها الخلاف .

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال ، ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت فى أوقات الحروب الصليبية ، يوم كانت هى ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها .

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر عصر حزازة[٥] بين الاسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك فى القيل والقال حافظو الكتب الاغريقية فى بيزنطية وشواطىء آسيا الغربية وهى البلاد التى كانت موطىء أقدام الجيوش فى الكر والفر والقدوم والاياب ، ومنها تدفق حافظو الكتب الى أوربا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلفيق الحكاية اذن كان عجيبا فى أيام فتح الاسكندرية وما تلاها من الأزمنة الى زمان القفطى والبغدادى وأبى الفرج الملطى ، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة فى تلك الأيام .

وتلفيقها فى عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التى

---

(١) أحاديث ملفقة : أي أكاذيب مزخرفة . (٢) يتحراه ويقصده .
(٣) الاخذ على غير الطريق . (٤) القذر . (٥) وجع في القلب من غيظ .

يستلزمها ذلك التلفيق ، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذى يبطل العجب ويفسر الغوامض التى لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل ..

***

الا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر باحراق مكتبة الاسكندرية ، فما هى الوصمه[1] التى تلحقه من هذا الأمر؟.. ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها ؟ .. ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شىء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها ؟ ..

أمن النقص فى تفكير الانسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟.. أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضـــوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها ، ان صح أنهم حفظوها ؟ ..

ان أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة ، وان ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفريط فيها

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفساف الأمور . فاذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، واذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ[2] الاعتقـــاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره ان صح انه فكر على ذلك المنوال ؟ ..

انما يعيب الانســـان أن يكون عدوا للمعرفة على اطلاقها ، ولم يكن عمر عدوا للمعرفة ولا معرضا عنها ، بل كان مشغوفا بها حيث رآها ، دينية كانت أو أدبية ، ومن قومه أتت أو من غير قومه

فكان يستشير الغرباء فى تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شىء الا أن تكون فيه فتنة أو ضلال

(١) العيب والعار . (٢) تجيز .

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب ، وهذا واجبه الأول الذى لا مراء فيه ، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص ، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل[1] العقد الذى جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسودهم[2] على العالمين .

وفى الأخبار التى نقلت بهذا الصدد ، أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتابا فيه كلام معجب . فسأله : أمن كتاب الله ؟ .. فقال : لا ... فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ : « الر . تلك آيات الكتاب المبين . انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون[3] ... » ثم قال : « انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم »

رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه ، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمل عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والايمان الى حين ..

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات الى النور وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذى يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه الى كتب لا يؤمن ما فيها ؟ .. وكيف يكون الحال اذا تفرقوا شذر مذر ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه ؟ .. أمن عداوة المعرفة هذا أو من ايثار المعرفة التى تتقدم على غيرها ؟ .. واذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم ؟ .. ومتى يعطى القرآن حقه من الفقه والوعى والاقبال ؟ .. وأين هى الغنيمة الروحية التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الاسلام ؟ ..

---

(١) أي ينفرط . (٢) أي جعلهم سادة . (٣) الآية : ٢٥١ من سورة يوسف .

فعلى أى فرض من الفروض ، لم يكن فى تصرف عمر ما يأباه العقل الذى ينظر الى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة ، ويجوز أنه أمر باحراق مكتبة الاسكندرية على أبعد احتمال ، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب ، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ، ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها . ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها . ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون[1] فى الضلالة والهزيمة ، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير أنه لم يفكر على هدى مستقيم ...



(١) يخبطون : أي يضربون ·

عمر فى بيته

كان الخليفة الأكبر ـ صاحب الأمر فى الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدير الحكم فى الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور ـ رجلا فقيرا يعيش فى بيته عيشة الكفاف[1] ، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثير من النساء .

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبى عليه السلام ، فلم يقبلنه الا وقد خيرن بينه وبين الطلاق ..

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فان الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى ، وهى جميعا مما تغالى به السير وتزدان بجمانه . ولكنا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين : أن يعيش فى بيته عيشا لا يشتهى ، وأن تكون فى يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة[2] تغرها[3] ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأباها ..

ان امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى فى الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن فى سلطانه

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفا ، لم نسمع فيما قيل عن ايمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم ابان بنت عتبة بن ربيعة :

انه رجل « أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه »

والذى نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله انه كان يخافه كأنه يراه بعينه ..

فهو فى الحق أصدق وصف لايمان هذا الرجل المتفرد بايمانه كما تفرد

(١) الكفاف من الرزق : ما كف عين الناس وأغنى . (٢) الخديعة ، واختلبه : خدعه ، وخلاب وخلبوب : البرق ، والخداع الكذاب . (٣) اي تخدعها .

بكثير من شؤونه . انه تجاوز حد الايمان الى حد الرؤية والعيان ، وحقق مبالغات أبى الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهما يكن من ايمان بالغيب فهو لا يبلغ فى اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين ، وهى قولة عائرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل ، ولعلها لا تدرى مدى صوابها .

وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر الى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له : الأمر اليك . ثم سألت أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى فيه . فزجرتها قائلة : أترغبين[1] عن أمير المؤمنين ؟.. قالت : نعم ، انه خشن العيش شديد على النساء . وكرهت عائشة أن تجبهه[2] بالرفض فوسطت فى الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدبيره ، فجاء عمر وفاجأه قائلا : بلغنى خبر أعيذك بالله منه . قال : ما هو ؟.. قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر .. قال : نعم ، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ .. قال : لا واحدة ، ولكنها حدثة[3] نشأت تحت كنف[4] أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها ان خالفتك فى شىء فسطوت[5] بها ؟.. كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !.. ففهم عمر أن ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط ، وان فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء .. فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة : كيف بعائشة وقد كلمتها ؟.. قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله

وأم كلثوم بنت على حدثة أيضا ، والمحظور فى اغضابها أكبر من المحظور فى اغضاب بنت أبى بكر ، وان اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها فقد كان حريا به أن يعتمد على شىء من ذلك فى

(١) رغب بالشىء : أراده ، ورغب عن الشيء : لم يرده . (٢) أي تواجهه . (٣) أي صغيرة السن . (٤) الجانب . (٥) القهر بالبطش .

خطبته لبنت الصـديق ... فلن يفوت عمر — وهو يعلم من يخاطبه فى الأمر — آن يفهم خبيئة[1] سعيه وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما ، ويعمل بما يراه الصواب

والطريف فى القصة — وكلها طريف — أن يذهب عمرو بن العاص الى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه ، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته اياه ما دام على صدق فى مقاله .

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريح اليها ، ولكن دارس الاخلاق لا ينبغى أن يعيب هذه الخصلة الا بمقدار ما فيها من نقص فى الطبائع الانسانية الأصيلة .. اذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل[2] والمرونة ، ولكننا نخطىء كل الخطأ انحسبناها حرمانا من البر والرحمة ، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة ، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمـة ، ويغلب فى هـذه الحالة أن تكون خشونته — كما أسلفنا فى فصل سابق — درعا يستر بها مواضع اللين فى خلقه ، وضربا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق اليها الضعف وتنفذ منها الرماية ..

فالخشونة نقيض الصقل والنعومة ، وليست نقيض العطف والرحمة . وعمر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء ، حتى فى علاقاته بالأهل والنساء .

رحمة عمر رحمـة فى غلاف وليست بالرحمة المكشـوفة لكل ناظر ولامس ، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع[3] هـذا الغلاف عن قلب وديع مفعم[4] بالعطف والمودة ، مفتح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولى حميم[5] .

فنساؤه اللائى عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهن بمودته وعطفه ، وكانت احداهن التى سميت العاصية وسماها النبى عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه . فاذا خرج مشت معه الى باب الدار فقبلته.ولم تزل فى انتظاره ..

---

(١) ما خبىء وغاب • (٢) الجلاء • (٣) يذهب • (٤) ملىء • (٥) أى قريب •

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد ، وهى على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة ، تولهت[1] فى رثائه حين قتل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ، وتعددت قصائدها فى تأبينه[2] بكلام لايغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة ، وهى التى قالت فيه :

عصمة الناس والمعين على الدهـ ـر وغيث المنتـاب والمحروب[3]
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب[4]

وقالت فيه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدا أخى ثقة فى النائبـات منيب
متى ما يقل لا يكذب الله قوله سريع الى الخيرات غير قطوب[5]

وقالت فيه :

جسـد لفـف فى أكفـانه رحمة الله على ذاك الجسـد

وقالت فيه :

يا ليـلة حبست علىَّ نجومهـا فسـهرتها والشـامتون هجود[6]
قد كان يسهرنى حـذارك مرة فاليـوم حقَّ لعينى التسهيـد[7]

ولا يبكى الرجل هذا البكاء على ما فيه عيشه من الشظف الا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ الى القلوب

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الاصابة . فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه ، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من اظهار أو تظاهر غير مشعور به ، وغير مقصود .

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عنيناها ؟ ..

المرأة ولا نزاع ! ..

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها ، وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور »

---

(١) ذهاب العقل ، والتحير من شدة الوحدة . (٢) الثناء على الشخص بعد موته . (٣) سلب ماله ، فهو محروب . (٤) المنية . (٥) الذي زوى ما بين عينيه . (٦) أي نائمون . (٧) الارق .

وعلى المرأة ومن المرأة كان حــذره أن تتخايل للعيــون وتتبرج فى مضطرب الفتون

وكلما أوصى بوصية فيهـا فانما هى الفتنة التى يتقيها ، فلما قال : عليكم بالأبكار . لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنضر ، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حبا وأقل خبا[١].

ولمـا توجس[٢] من زواج المسلمين ببنات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن « فى نساء الأعاجم خلابة[٣] فان أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » ..

فالخلابة هى المحذور الذى يتقى

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر ، انك لا تبعد كثيرا حتى تلمس الموضع الذى نمّ عليه الرجل حيث قال : « لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما » .. أو نم عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال : « أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى فاذا احتيج اليه كان رجلا »

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك الشىء المهين ، وان قال الغيور الحذور بلسانه انها لشىء مهين ؟ ..

***

وابحث عن جانب واحــد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغى أن يوصل فانك لن تجده فى نفس هذا الرجل بتة ، وان جهدت فى البحث ..

فكان ابنــا بارا لاينسى التحدث عن أبيه ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه فى صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبى ، فانتهى وهو يقارب الكهولة

وكان أبا يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال لا يحنو[٤] على صغاره ... أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبى صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبله فسأله المرشح للولاية : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين ؟ .. ان لى عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم ولا دنا أحدهم

(١) خبا : أي خداعا ٠ (٢) توجس : أضمر الخوف ٠ (٣) أي خداع

(٤) لا يحنو : لا يعطف ٠

منى ... فقال له عمر : وما ذنبى ان كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك ... انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : انه اذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟ ..

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق اليه أبوه الهرم[١] وحزن لغيابه ، واتصل نبؤه بعمر فكتب الى قائد الجيش يستعيد كلابا الى المدينة . فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برك بأبيك . قال : كنت أكفيه أمره ، وكنت أعتمد اذا أردت أن أحلب لبنا أغزر ناقة فى ابله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها[٢] حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه ..

ثم بعث الى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفا بصره محنيا ظهره فسأله : كيف أنت يا أبا كلاب ؟.. قال : كما ترى يا أمير المؤمنين ... ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل ، وقال وهو يدنى الاناء الى فمه : لعمر الله يا أمير المؤمنين انى لأشم رائحة يدى كلاب من هذا الاناء ! .. فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به . فوثب اليه ابنه ، وطفق[٣] الأب الذى لم يكد يراه يضمه ويقبله ... وبكى عمر ، وأمر كلابا أن يلزم أبويه ما بقيا ، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله

ومن حنانه على الأطفال انه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه ، فحدث سنان بن سلمة انه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية اذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه ، فلما دنا منه أسرع قائلا : يا أمير المؤمنين ! .. انما هذا ما ألقت الريح . قال : أرنى أنظر فانه لا يخفى على . فنظر فى حجره ثم قال : صدقت ، الا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين الى بيته . فقال : يا أمير المؤمنين ! أترى هؤلاء الآن ؟.. وأشار الى الصبية الهاربين . ثم قال : والله لئن انطلقت لأغاروا على فانتزعوا ما معى ، فمشى معه عمر حتى بلغه بيته !..

وكثير على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم

(١) كبر السن . (٢) أي ضرع الناقة ، أو حلمة ضرعها . (٣) أي جعل .

يصدقوا أنه وأد بنتا فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت الينا فى بعض الروايات ، وخلاصتها « انه رضى الله عنه كان جالسا مع بعض الصحابة اذ ضحك قليلا ثم بكى . فسأله من حضر فقال : كنا فى الجاهلية نصنع صنما من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى . أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة ، فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حية » .

فهى قصة يعتورها[١] الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته واسلامه ، وادعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها الى ذروتها[٢] ، وهى نفض الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها ...

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية . ولم يشتهر بنو عدى خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص باسمها ...

وقد ولدت حفصة قبل البعث الاسلامى بخمس سنوات فلم يئدها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها ؟ .. لماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من اخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخؤولتها ؟ ..

ما نحسبها الا احدى جنايات الاغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للأغراب والاعجاب . فهى اختراعة تضعفها قرائن التاريخ ، وتضعفها خلائق عمر التى لا تتبدل هذا التبدل من النقيض الى النقيض بين جاهليته واسلامه . وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه . وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقى عليه . فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعا لغرابتها ومقربا لتصديقها . وغير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التى لا تطاق

---

(١) أي يخالطها . (٢) أي قمتها .

ان قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه ، وان قليلا من الاخوة من أحب أخا كما أحب عمر زيدا أخاه ، فما سمع اسمــه بعد مقتله الا سالت عبرته[١] ، وما هبت الصبا ، كما قال ــ الا وجــد نسيم زيد ــ وتمنى نظم الشعر لينظمه فى رثائه

بل ان قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير ... وهو القائل : « لقاء الاخوان جلاء الاحزان» وهو القائل حرصا على المودة وضنا بها : « اذا أصاب أحدكم ودا[٢] من أخيه فليتمسك به ، فقلما يصيب ذلك »

***

فاذا أردنا أن ننقب عن وشائج[٣] الرحم وصلات المودة فى نفس هــذا الرجل المهيب المخيف فلننقب[٤] عنهــا فى ينابيعها الخفية التى تسرى منها وتترقرق فى نواحيها ، ولا ننقبن عنها فى الصخور التى تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها ...

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة . فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شيء تحتويه ...

فما هذه الصخور والأعلام التى كانت تروع[٥] الناظر من هيبة عمر ومن ملامح سيماه ؟ ..

هى مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهى الحارس اليقظ الذى يحمى تلك النفس أن يتسرب اليها الوهن وأن تؤخذ على غرة[٦] ، من حيث يخاف عليها

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن . ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع فى سربه[٧] . انما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر ، وانما يحذر من الطارق الذى لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه ..

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصــاما بقدرته فى أمس

---

(١) أي دموعه • (٢) الحب • (٣) أي روابط وعلائق • (٤) فلنبحث •
(٥) أي ترهب وتخيف • (٦) أي غفلة • (٧) النفس •

الأمور بقلبه وسريرة طبعه : فى خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة فهو لا يستسلم لشهوة مأكل ولا ملبس ولا قنية[1] دنيوية . وفى خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل[2] من أن يرى لهم رزقا لا يعرف مأتاه ، ويجفل من أن يرى لهم ابلا سمانا بين الابل العجاف[3]، مخافة أن يسمنها لهم الناس فى مراعيهم .. لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك ابل أبناء أمير المؤمنين ؟ ..

وكان أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التى يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هى المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها . فمن شرارها استعذ بالله ! .. ومن خيارها كن على حذر ! ..

واذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئا واحدا لن تجد حولا[4] عنه ، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر ، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفى سبيل الحق انتصاره

يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور ، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هى بظالمة ولا مظلومة فى كل أمر يرجع اليه

فمن همه كان ألا تظلم لضعفها ، ولا تغبن لحيائها ، وخفرها[5]، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه ، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره فى الصلة بينها وبينه . فسمع مرة اعرابية تنشد :

فمنهن من تسقى بعذب[6] مبرد نقاخ فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن[7] أجاج[8] ولولا خشية الله فرت

فتوهم فى زوجها عيبا وأرسل فى طلبه فاذا هو متغير الفم . فخيره بين خمسمائة درهم وطلاقها .. فقبل الدراهم وطلقها ..

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى الا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شىء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه

(١) فيمي الرجل : أي صار غنيا وراضيا . (٢) المنزعج . (٣) الهزال . (٤) أي تحولا . (٥) بمعنى شدة الحياء . (٦) الماء العذب البارد . (٧) الماء المتغير الطعم واللون . (٨) أي ملح مر .

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج فى غزوة طالت غيبته فيها ، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج فى الغزوات...

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذى يهمل النظافة والزينة لأن النساء « يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم »

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب[1] قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط[2] الرأس بالشيب ، فأوجعه ضربا وقال : غررت القوم

***

ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها ما لا يضير ستره ان عاق زواجها . فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله ، فهمّت أن تذبح نفسها ، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها[3] فبرئت وتابت واستقامت على الهداية . فسأله : أأخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها ؟ .. قال : ويلك ! .. أتعمد الى ما ستره الله فتبديه ؟ .. والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا[4] .. « انكحها نكاح العفيفة المسلمة » .

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير فى المحاباة ، وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه « ليمنعن النساء الا من الأكفاء » .

ونرى انه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء الأسر وتعمير البيوت ، حيث قال لرجل همَّ بطلاق امرأته لأنه لايحبها : « أوكل البيوت بنى على الحب ؟ .. فأين الرعاية والتذمم[5] ؟ .. »

فانه لبر بربات البيوت لم يدركه متحذلقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذمم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده . لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونة وأخرى . وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التى قلَّ أن يطرأ عليها تغيير ..

***

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون ،

---

(١) الذي صبغ شعره بالحناء ونموها . (٢) خالطه . (٣) عرق بالعنق . (٤) أي عبرة لغيرك . (٥) استنكف . (٦) المشرقة الواضحة .

ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه اذا ردته عنه امرأة بالبينة الصادعة .
ومن ذاك أنه نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النســاء على أربعين أوقية ، فصاحت به امرأة فطساء[١] من صفوف النساء : ما ذاك لك ؟ .. فلم يأنف أن يســألها : ولم ؟ .. قالت : لأن الله تعالى يقول : « ... وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا[٢] » . فرجع عن خطئه واعترف بصوابها

***

فما للمرأة من حق تعطاه

وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد[٣] عنه

والذى ليس لها بحق فى رأى عمر — ورأى كل رجل ذى رجولة — ألا تتعرض لعمله الذى لا تفقهه ولا يرجع اليها فى مثله ، ولا سيما ان كان شأنا من شؤون الدولة ومهمة من أخص مهام الرجال ، فتشفعت له امرأته فى وال مقصر تســأله : فيم وجدت[٤] عليه ؟ .. فالتفت غاضبا وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟ .. انما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين ! ..

كلمة لا تلبس القفاز الناعم ، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس فى كل حين

والذى ليس بحق للمرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليها ، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال : «...كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنــا على الانصار اذا هم قوم تغلبهم نســاؤهم . فطفق[٥] نساؤنا يأخذن من أدب نساء الانصار . وصحت على امرأتى فراجعتنى فأنكرت أن تراجعنى . قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ .. فوالله ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وان احــداهن لتهجره اليوم حتى الليل . فأفزعنى ... »

نعم هذا مفزع لعمر ، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته فى بيته . لكن طريقة محمد فى تغليب الكلمة طريقة نبى يؤم متبعيه ، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة ، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد فى كل ما سبق اليه

(١) التي انغرس أنفها في وجهها • (٢) من الآية : ٢٠ من سورة النساء• (٣) أي تدافع • (٤) أي غضبت • (٥) أي فجعل •

فمحمد انسان عظيم ، وعمر رجل عظيم . وهذا هو الفارق بينهما كما بيناه فى مناسبة سابقة . وانما الفارق بينهما فى المناسبة التى نحن بصددها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندى فى معرض القوة والنضال ، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها فى معرض الهوى والفتنة ، فيكسرها ولا ينكسر لها اذا لجت فى الغرور وانطلقت فى عنانه . ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه — عبد الله — لأنه عجز عن تطليق زوجه . فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه فى ذلك : « ويحك ! .. كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ .. »

أما الانسان العظيم فهو يشمل ضعف الانسانية كله ويعطف عليه . ومنه ضعف المرأة فى غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة ، لأنه فى حقيقته اعتزازٌ بمكانها منها وتقدير لتلك القوة فى بعض نواحيها . فهو يرى فى تكبر المرأة اذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها فى ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين اذ هو ميدان الانسان كله والانسانية جمعاء .

***

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه : فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن فى عالمها يظهر لنا من رأيها هى فيه...

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده ، وهى عائشة رضى الله عنها ، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت انه « كان اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا » . وصاحت أم أيمن مرضعة النبى يوم أصيب : اليوم وَهَى[1] الاسلام ..

وعلينا نحن أن نسأل المرأة فى عصر عمر عن مثال الرجل فى عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ فى الرجل الذى يكبر فى عينيها كما نعرفه من امرأة هى:هند بنت

(١) وهى السقاء : تحزن وانشق ، ووهى الحائط : ضعف وكاد يسقط.

عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه ..

جاءها أبوها يشاورها فى رجلين من قومها يخطبانها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله ، وأما الآخر فموسع عليه منظور اليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب[١]. مدره أرومته وعز عشيرته شديد الغيرة لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » ..

فقالت : « يا أبت !.. الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد ابائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت[٢] وخافها أهلها فأمنت ؟.. ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت . وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد ! .. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة[٣] الحرة العقيلة[٤]، وانى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه »

ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجيبة فى زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأيها فى كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان ، فان زادت خشونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة غير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عمر « الزوج » من ناحية حتى تحسب لعمر « الرجل » من ناحية أخرى : اذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش ، وانما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهى خليقة تعجب بها المرأة فى الرجل الذى تكبره ، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه .

***

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللائى تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث فى المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب فى الكلام عن موقع كل منهن من نفسه

---

(١) العاقل . (٢) برح . (٣) البكر لم تمسس ، أو الحفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة . (٤) كريمة الحي .

وأثرها فى حياته ومبلغ حظوتها[1] عنده وسبب هذه الحظوة فى رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه — فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف فى هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه الا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات ، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئا كثيرا فى هذا الباب لأننا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس الى ما عرفناه ، فلا نخطىء اذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعا تدخل فى نطاق الوصف الذى كان يستحبه عمر فى المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه

فأفضل ما كان يشرطه فى المرأة أن تكون ولودا ودودا وألا تعاب بالحمق فيسرى حمقها فى دماء وليدها . اذ « لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقا[2] » كما قال

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان فى جميع خلائقه عربيا بحتا[3] يستملح ما يستملحه كل عربى صميم ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحة ، ويروى عنه أنه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء[4] عيناء ، فان فركتها[5] فعلى صداقها » . وانه قال : « اذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها » . وهذان هما الملاحة والحسن كما وصفا فى الشعر العربى من قديم الى حديث .

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات . فقد وصف أكثرهن بالحسن البارع وضرب المثل بملاحة احداهن بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية ابن المغيرة . فروى فى مأثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يوما فى حضرة النبى عليه السلام : ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن ! .. فقال له عليه السلام : « هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟ » . وهى احدى زوجات عمر قبل اسلامه

وروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها

---

(١) أي نزلتها ٠ (٢) أي غبيا أحمق ٠ (٣) أي صرفا ٠ (٤) أي صغيرة الانف ، مستوية الارنبة ٠ (٥) أي أبغضتها ٠

فى الجاهلية عاصية فكرهته بعد اسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة .

وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى ..

وروى مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وان لم يتفوقن هذا التفوق المشهور ..

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة ... تزوج بالأولى وطلقها قبل اسلامه . وتزوج بالثانية وطلقها بعد اسلامه ، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شموس[1] المرأة غير صبور ؟ .. لعله ذاك ، ولعل الذى أبقى عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضت من دلالها بالفطنة[2] والتقوى .

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة ، وولدت له ابنا سماه باسم أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه ، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة[3] النبوة ، فلم يفترقا فى الحياة ، ولم ينشب بينهما خلاف الا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها الى بيت المال .

وله مع احدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لايفوتنا ايرادها فى الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر فى أبوته ، وتدل على عمر فى سورة طبعه[4] ، وتدل على عمر فى مثوبته[5] الى الحق كلما وجب أن يثوب اليه .

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير . فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جدته الشموس بنت أبى عامر وجعلت تنازعه اياه حتى انتهيا الى أبى بكر رضى الله عنه وهو خليفة . فقال له أبو بكر: خل بينه وبينها فهى حاضنته ، فرده اليها ولم يراجعه بكلمة

(١) الشموس : صعوبة الخلق . (٢) الفطنة : الفهم . (٣) أي رابطة .
(٤) أي حدته . (٥) أي رجوعه .

ولعمرى ان فى هـذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص ، وفيها عمر انسان عطوف ، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة ، رفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والانصاف ، وهذا هو عمر فى شتى نواحيه .

وقد تدل هذه القصة على شىء يبرئه من بعض اللوم فى تطليقه أم هذا الولد ، فاسمها عاصية واسم أمها الشموس ، وكأنهما ـ كما ينبىء عنهما هذان الاسمان ـ من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة ، وقد يضيف الى توكيد هـذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له : سميتنى باسم الاماء ! .. ثم اختار لها النبى هذا الاسم ، فقالت : يارسول الله !.. أتيت عمر فسمانى جميلة فغضبت ، قال عليه السلام : أو ما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه .

فكأنها نشأت فى قوم يعتقدون ان التحسين والترغيب انما هو من شأن الاماء ، وان الشموس والعصيان أليق بالحرائر وان أحببن أزواجهن وأحبوهن ، فان كان فى تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته .

***

ورزق عمر الذرية من ذكور واناث نجباء[1] ونجيبات ، فقرت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها ، وكانوا جميعا عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هـذه الذرية أو جانب أهله على التعميم ، ولهذا كان يجمعهم اذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم « ان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم » ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة ! ..

وليس بنا أن نحصى فتاواه وأقضيته فى محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه

---

(١) النجيب : الكريم .

خاصة قبل سائر أهله . فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته ، ولكنا نكتفي بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه فى اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين ، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا فى جيش الى العراق ، فلما قفلا[1] نزلا بالبصرة وذهبا الى أبى موسى الأشعرى وهو أميرها ، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به ؟ .. ثم عرض عليهما أن يحملا الى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة ، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟ .. ثم أمرهما أن يؤديا المـال وربحه ... فسكت عبد الله وقال عبيد الله : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه ! .. وقال رجل فى المجلس : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا ؟ .. فأخذ رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ ابناه نصف ربح المـال ..

وانما كان عمر يتقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه واقرار هذه المحاباة باذنه ، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به فى أهله ، ويلجأ الى التجارة لقلة رزقه الذى فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين ، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسـول الله . فقـال عثمان : كل واطعم ، وقال على : ما يصلحك ويصلح عيـالك بالمعروف ، وقال هو : ان افتقرت أكلت بالمعروف وان أيسرت قضيت

وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد فى تقاضيه ، فيحتال له عمر ويؤجله الى أن يستحق عطـاءه مع عطـاء المسلمين ، فيسد به دينه .

ومع هـذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال الا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه ، فأرسل مرة الى عبد الرحمن بن عوف فى طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا الى الشام ، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها ! .. وشق ذلك عليه فلقى صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال : أفئن مت قبل أن تجىء قلتم أخذها أميرالمؤمنين

(١) قفلا : أي رجعا .

دعوها له وأوخذ يوم القيامة ؟ .. « لا .. ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح[1] مثلك ، فان مت أخذها من ميراثى »

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد ديونه جميعا فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التى يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله وقال لابنه : « ان وفى به — أى بالدين — مال آل عمر فأده من أموالهم ، والا فاسأل فيه بنى عدى ، فان لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشا ولا تعدهم الى غيرهم ، وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فأشار عليه مقترحا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى فلم يقبل عمر ، ودعا بابنه عبد الله فقال : اضمنها ! فضمنها ، ووفى بوعده فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الانصار ، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال الى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه . وقد بيعت لعمر دار فى هذا الذين وسميت زمنا باسم دار القضاء ، لأنها بيعت فى قضاء دينه

ولأن يموت عمر مدينا ، وفى الدين ، لهو أعظم الشرفين ... وأيسر من ذلك شرفا أن يموت غنيا بغير دين .

(١) شحيح : أي ممسك بخيل حريص .

صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب فى حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال ..

صحبناه فىجاهليته واسلامه ، وفى سره وعلانيته ، وفى بيته وحكومته ، وفى دينه وثقافته ، وفى اتصاله بالله واتصاله بالناس . فاذا الصورة المجملة من جميع هـذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور . واذا هو صـاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الانسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه الى غاية واحدة : وهى احقاق الحق وادحاض[1] البـاطل ، ووسمته جميعا بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للنـاس وتحميها من الناس ، وهو هو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السواء

ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصا آخر غريبا عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته ، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدا وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب : بخ بخ ياعمر !.. ويحك يا ابن الخطاب ! ماذا يقول عمر ؟.. وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى ... الى أشباه هذه التجريدات التى تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء ، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة : « باطنه خير من ظاهره » أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه : « ان مبغضيه هم المبغضون للخير »

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله . فكان عبد الله بن مسعود يقول : « لو أعلم عمر كان يحب كلبا لأحببته ،

---

(١) أي أبطال .

والله انى لأحسب العضاه[1] قد وجدت[2] فقد عمر »

والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم فى السر والعلانية ، بل تحجب عنهم ألفــة الأقربين فى كثير من الأحيــان ، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم اليهم :

أعاذك أنس المجد من كل وحشــة فانك فى هــذا الأنام غريب

ولكنهم لا يكرهون الا عن خطــأ أو حســد لئيم . وكان عمر على التخصيص ممن لايثيرون شعور الكراهية فى قلب انسان : لأنه كان على عظم « شخصيته » مبرأ من العنصر الشخصى ، فى معاملة الأصــدقاء والخصوم . وانما ينجم[3] العداء الشــديد من الاحساس بهذا « العنصر الشخصى » ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام...

فالذين كانوا يذوقون انصــاف عمر كانوا يستمرئونه[4] ويحبــونه ، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لايشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا لهم صوالا عليهم ، وانما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رؤوسهم . يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة .

ولهذه الخصلة ذكره بالحب والاعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء ، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء .

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا فى حيــاته بضربات عدله وهيبته ، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء ، كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحم الله ذلك المرء ! .. ويثنى عليه . وقد قال عمرو بن العاص اذ رأى عمر يبكى لاستعطاف الحطيئة اياه فى سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء[5] أعدل من رجل يبكى على تركه الحطيئة ! ..

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء

---

(١) جمــع عضاهة : وهــو شجر كبير لــه شوك . (٢) أي حزنت .
(٣) أي يظهر . (٤) من قولهم : مــرأ الطعام فهو مــرىء هنيء حميد المغبة .
(٥) الارض .

« شخصية » أو خلة[1] ترتبط بحياته الفردية . فانما البغضاء « الوطنية » هى علة التآمر على قتله بين المغلوبين فى ميدان القتال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فانما هى فى أصلها « بغضاء وطنية » كامنة[2] وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وان تطاولت الأيام .

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز « أبى لؤلؤة » من سبايا الفرس بالمدينة ، وان فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا اليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمين فى كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه انه « نجار نقاش حداد » ... فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال ؛ وقال له : قد بلغنى انك تقول : « لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت » وطلب اليه أن يصنع رحى على هذه الصفة ؛ فقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ... ثم انصرف وهو يقول : « وسع الناس عدله غيرى ! » . فقال عمر لسامعيه : لقد توعدنى العبد آنفا ... ولم يؤاخذه بهذا الوعيد بل كان من نيته أن يلقى المغيرة ليخفف عن مولاه ..

هذا هو السبب الظاهر الذى لا يستر ما وراءه ، لأن « أبا لؤلؤة » لم يكن الا منفذا للكيد الذى اتفق عليه كثيرون ، وقد روى عبد الرحمن ابن أبى بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون ، فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه ان أخذ بفعلته .

والهرمزان أمير زالت عنه الامارة بعد ذهاب الدولة المجوسية ، وجفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس ، و « أبو لؤلؤة » فارسى شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء الى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رؤوسهم وتوعد المسلمين أجمعين .

(١) الخصلة . (٢) أي مستترة .

وقد شاركهم فى هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر بالاسلام وهو المسمى بكعب الأحبار ، ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة ، فذهب الى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولى عهده لأنه ميت فى ثلاثة أيام ... فسأله عمر : وما يدريك ؟ .. قال : أجده فى كتاب الله التوراة . فلم تجز هـذه الدعوة على عمر ، وعاد يسأله : « آلله ! .. انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ » فأشفق[1] الرجل أن ينكشف دجله وقال : « بل أجد صفتك وحليتك وانه قد فنى أجلك » .. ثم كرر له النذير مرتين فى اليومين التاليين ..

فعمر انما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الاسلامية لا شك فيهـا ، وما كانت قصـة الخراج الا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق[2] بهم اذا جهروا بما دبروه ، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير

ان مقتل عمر أحرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف اليها ...

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والايثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير

وكان رضى الله عنه ينظر الى الحياة كأنها رسـالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها اذا فرغ من رسـالتها أو حيل بينه وبين أدائها ، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه الى السماء ، ودعا الله : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك »

مضت أسـابيع فخرج يوما قبيـل الفجر يوقظ النـاس ثم يسوى

---

(١) أي خاف . (٢) ينزل .

الصفوف للصلاة ، فلم يكد يؤم النـاس حتى فاجأه القاتل بطعنتين احداهما فى كتفه ، والأخرى فى خاصرته ، وقيل ثلاث طعنات .. احداهن تحت السرة ، وقد خرقت الصفاقين[1] قضى بها نحبه[2] رحمه الله . وقيل : بل ست طعنات .. منها تلك الطعنة القاتلة ..

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس .

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه اذا دعوه . حتى قال بعض عارفيه : انكم لن تفزعوه بشىء مثل الصلاة ان كانت به حياة .. فنودى : الصلاة .. الصلاة ! .. فلما سمع النـداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة ! .. ها ... الله ... اذن .. » ثم قال : « لا حظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة ... »

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل الى منزله الا أن يعرف : أمظلمة كان قتله أم لبغى من القاتل ؟ .. فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفا ؟ .. ثم حمد الله قائلا : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط .. ما كانت العرب لتقتلنى »

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند النـاس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج الى المهاجرين والانصار يسألهم : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ .. فصاحوا معلنين : « لا والله .. ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا » .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها ، فنهاهم أن يبكوا عليه . ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدم هو أم النقيع خرج بلونه ؟ .. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشـوبه[3] صديد . فأشار عليه الطبيب أن يعهد فقال : «لو قلت غير هذا لكذبتك»

وكان قد أنكر على النـاس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه : ويحكم أيها الناس أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور

(١) الجلد الاسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أو ما بين الجلد والمصران ، أو جلد البطن كله ٠ (٢) المدة والوقت ، والمراد هنا : الاصل ٠
(٣) أي يخالطه ٠

المسلمين ؟ .. فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير المهم من شؤون الدولة وأولها الخلافة ، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استطيع اقراره ، ونجا بأهله منها وهو يقول : « ... أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر انى لسعيد »

وهو فى هذا كله لا يخالف ديدنه[1] من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة ، ولا يخفى « ان للحياة لنصيبا من القلب وان للموت لكربة[2] ! » ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة ..

فلما فرغ من شؤون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ، وأقبل يطمئن الى مضجعه فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بابنه عبد الله ينطلق الى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام ... ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين ، لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا ... ثم يستأذنها أن يدفن الى جوار صاحبيه ، يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها ، واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى ! ..

فلم يكفه هذا حتى يستوثق[3] كل الاستيثاق من رضاها ، فعاد يخاطب ابنه : « يا عبد الله بن عمر ! .. انظر ، فاذا أنا قبضت فاحملونى على سريرى ثم قف على الباب . فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فان أذنت لى فأدخلنى ، وان ردتنى فردنى الى مقابر المسلمين ، فانى أخشى أن يكون اذنها لى لمكان السلطان »

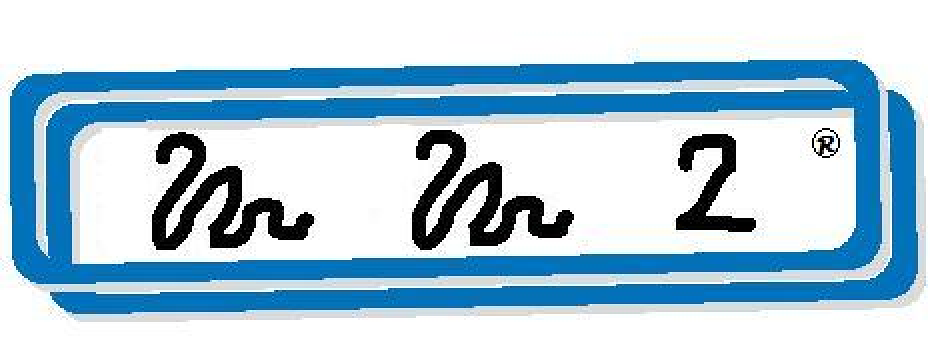
قال شهود دفنه : « فلما حمل ، فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة الا يومئذ » ... وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم ، فما دلها شىء على عظم فضله ولا عظم الحاجة الى العدل فيها كما دلها هذا الختام ..

---

(١) الدأب والعادة . (٢) الشدة . (٣) أي يتأكد .

فهرس

صفحة




Maged